سلسلة الحضارة الصينية
تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية

تقليد الطبيعة

الحدائق الصينية

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ
تأليف: دو داو مينغ



BEIJING PUBLISHING GROUP

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

تتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

صدر من هذه السلسلة:

- أثواب فخمة مزينة — الملبوسات والإكسسوارات الصينية
- تقليد الطبيعة — الحدائق الصينية
- الحجر الأنيق — تحف الجاد الصينية
- الوسائل الطبيعية — الطب الصيني التقليدي
- الدمج الأمثل بين الكونغ فو والتربية الطاوية — الفنون القتالية الووشو الصينية
- أسرار فينولوجية في الأغنية الشعبية — الفصول الشمسية الصينية
- السحر الأزلي — العمارة الصينية
- التشابه والتغاير — فن الرسم الصيني
- ازدهار أمة بفضل العلوم — العلوم والتكنولوجيا في الصين
- ألحان من الروح — الموسيقى الصينية
- الترفيه مع الفن الغنائي والسردي الشفهي — الكيو يي الصينية
- الاحتفالات والشعائر والآداب الشرقية — الأدوات البرونزية الصينية
- تعبير عن الروح — الخط الصيني
- عالم صغير — الأحرف الصينية
- أهمية المشاعر — الأدب الصيني
- طفولة حضارة — الأساطير والخرافات الصينية
- كلٌ متكامل بين العالمين العقلي والمادي — الفنون والحرف الصينية التقليدية
- عائق التاريخ الطويل — الأوبرا التقليدية الصينية


ISBN 978-614-01-2012-9



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



سلسلة الحضارة الصينية

تجسيد تاريخ طويل
استكشاف الحضارة الصينية



تقليد الطبيعة

رؤساء التحرير: باي وي وداي هيبينغ

تأليف: دو داو مينغ



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

B&R BOOK PROGRAM

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Modeling After Nature
Chinese Gardens

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2004-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

مقدمة عامة

لسلسلة استكشاف الحضارة الصينية

في عالمٍ يزداد وقعُ الحياة فيه تسارعاً، وتصبح الثقافات المختلفة أكثر اتصالاً ببعضها بعضاً، نجد الكثير من الكتب التي تقدّم للثقافات والحضارات المتنوعة. ولا شكّ في أنّ أيّ جهد مبذول في إطار التشجيع على القراءة والتعريف بالثقافات والحضارات مطلوبٌ وهامٌّ.

وفي يومنا هذا، صار من الممكن العثور على الكثير من الكتب التي تتناول الثقافات والحضارات الشعبية. غير أنّه لا يُخفى على أحد أنّ نشر الثقافة على أيدي علماء مختصين أمر مهم؛ كي يستطيع عامة الناس الانتفاع من خلاصة ثقافات الشعوب. وهذا تحديداً ما أقدم عليه نخبة من العلماء المتخصصين الذين تركوا بصماتهم في مختلف ميادين المعرفة؛ بنشرهم سلسلة كتب استكشاف الحضارة الصينية. وقد حرصوا في عملهم هذا على أن تكون الأفكار واضحة، والكتب سهلة الفهم؛ بعكس الأسلوب الأكاديمي التقليدي في مقاربة التاريخ. وتتناول هذه السلسلة مواضيع متنوعة؛ كالشخصيات الصينية، والمسرح، والموسيقى، والرسم، وتنسيق الحدائق، والعمارة، والغناء الشعبي، والطب، والحِرَف التقليدية، والفنون القتالية، والعادات، والتقويم الشمسي، فضلاً عن الملاحم والأساطير، والحليّ والمجوهرات، والأدوات البرونزية، وفنّ الخطّ والأدب الصيني. لذا، لا بدّ تُثري معارف القارئ المهتم بتاريخ الصين العريق.

وفي هذه السلسلة، سيبحر القارئ مستطلعاً صوراً مدهشة تتراكب بشكل متقن في كتب تصل به إلى قلب الحضارة الصينية وهو في مكانه؛ حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوا القراءة في هذه المواضيع. مما يجعل منها كتباً مناسبة لكل من الكبار في السن والشباب على حد سواء. فالقراءة متعة بحد ذاتها، وهي تُطوِّر القدرات والمعارف لكل من يختار الإبحار في عالمها الرحب.

الحضارة بشكل عام هي المنبع الروحي لكل أمة، وهي القوة التي تدفع الشعوب إلى المزيد من التقدم والإبداع. والحضارة الصينية على وجه الخصوص هي الوحيدة بين الحضارات الإنسانية التي يمكنها أن تفخر بتطور مستمر وغير منقطع امتد خمسة آلاف سنة. وخلال هذا التاريخ الطويل، بكل ما رافقه من عمليات تحوّل وتقلّب، أظهر الصينيون ما يتميزون به من مثابرة وجدّ، فضلاً عن التفاؤل واللطف المعروفَين عنهم. فهذا الشعب يحترم الطبيعة، ويحب العيش بتناغم معها، كما أنه شديد التسامح والتقبل للحضارات الأخرى التي ما فتئ يمتص تأثيرها ويدرسها قبل أن يستوعبها، محوِّلاً إياها إلى جزء من حضارته وثقافته. وقد لعبت حكمة الأمة الصينية وإبداعها في الماضي دوراً لا غنىً عنه في تقدم الحضارة الإنسانية كما نعرفها اليوم، وهي حتى يومنا هذا لا تزال تبرهن عن قدرتها على التجدد وترسيخ قيمها التي تتمثل في المحبة والكرم والسعي إلى تحقيق السلام والسعادة لأبناء البشر؛ وكلّها صفات تمثّل تقاليد الأمة الصينية خير تمثيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما هي التقاليد؟ التقاليد هي الثقافة الموروثة والمتطورة عبر الأجيال. ولا تزال الحضارة الصينية- بعد آلاف السنين- مستمرّةً في مسيرتها التطورية على أيدي الأجيال الجديدة، ولا يزال الشعب الصيني ذو الحضارة المجيدة يبني إرثه الغني ليصنع تاريخاً جديداً مبنياً على أخلاقياته الرفيعة والعريقة دون توقف أو انقطاع.

مقدمة

الحدائق: الماضي والحاضر

إذا كنت قد زرت الصين فربما شعرت بالانبهار أمام المباني والحدائق الإمبراطورية القديمة هائلة الحجم ورائعة الجمال مثل المدينة المحرمة، وحديقة بيهاي، والقصر الصيفي، والقصر الصيفي القديم وغيرها من معالم بكين؛ عاصمة الصين ذات الإرث التاريخي والحضاري العريق. ولعلك أيضاً شُغِفت بالأناقة الخلابة التي تتمتع بها حدائق سوتشو، المدينة الواقعة في جيانغنان أسفل نهر يانغتسه التي لطالما اشتهرت بأنها «فينيسيا شرق آسيا». ولربما نسيت الدنيا وهمومها وشعرت بانتعاش في نفسك وروحك وأنت تتجول في أحد المعابد الأثرية القديمة الواقعة في أعماق غابات الجبال الصينية الشاهقة. إن هذه الحدائق بأساليب تصميمها المختلفة التي لطالما أذهلت زوارها هي بالفعل من عجائب هذه الأرض! ولهذا يتداول أهل الصين مثلاً قديماً يقول: «في السماء توجد جنة الفردوس، وفي الأرض توجد سوتشو وهانغتشو». أحد أسباب هذه المحبة لمدينة سوتشو هو حدائقها المصممة بإتقان لا يكاد يصدق أحد أنه بمقدور بشر، أما مدينة هانغتشو فلعل سبب شعبيتها يعود إلى بحيرتها الغربية مع المناظر البهيجة المحيطة بها.

لا تكفي مداركنا لفهم ماهية نعيم السماء، ولكن أقرب تشبيه لها أعطتنا إياه ثلاث من أكبر ديانات العالم التي شبهتها بالحديقة؛ سواء أكان ذلك في حديقة عدن التي وصفها العهد القديم الذي يتّبعه اليهود والمسيحيون، أم جنة الفردوس التي وصفها القرآن الكريم الذي يؤمن به المسلمون، أم الأرض الطاهرة التي وصفتها النصوص البوذية. جميع هذه النصوص تقدم وصفاً متشابهاً: أشجار وأزهار وثمار، تتخللها أنهار وبرك ومبان رائعة الجمال ذات طرقات واسعة متسقة وبهية المظهر، وكل هذا بالطبع وصف للعناصر الأساسية التي تتألف منها الحديقة.

تعتبر الحدائق في الصين، وكما هو الحال في الغرب، مساحات فنية يستمتع

بها الناس لأنها تجمع بين مقومات طبيعية واصطناعية تعبر من خلالها عن الحق والخير والجمال في حياة الإنسان. لذا، لا نبالغ حين نقول إن الحديقة هي المكان الأمثل لحياة الناس، فهي «جنة» اصطناعية يمكن لمن يعيش فيها أن يجمع بين تمتّع حواسه بألوانها وروائحها، وارتقاء روحه في تأمل جمالها وتناسقها؛ حتى لو لم تكن غايته الخلود كما هي غاية رياضات التأمل الطاوية، أو الدخول في حالة النيرفانا كما هي غاية الرياضات الروحية البوذية.

الصين بلد يزهو بإرث حضاري يعود إلى خمسة آلاف سنة، وقد أنتجت حضارته العريقة كماً هائلاً من الفنون الوطنية الغنية والمتنوعة. وفي خزانة الكنوز الحضارية هذه، يعتبر فن تصميم الحدائق وزراعتها درة مشرقة تتمتع بشهرة عالمية.

يرتبط أصل فن زراعة الحدائق الصيني بشكل وثيق بالخرافات والأساطير، فقد ابتدعت هذه الأساطير عدة عوالم لآلهة الصين القديمة، كان أولها في جبل كونلون الأسطوري (المختلف عن سلسلة الجبال الصينية التيْ تحمل الاسم ذاته)، وقد قيل عن هذا الجبل إنه يحتوي على قصور وحدائق ومزارع وزهور وأعشاب غريبة وطيور وحيوانات نادرة. وذكرت مراجع تاريخية مثل «شان هاي جينغ» (الكتاب المرجعي في الجبال والأنهار) و«شوي جِنغ تشو» (شرح على الكتاب المرجعي في السبل المائية) أنّ أي شخص يصل إلى قمة جبل كونلون - وهي القمة التي تزعم الأساطير أنها بوابة السماء - لن يصاب بالشيخوخة أبداً، وقد عبّرت كتابات الأقدمين هذه عن شوق عميق إلى قمة هذه الجبل؛ خاصة من قبل الملوك والأباطرة الذين حكموا الصين أثناء حقب السلالات المتأخرة. شيَّد الملوك والأباطرة هؤلاء مرتفعات صغيرة على الأرض بنوا عليها منصات (تسمى تاي باللغة الصينية) كوسيلة للتقرب من الآلهة، وطلب الحماية والرعاية منها. ونكاد نرى هذه المنصات مشيدة في كل مكان تأثر فيه الناس بالأساطير والخرافات. فبحسب ما ذكرته السجلات التاريخية، بنى الملك تشي (من سلالة شيا) جُنتاي (أي منصة جُن) في مقاطعة يويشيان، كما بنى الملك تشو (من سلالة شانغ) لوتاي (أي منصة لو) في مقاطعة تشيشيان. كانت هذه

المنصات من أشكال البناء الأولى في الحدائق الإمبراطورية، وقد تحولت كل منها إلى مركز ضمن المساحات الخضراء من حولها، وكان هذا أحد أول تصاميم الحدائق المعروفة لدينا. بنى الملك وِن (من سلالة تشاو) أول حديقة صيد في الصين، وهي الحديقة المعروفة باسم «لينغيو»، وشكل بناؤها بداية التراث الصيني في استخدام التلال والمناظر المائية في تصميم الحدائق، وبعد ذلك ارتقى فن زراعة الحدائق إلى مستوى عالٍ نسبياً خلال «حقبة الربيع والخريف» مع دخول استخدام البرك الصناعية والمباني والنباتات المتناسقة إليه. خلال حقبة الممالك المتحاربة، أرسل الملك وي حاكم مملكة تشي والملك تشاو حاكم مملكة يان أناساً إلى بحر بوهاي للبحث عن الجبال الخالدة الأسطورية: جبال بنغلاي وفانغتشانغ وييغنتشو. ومع أن «أرض الأحلام الواقعة على الجزيرة» التي سعى أولئك الملوك إلى العثور عليها ربما لم تتواجد إلا في خيال من تناقل هذه الأساطير، إلا أنها في الواقع بيئة مثالية للحدائق لطالما أحبها البستانيون في الأجيال اللاحقة واستخدموها.

بعد أن وحد أول أباطرة سلالة تشين الصين، قام ببناء «البركة الطويلة»، وأمر بملئها بمياه تتدفق من نهر ويشوي، كما أمر ببناء حديقة شانغلِن في شيانيانغ، عاصمة سلالة تشين في ذلك الوقت. بعد ذلك الزمن قام الإمبراطور وو من سلالة هان الغربية بتوسيع حديقة شانغلِن، حيث بنى قصوراً واستجلب لها الحيوانات كي تستوطنها، كما زرع ما لا يقل عن ثلاثة آلاف نوع مختلف من الأشجار المثمرة والغريبة التي أحضرها من شتى أرجاء البلاد، فأصبحت شانغلِن أول «حديقة» بالمعنى الصيني الكامل للكلمة. خلال حقبة سلالة هان الشرقية، بدأت الحدائق الخاصة بالظهور بالإضافة إلى الحدائق الإمبراطورية ضخمة الحجم. فقد قام القائد العام للجيوش الصينية ليانغ جي «بعمليات بناء واسعة لحدائق، وأمر بأن تكدس الأتربة حتى تصير على شكل تلة»، وقد كانت التلة التي أمر ببنائها تقليداً نابضاً بالحياة لجبل ياو الحقيقي.

كانت حقبة السلالات الست الممتدة بين سنتي 220 ميلادية و589 ميلادية مرحلة انتقالية في غاية الأهمية في تاريخ فن زراعة الحدائق الصينية القديمة، فلم تعد مواقع هذه الحدائق بعيدة عن العاصمة، بل أصبحت تشيّد عند أطراف

المدينة وداخلها. وكذلك لم تعد مساحة هذه الحدائق تبلغ مئات الليات المربعة، بل كان من البديهي أن تتقلص إلى حد كبير. ولم تعد مناظر الحدائق التي يصنعها مصمموها تحاكي الجبال الشهيرة والأنهار العظيمة، بل أصبحت محاكاة لمناظر طبيعية معتادة أصغر نطاقاً؛ مثلاً قام شي تشونغ، وهو أحد الأثرياء خلال حقبة سلالة جين الغربية، ببناء حديقة الوادي الذهبي، وقد كثف تصميمه المناظر الطبيعية في الحديقة بطريقة انطباعية تعكس شعور المصمم إزاء جمالية المناظر أكثر من كونها واقعية تعكس الطبيعة نفسها.

أُنْشئت الحديقة الغربية خلال حكم الإمبراطور يانغ العائد إلى حقبة سلالة سوي، وقد كانت بديعة الجمال وتضاهي حديقة شانغلِن. كانت بداية حقبة سلالة تانغ أول عصر ذهبي في فن تصميم الحدائق وزراعتها، حيث شهد عدد الحدائق التي أنشأها الأرستقراطيون وكبار مسؤولي الدولة ازدياداً كبيراً. ففي لوهيانغ وحدها، بلغ عدد هذه الحدائق أكثر من ألف حديقة. كما قام الأدباء والفنانون - وهم النخبة الثقافية من أصحاب الذوق الرفيع والصفات النبيلة النقية - بإنشاء حدائقهم الخاصة ذات المناظر الخلابة التي عرفت «بحدائق العلماء»؛ ولا شك في أن أهل العلم هؤلاء قد أدركوا وجود تماثل بين تصميم الحدائق وصنائعهم الفنية والأدبية، إذ يمكننا تشبيه الحديقة بقصيدة ثلاثية الأبعاد، أو برسم يتدفق بالحياة؛ وأهم من يمثل هذه الطبقة المثقفة المهتمة بالحدائق أشخاص مثل الشاعر والرسام وانغ وي (القرن الثامن الميلادي) والشاعر باي جو يي (القرن التاسع الميلادي) بالإضافة إلى شعراء بارزين آخرين.

خلال حقبة سلالة سونغ، انحسر الاهتمام ببناء المنازل الريفية الكبيرة المحاطة بالحدائق الواسعة، وحلت الحدائق الحضرية بمنشآتها المائية الاصطناعية وصخورها المستجلبة خصيصاً محلها. قام أحد أباطرة سلالة سونغ الشمالية بإنشاء حديقة «قنيويه» (جبل طول العمر) حيث شيد فيها جبالاً اصطناعية، وشق فيها جداول جارية متبعاً تصميماً انطباعياً أدرج فيه بعض عناصر تصاميم «حدائق العلماء». كانت هذه الحديقة عملاً رائداً في فن زراعة الحدائق الصينية، فقد

احتوت على أكبر مرتفع اصطناعي مشيد بصخور تايهو، وكذلك على الكثير من المظاهر الطبيعية التي تأثر تصميمها بطبيعة الأراضي الصينية نفسها.

في حقبة سلالة يوان أثرت الإبداعات الجديدة التي شهدها فن رسم المشاهد الطبيعية الصينية في تصميم الحدائق الذي تحول اسمه إلى: «فن رسم المشاهد الطبيعية ثلاثي الأبعاد». وفي أواخر حقبة حكم هذه السلالة، عمل عدد كبير من الرسامين على إنشاء الحدائق، وروجوا لفكرة التكامل العضوي بين فنون الرسم والشعر وتصميم الحدائق وإنشائها؛ مما عنى تحولاً كاملاً من الطراز الواقعي في إنشاء الحدائق إلى الطراز الانطباعي.

وصل فن تصميم الحدائق وزراعتها إلى أوجه أثناء حقبتي سلالتي مينغ وتشينغ، ولعل خير ما يمثل إنجازات سلالة مينغ في هذا المجال هو إنشاء الحدائق الخاصة في جيانغنان؛ كمقصورة تسانغلانغ، وحديقة ليو يوان (حديقة التريث)، وحديقة تشوتشنغ يوان (حديقة الحاكم المتواضع)، وحديقة جي تشانغ يوان (حديقة إيواء المشاعر الواسعة). كانت فترتا حكم الإمبراطورين تسانغ شي وتشيان لونغ مرحلة إنشاء جديدة للحدائق الإمبراطورية شملت بناء القصر الصيفي القديم ومصيف تشنغده وحديقة الربيع، فكانت فترة حافلة بالنشاط والتجديد. امتازت الحدائق أثناء حقبة سلالة تشينغ باختيار مواقع رائعة الجمال شيدت عليها حدائق إمبراطورية هائلة الحجم باستخدام طراز في التصميم سُمِّي: «الحدائق الكبيرة المحيطة بحدائق أصغر»، فمقصورة الجبل الذهبي في مصيف تشنغده مثلاً صُمِّمت لتمثل المقصورة الموجودة في معبد الجبل الذهبي في تشنغجيانغ، أما منزل الدخان والمطر فقد اتبع تصميم منزل الدخان والشتاء في جياشينغ، في حين أن حديقة غابة الأسود في حديقة وِنيوان اتبعت تصميم حديقة غابة الأسود في سوتشو، واتبعت حديقة المصالح المتناغمة داخل القصر الصيفي تصميم حديقة إيواء المشاعر الواسعة في ووشي.

لأن الصين بلد هائل المساحة، فهو يحتوي على أحوال مناخية وجغرافية متباينة ضمن مناطقه المختلفة، وقد انعكس هذا التنوع في تصاميم الحدائق

ومميزاتها. وإجمالاً، تتميز حدائق الشمال بضخامتها وفخامتها، أما منطقة جيانغنان فتتميز حدائقها بأناقتها وجمالها الهادئ، في حين أن حدائق منطقة لينغنان (أي المناطق جنوب المرتفعات الخمسة التي تغطي مقاطعتي قوانغدونغ وقوانغشي) تمتاز ببهائها وغرابتها، أما سيشوان فحدائقها بسيطة وأنيقة.

يمكننا أن نصنف الحدائق الصينية بحسب أنواعها إلى حدائق إمبراطورية، وحدائق خاصة، وحدائق معابد. وكذلك، لدينا حدائق المناظر الطبيعية، وحدائق الأضرحة، وحدائق المباني الحكومية، وحدائق ردهات الأسلاف، وحدائق الأكاديميات، والحدائق العامة، وغيرها. ومن بين جميع هذه الأنواع، تتمتع الحدائق الإمبراطورية بالتاريخ الأقدم، وتتواجد بالدرجة الأولى في شمال البلاد. لم تُبقِ لنا تبدلات الظروف التاريخية الكثير من هذه الحدائق؛ فلدينا الحديقة الإمبراطورية الجميلة داخل المدينة المحرمة، وبعض الحدائق الأضخم حجماً مثل القصر الصيفي ومصيف تشنغده. أما الحدائق الخاصة فتشمل في الغالب تلك التي أنشأها العلماء والمثقفون، وتتوزع في الغالب ضمن أقاليم جيانغنان. ورغم أن الحدائق الخاصة تفتقر إلى العظمة والأبهة الآسرة للألباب التي تتمتع بها الحدائق الإمبراطورية، إلا أنها تحتوي على روحيتها الخاصة التي لطالما أذهلت زوارها. يمكننا أن نجد حدائق المعابد تقريباً في جميع جبال الصين المشهورة؛ إذ تتواجد أغلب هذه الحدائق في أعماق الأراضي الجبلية، وتفتح بعض الحدائق الصغيرة أبوابها للزوار؛ مثل حديقة معبد لينغِين في هانغتشو وحدائق أخرى مرتبطة مع المعابد كحديقة معبد لونغهوا في شانغهاي.

تمثّل الحدائق الصينية إجمالاً تجمعاً فنياً لمختلف عناصر الحضارة الصينية، حيث تجسّد الأفكار الفلسفية والقيم الجمالية التي يتحلى بها الشعب الصيني، وتستخدم وسائل تقنية فريدة طورها الصينيون عبر أجيال من الممارسة. وإذا أخذنا جميع هذه الخصائص بعين الحسبان، سيتضح لنا ما يميز الحدائق الصينية عن نظيراتها في الغرب واليابان والدول الإسلامية.

إذاً، دعونا الآن نلقي نظرة أعمق إلى فن الحدائق الصينية.

المحتويات

الفصل الأول

تصغير جسد الطبيعة الهائل إلى مساحة محدودة - ضمن الحدائق الصينية

مبدأ محاكاة السماء والأرض 1

عالم داخل إبريق شاي 10

كنز من مصادر الجذب الثقافي 17

الفصل الثاني

المنافسة في ما بينها لتظهر كل واحدة سحرها - أنواع الحدائق الصينية

الحدائق الإمبراطورية المدهشة 27

حدائق خاصة فاتنة 39

حدائق المعابد القديمة 51

الفصل الثالث

إتقان رباني - أربعة عناصر في إنشاء الحدائق الصينية

بناء الهضاب 67

ترتيب الأسطح المائية 76

المباني 90

النباتات 104

الفصل الرابع

وحدة الإنسان والطبيعة - الفكر الفلسفي الذي تعبر الحدائق الصينية عنه

الكونفوشيوسية والحدائق الصينية 113

الطاوية والحدائق الصينية 124

البوذية والحدائق الصينية 133

الفصل الخامس

التعبير عن الافتتان - تقدير جمال الحدائق الصينية

المضامين الجمالية في أسماء الحدائق والأبيات المزدوجة المقفاة 143

التصور الفني للحدائق الصينية 150

الجمال الديناميكي 164

الفصل السادس

لكلٍّ مزاياه - مقارنة بين الحدائق الصينية ونظيرتها الدولية

مقارنة بين الحدائق الصينية والحدائق الغربية 177

المقارنة بين الحدائق الصينية والحدائق اليابانية 192

المقارنة بين الحدائق الصينية والحدائق الإسلامية 207

المراجع 217



الحدائق الصينية

الفصل الأول

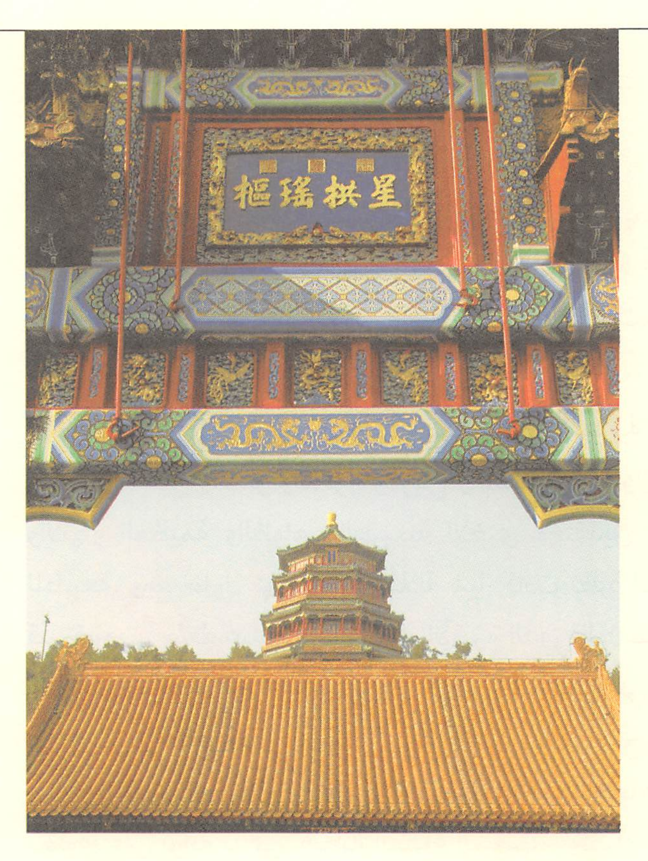
تصغير جسد الطبيعة الهائل
إلى مساحة محدودة
– ضمن الحدائق الصينية

مبدأ محاكاة السماء والأرض

يقوم جوهر تصميم الحدائق الصينية على مبدأ تقليص جسد الطبيعة الهائل إلى مساحة محدودة، ويجسد هذا الفن جوهر الحضارة الصينية. فهذه الحدائق مصممة «لتحاكي السماء والأرض»، ولكن من خلال تكثيف الزمان والمكان في المساحة المحدودة المخصصة للحديقة.

انطلق أسلاف الشعب الصيني من نظرتهم البدائية إلى الوجود والطبيعة، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم والرياح والمطر والرعد والبرق والجبال المشهورة والأنهار العظيمة والظواهر الطبيعية الأخرى معتقدين أنها تمثّل قوى خارقة للطبيعة. ومع حلول نهاية حقبة سلالة شيا، كانت نظرة الصينيين الوجودية هذه قد تقدمت، حيث عبدوا «إله السماء الأكبر» الذي قالوا عنه إنه الحاكم على عالم الآلهة. وقد اعتقد أولئك القدامى أن للإله الأكبر قصراً في السماء، وجعلوا الغاية من فن زراعة الحدائق هو محاكاة ذلك القصر الذي أصبح المثال الذي يتبعه بناء جميع القصور الإمبراطورية عبر الأجيال والسلالات المتعاقبة. القصر الصيفي مثلاً يحتوي على بوابة تدعى: «بوابة انقشاع السحب»، ونقرأ عليها نقشاً يقول: «شينغ قونغ ياوشو» (الصورة 1-1) وتعني: «النجم الشمالي تحيط به النجوم وتحميه»، وكذلك كانت هناك مجموعة مبانٍ في الضفة الغربية من بحيرة كونمينغ ترمز إلى فتاة نسّاجة تعمل أيضاً في زراعة التوت والأرز، أما الضفة الشرقية فنجد فيها تمثالاً لثور مصنوع من البرونز (الصورة 1-2) وهو يمثّل صبياً يعمل كراعٍ. وفي أسطورة صينية مشهورة، فرقت مجرة درب التبانة بين الفتاة النسّاجة والفتى الراعي؛ ومن الواضح أن بحيرة كونمينغ ترمز إلى مجرة درب التبانة. وكذلك كانت قاعة «مراقبة القمر» ذات الطوابق الثلاثة - والتي كانت موجودة في جزيرة البحيرة الجنوبية قبل بناء قاعة «المساحة اللامتناهية» - ترمز إلى قصر القمر الأسطوري. أما معبد الملك التنين في جزيرة البحيرة الجنوبية، وهضبة العنقاء (الصورة 1-3) فيرمزان إلى مخلوقَي التنين والعنقاء الأسطوريين.

كانت الحدائق الصينية القديمة تجسد الديانة أو الفلسفة التي يتبعها مالكوها، لذا كان عليها أن ترمز إلى الكون وتمثّله، بالإضافة إلى كل شيء فيه

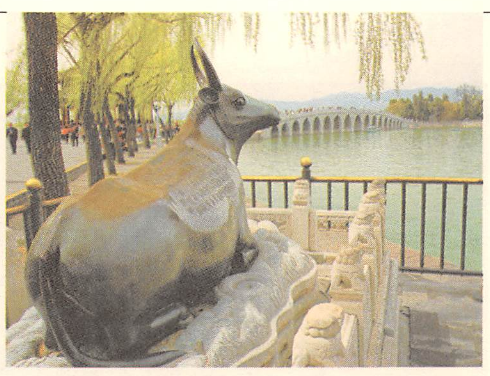


الصورة 1-1 النقوش المرسومة على اللوح الأفقي في أعلى بوابة «انقشاع السحب»، ويفيد النقش ما معناه: النجم الشمالي تحيط به النجوم وتحميه» (تصوير تشانغ تشينغ مين)

يرمز هذا النقش إلى بسط الإمبراطور لسلطانه على البلاد بكاملها، بل حتى على الكون كله، من خلال ولاء رعاياه، كما يمثّل النظرية الصينية القائلة إنه على الحديقة الأرضية أن تماثل الظواهر السماوية وتجسد أحد أهم مبادئ الفلسفة الصينية، وهو مبدأ «وحدة الإنسان والطبيعة».

فتكوّن «كوناً مصغراً». في أي تصميم صيني قديم، يرمز الشكل الدائري الأعلى أو الأوسع إجمالاً إلى السماء، أما الأجزاء السفلى أو المربعة الضيقة أكثر فترمز إلى الأرض. فإذا رأينا مثلاً عملة صينية قديمة مصنوعة على شكل دائرة تحتوي على فتحة مربعة فهي إذاً تمثيل للكون كله، وكذلك لا بد أن يلاحظ أي زائر لمعبد السماء في بكين أن كل بوابة من بوابات المعبد التسع تحتوي على ثلاث فتحات ذات أقسام علوية شبه دائرية، وأقسام سفلية مربعة الشكل (الصورة 1-4)، وكأن مصممي هذه البوابات أرادوا أن يقولوا: بغضِّ النظر عن مدى هول حجم السماء والأرض، فقد اشتملت عليهما كل واحدة من هذه البوابات.

تشتهر الحدائق الصينية بمشاهدها الطبيعية المؤثرة، وباستطاعة الزوار أن يستمتعوا بجمال الطبيعة، ولكن من خلال مشاهد قام المصممون بتقليدها وتهذيبها وتقليص حجمها إلى المساحة المحدودة التي توفرها الحديقة. في الوقت



الصورة 1-2 ثور برونزي يرمز إلى الفتى الراعي على الضفة الشرقية من بحيرة كونمينغ في القصر الصيفي (تصوير ليو شوه)

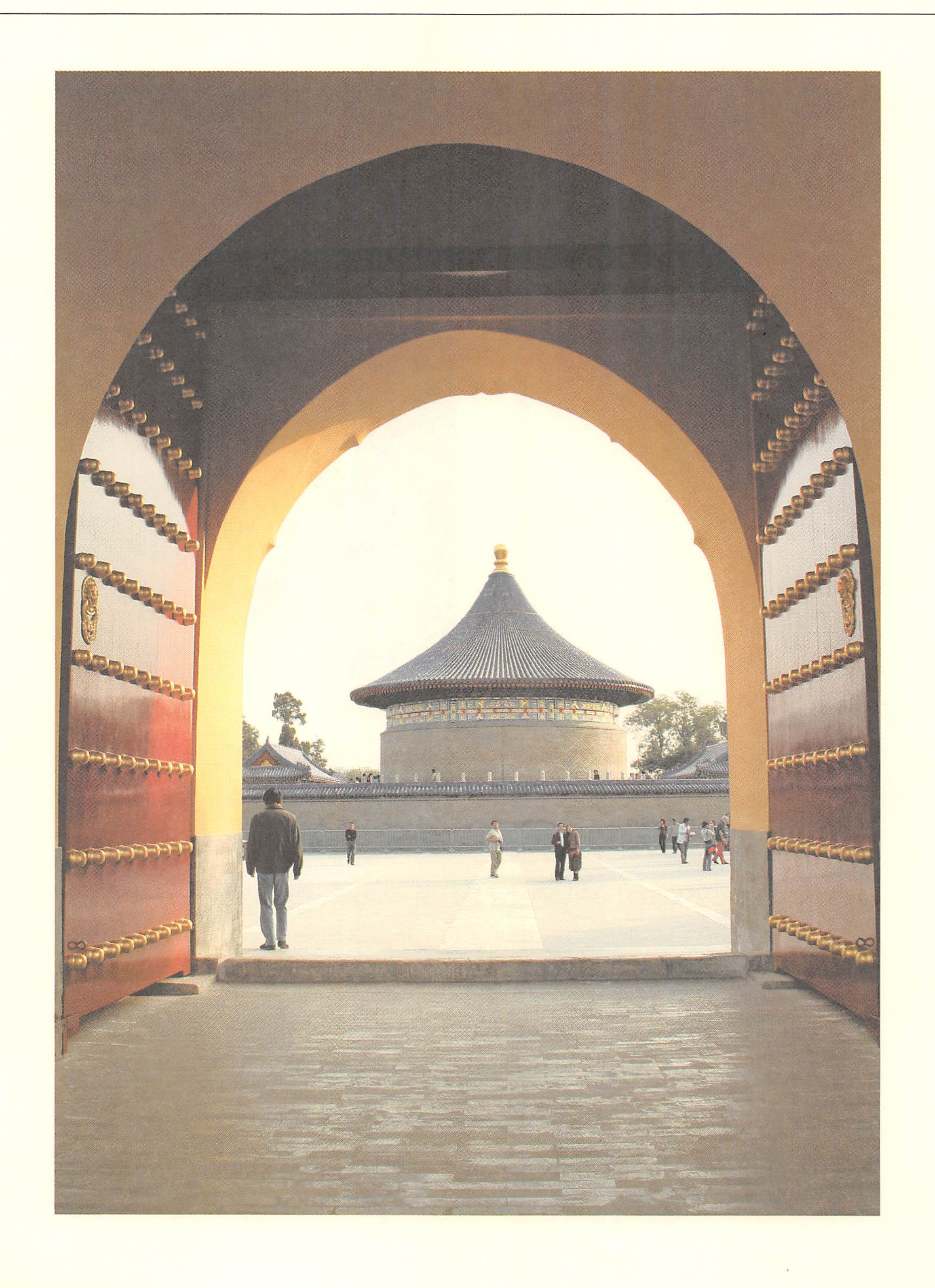
قارن الإمبراطور تشيانلونغ نفسه مع إمبراطور اليشب السماوي، وشبّه بحيرة كونمينغ بمجرة درب التبانة، وصنع تماثيل للفتى الراعي والفتاة النساجة في الضفتين الشرقية والغربية من البحيرة. يمثل «رسم الحرث والنسيج» على الضفة الغربية من البحيرة الفتاة النساجة.



الصورة 1-3 تلة العنقاء المقابلة لمعبد الملك التنين على جزيرة البحيرة الجنوبية (تصور نيه مينغ)

خلال حقب السلالات الإمبراطورية حيث ساد الحكم الإقطاعي كان التنين رمزاً للسلطة الإمبراطورية، ولذلك كان الإمبراطور يحمل ألقاباً رنانة مثل «التنين الحقيقي» و«ابن السماء». أما طائر العنقاء فقد كان يرمز للإمبراطورة، بل وقد كان التاج الصغير الذي تضعه الإمبراطورة يسمى: «تتويج العنقاء». وهكذا، كانت رموز التنين والعنقاء هذه تمثل اتحاد الإمبراطور وزوجته؛ ويمكننا أن نرى مدى أهمية هذه الفكرة من خلال الدقة التي اتبعها المصممون في بناء معبد الملك التنين وتلة العنقاء.

ذاته، يجد الجمال الشاعري أحد أسمى تعابيره في الحدائق الصينية، فقد وجدت هذه الحدائق أرضية خصبة في الحضارة الصينية، وتأثر تصميمها بفنون مختلفة تشمل الرسم والشعر. وفي الكثير من الأحيان، كان الأدباء والفنانون هم الذين صمموا هذه الحدائق وأشرفوا على إنشائها. يقوم جوهر الفن الصيني على مبدأ «محاكاة السماء والأرض»، فإذا أخذنا على سبيل المثال تصميم الحدائق الصينية المرح والمنفتح، وأيضاً استخدام الرسامين للمساحات الفارغة الكبيرة في لوحاتهم، فقد يرمز ذلك إلى الامتداد الواسع بين السماء والأرض، ولكنه قد يرمز أيضاً إلى الهواء وهو يدفع الضباب. فالمقصود من إعطاء مساحات فارغة وواسعة هو المقابلة بين الوجود والعدم والضآلة والكثافة من ناحية، وإفساح المجال أمام الحضور كي يطلقوا العنان لمخيلاتهم حتى تسرح في جمالية الأعمال الفنية هذه من ناحية أخرى؛ فطابع الانفتاح الذي توحي به الحدائق الصينية يُشعِر المشاهد



بعدم التناهي المتجلي في مساحة الحديقة المتناهية والمحدودة. ومن الأمثلة على ذلك، المساحة فوق الماء والتي تشكل الرابط الأمثل بين السماء والأرض من الناحية الروحية، ونشر عبير الحديقة في الهواء من الناحية العملية؛ إذ إن استخدام الماء- وهو أصل جميع الكائنات الحية، والذي يظهر أمام الناظر إليه بصور كثيرة ومشاهد متعددة - يضفي على الحدائق الصينية شعوراً بالسعة المكانية.

تحتوي مسافات الصين الشاسعة على الكثير من المناظر الطبيعية الخلابة في شتى أنحاء البلاد، ولا نبالغ حين نقول إن جميع جبالها تنعم بالشموخ والجلال، وإن جميع أنهارها تتميز بالجمال والانسجام، ولا شك بأن هذه المشاهد الطبيعية الجميلة توفر معيناً لا ينضب من الإلهام لمصممي الحدائق الصينية التي تتميز بتكامل بين الجمال الاصطناعي الذي يضفيه المصمم عليها وجمال مياهها وزهورها وأشجارها الطبيعي؛ حيث يتآلف الطبيعي مع الاصطناعي ليقدما نتيجة تأسر الألباب. فرغم أن الحدائق قد صممت لتقلد الطبيعة وتحاكيها، إلا أنها تهدف إلى تجاوزها وتكثيف ما تحتويه من جمال ومعانٍ، فعبارة «محاكاة المشهد الطبيعي كما هو في الطبيعة» تحمل معنى مزدوجاً بالنسبة إلى ممارسي فن زراعة الحدائق: الأول هو أن ترتيب الحدائق وبنيتها وتوليف عناصرها ينبغي لها جميعها أن تتناسب مع المناظر الطبيعية كما هي في الطبيعة نفسها؛ فيجب على مصمم الحديقة أن يحافظ على العلاقة الطبيعية القائمة بين التلال والمياه، والتآلف بين المشاهد المختلفة مثل قمم المرتفعات والأخاديد والمنحدرات والفتحات المتشكلة في الهضاب والتلال حيث تعكس التناغم القائم بين الجبال والتشكيلات المائية فيها وأسفلها. أما المعنى الثاني فيشير إلى أن التوليفة الخاصة من العناصر المستخدمة في الحديقة يجب أن تتوافق مع الواقع. فمثلاً، إذا كان مصمم الحديقة سيستخدم مواد حجرية مصغرة الحجم لبناء سلاسل من التلال مع قممها، فعليه أن يبذل

الصورة 1-4 بوابة معبد السماء (تصوير تسي يو)

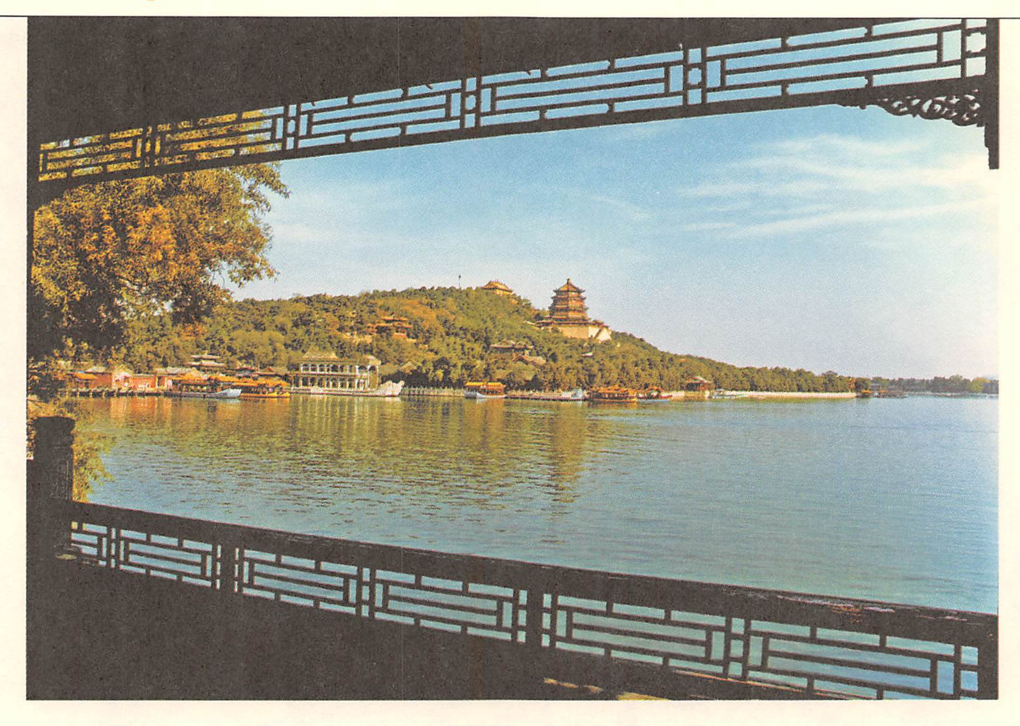
القسم العلوي من البوابة على شكل نصف دائرة، أما قسمها السفلي فمربع الشكل تقريباً في تعبير عن المفهوم الصيني القديم القائل إن السماء مستديرة والأرض مربعة. سمّى الصينيون القدماء امتداد الكون الهائل: السماء، أما امتداد السهول أمامهم فسموه: الأرض. يتحرك الجسم السماوي الدائري على الدوام، وكأنه محيط ليست له بداية ولا نهاية. أما الأرض فتحمل بصمت جميع الأشياء، وكأنها شكل مربع ساكن ومستقر، وهذا التصور لبنية الكون هو أساس مفهوم السماء المستديرة والأرض المربعة.

قصارى جهده في محاكاة الواقع، حيث يخفف قدر الإمكان من أي إشارة تشي بتدخل يد الإنسان في هذا العمل. كثيراً ما يحتاج إنشاء هذه التلال إلى تضاريس ومنعطفات تحاكي تلك الموجودة في الطبيعة، فيتم ذلك من خلال حفر التربة حول البحيرة. وكذلك يحافظ التصميم على الطابع البري البسيط من خلال زرع عرائش ذات أنماط مختلفة تترك بينها مسافات مناسبة وأكمات مع ترتيب الأشجار والنباتات فيها بطرائق مختلفة.

كذلك تستخدم عبارة: «التفوق على المشهد الطبيعي» في تصميم الحدائق الصينية، وتعني أخذ جوهر الجمال الطبيعي وتحسينه، «حيث تجتمع الجبال الشهيرة والأعشاب النضرة ضمن حدود الحديقة»، وفي إطار بيئة المنطقة التي تنشأ فيها هذه الحديقة، ولكن مع إضفاء الحالة النفسية الشعرية التي يريد المصمم لحديقته أن تعكسها، واستخدام رسوم المناظر الطبيعية كمخططات لذلك التصميم؛ وبهذا يتمكن الناس من الاستمتاع بجمال الطبيعة اللامتناهي ضمن مساحة محدودة، وقد لا يضطرون حتى إلى مغادرة منازلهم للوصول إليها!

كان موقع القصر الصيفي في بكين هضبة جرداء في الأصل، ولم يتغير ذلك إلا مع حقبة سلالة مينغ، حيث بدأت تشبه بعض الشيء منطقة جيانغنان بمناظرها الخضراء وممراتها المائية؛ إذ بدأ الناس بزراعة الأرز والكستناء المائية وأزهار اللوتس وغيرها من النباتات المائية، وتغير المشهد حتى أصبح يقارن بالبحيرة الغربية في هانغتشو، وسرعان ما لفتت المناظر الطبيعية في الهضبة نظر الإمبراطور تشيانلونغ (من سلالة تشينغ) فأنشأ حديقة على الموقع موسعاً البحيرة ومراكماً الأتربة والصخور على شكل تلة. وهكذا نرى كيف تحوّل عبقرية مصممي الحدائق الأراضي الطبيعية البسيطة إلى حدائق إمبراطورية تحتوي على قمم جبال وطبقات مختلفة من النباتات الخضراء التي تجري من بينها أنهار زرقاء رقراقة تتناغم جميعها في بنية مثالية ومشهد في غاية الإبداع (الصورة 1-5).

ينطبق الأمر ذاته على حدائق منطقة جيانغنان. فقد أنشئت هذه الحدائق بحسب تصاميم مرنة وتغييرات مبدعة في استخدام النور والظلال بحسب الأحوال البيئية والمناخية المحلية. ففي حديقة الحاكم المتواضع في سوتشو (الصورة 1-6)

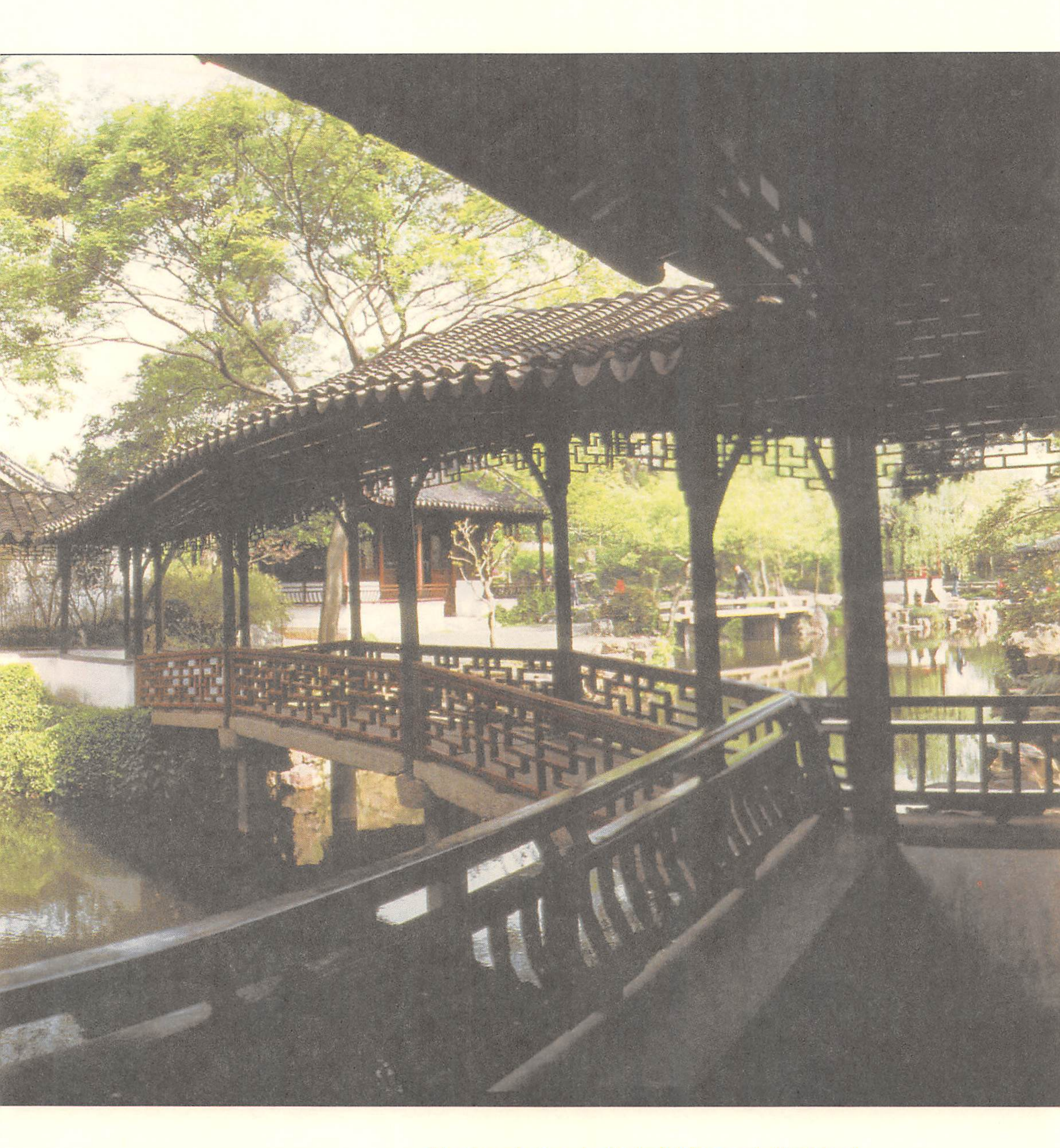


الصورة 1-5 بحيرة كونمينغ في القصر الصيفي، وتظهر مقصورة عطر بوذا من بعيد (تصوير لو جيان هوا)

يحاكي القصر الصيفي في بكين الطبيعة، ولكنه يتفوق عليها في تصميم المشاهد الطبيعية، ويجسد بنجاح التكامل بين المشاهد الطبيعية والإنسانية المرتكز على الجبال الطبيعية والمياه، ويجمع بين بهاء البناء وجمال الطبيعة.

تحتل الأسطح المائية حوالي ثلاثة أخماس مساحة الحديقة الكلية، وقد صمم البستانيون بعض الجزر في وسط المياه أو مدوا الجسور من فوقها جاعلين المشهد متنوعاً من ناحية، ومضفين شعوراً بالعمق من ناحية أخرى. يعتبر المظهر الأنيق ولكن الحي من المثل التي تسعى تصاميم المباني إليها، لذا نرى مقابل مبنى قاعة «الأريج البعيد» في حديقة الحاكم المتواضع تلة ترابية مغطاة بكم غزير من الأوراق الخضراء وقصب الخيزران، وتزيد العرائش والشجيرات المزروعة هنا وهناك على ضفة البحيرة المشهد ثراء وتنوعاً. لقد حولت مجموعة من البستانيين المبدعين هذه الأرض المنخفضة إلى لوحة متناغمة في غاية الجمال!

تُظهِر جميع الأمثلة التي أسلفنا ذكرها أن الحدائق الصينية في الواقع قطع فنية متكاملة ومصممة حيث «تحاكي السماء والأرض»، وتسعى إلى تجسيد المناظر الطبيعية دون تزيين إنساني.



الصورة 1-6 تفاصيل من حديقة الحاكم المتواضع في سوتشو (تصوير نيه مينغ)

تمثّل حديقة الحاكم المتواضع الحدائق الخاصة في جيانغنان، وتعتبر واحدة من أهم أربع حدائق في الصين، كما أنها من أكبر حدائق المشاهد الطبيعية الكلاسيكية حجماً. بدأ بناء هذه الحديقة أثناء حكم الإمبراطور تشنغده في حقبة سلالة مينغ، وتحولت اليوم إلى موقع تاريخي وحضاري تحميه الدولة، وقد أضافتها منظمة اليونيسكو إلى لائحة مواقع التراث العالمي سنة 1997.



عالم داخل إبريق شاي

أشار السيد تشن تسونغ تشو في كتابه «في الحدائق» إلى أن «أفضل الحدائق هي تلك التي تستخدم عدداً قليلاً من العناصر لإيصال معانٍ لا حصر لها؛ كما هي الحال في الرباعيات الشعرية الصينية أو قطعة من شياولينغ- وهي أسلوب قصير من شعر السانتشيوي - حيث تعكس أسطر قليلة من الشعر معاني يستغرق شرحها مجلدات كاملة، ومع ذلك لا تستوفي كل مضامينها».

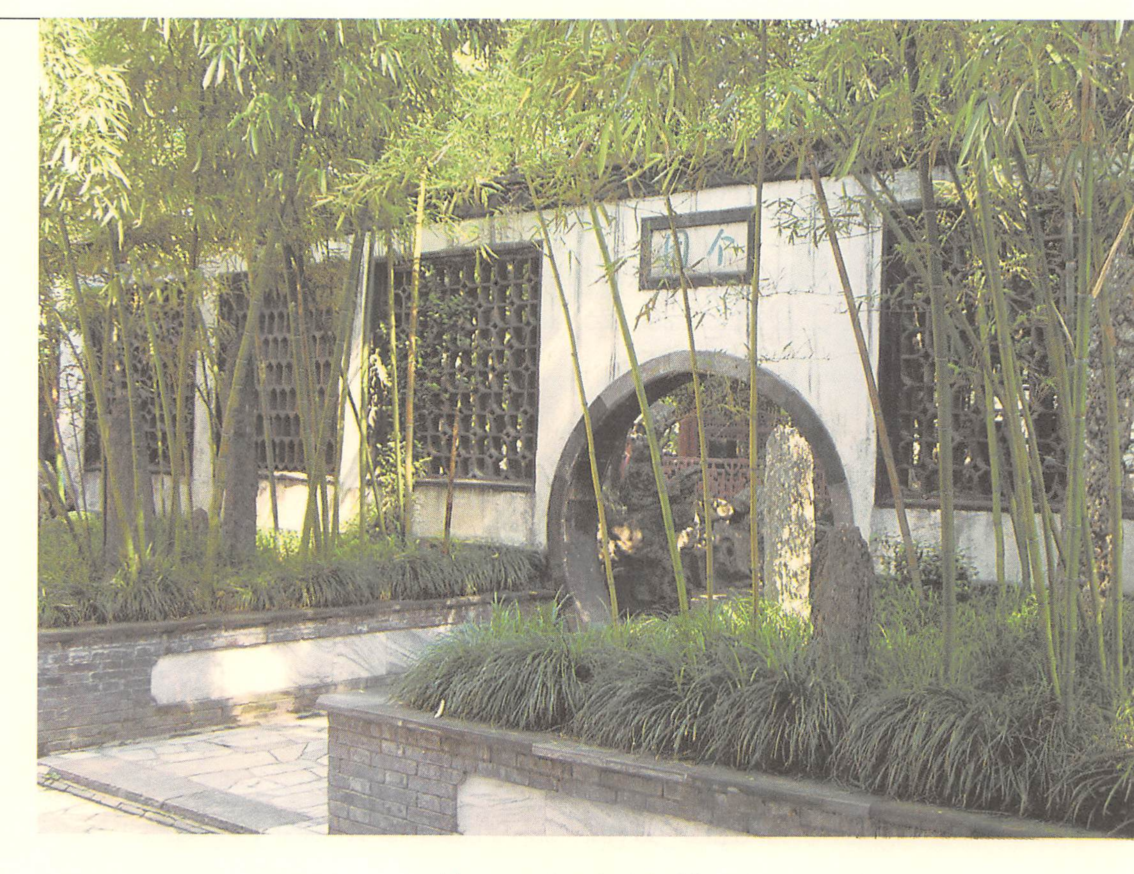
لكن الحديقة الصينية ليست بديلاً عن الشعر ولا عن الموسيقى، بل تمثّل دمجاً بين البناء والتلال والمياه والزهور والأشجار والرموز الثقافية، فتحمل معاني تشير إليها الأشعار ويتدفق منها السحر الذي تحاول الرسوم تقليده، وتعكس مظاهرها مبادئ روحية أعمق مما تراه الأعين في مساحتها المحدودة كما قيل: «حتى خصلة العشب الواحدة لديها أسلوبها وأناقتها، وحتى قطعة الحجر يمكنها أن تولد المشاعر». قد تكون البركة التي لا تتجاوز مساحتها نصف مو صغيرة، ولكنها مصممة كي تعكس سطوع النور في السماء وظلال الغيوم. وحين توضع البركة في وسط أجواء شاعرية وهادئة فهي تترك في مُشاهِدها أثراً؛ وكأنه «يرى عالماً كاملاً في إبريق شاي»! بالطبع، الحدائق الإمبراطورية شمال الصين ذات حجم أكبر لأنها تحمل هوية العائلات الإمبراطورية التي شيّدتها.

لكن، مهما كانت الحديقة ضخمة فمن المستحيل أن تكون نداً للطبيعة. وكما أشرنا مراراً، إن جوهر فن تصميم الحدائق الصينية يكمن في تقليص حجم الطبيعة المهول إلى مساحة محدودة. ورغم أن الحدائق الإمبراطورية التي أنشئت في الأحقاب التي تلت حكم سلالَتي تشين وهان كانت أصغر حجماً، إلا أن الجهود المبذولة لجمع أكبر عدد ممكن من المشاهد فيها كانت واضحة. لم تتجاوز مساحة حديقة «قنيويه» (جبل طول العمر)؛ وهي حديقة إمبراطورية كانت محرمة على العموم، وقد شُيِّدت أثناء حقبة سلالة سونغ الشمالية على مسافة أكثر من 12 لي مربع، وكان طول أعلى قممها حوالي تسعين خطوة، ولكن المناظر الطبيعية فيها والقصور والمقصورات والنباتات المحتواة فيها غطت مجالاً واسعاً من تلك الموجودة في مساحة الصين كلها. فمع أن موقع الحديقة كان في

الأراضي الوسطى إلا أنها قلدت مشاهد مشهورة في الجنوب؛ مثل بحيرة جيانهو في شاوشينغ، والقمة الطائرة من بعيد في هانغتشو، وجدول زهور الدراق التي وصفها تاو يوان مينغ، وبركة الخوخ المذكورة في قصيدة لين خه جينغ.

إذا قارنا بين الحدائق الخاصة والحدائق الإمبراطورية فسنجد أن الأولى أصغر حجماً ولكنها أكثر أناقة، فلا يتجاوز حجم أكبر الحدائق الخاصة عشرة مو مربع، أما تلك متوسطة الحجم فتبلغ مساحتها خمسة مو مربع، في حين أن الأصغر حجماً لا يتجاوز حجمها 1-2 مو مربع. كيف يمكننا أن نحاكي كوناً يكاد لا يتناهى في اتساعه ضمن هذه المساحات الضيقة؟ قد يبدو هذا وكأنه سؤال غير قابل للحل، ولكن الحدائق الصينية تقدم حلاً ذا وجهين: الوجه الأول هو أنها تحاول مزج كل تجربة قد نعيشها في الطبيعة ضمن مساحتها الضيقة، لذا تحتوي الحديقة على عناصر معقدة ومتباينة وغنية مثل المياه والحجارة والمقصورات والشرفات والقاعات والبيوت وأسوار الزهور والتلال الصناعية والخيزران والأشجار والجسور الصغيرة فوق المياه والطرق الملتوية التي تؤدي إلى نقاط منعزلة، فتحتوي الحديقة إذاً على جميع أنواع العناصر التي تقدمها الطبيعة. وإذا تجوّل أحدنا في حديقة صينية فسيجد المشهد يتغير أمامه مع كل خطوة يتخذها. وإن لكل مشهد سحره الخاص. أما الوجه الثاني فهو أن المشاهد مصممة حتى تتقلب دائماً بين ضدين هما الين واليانغ. ومن الأمثلة على ذلك، التغير والمقابلة بين الكبير والصغير، وبين المتخيَّل والحقيقي. تتغير المشاهد بتغير الفصول مُمثِّلة لنا دورة من المشاهد الخلابة التي لا تفي الكلمات بوصف جمالها.

تتجلى هذه المميزات في حديقة قه يوان في يانغتشو. إذ تغطي هذه الحديقة مساحة ثلاثين مو، وتظهر عميقة وهادئة وساحرة، ويأسر ترتيبها العبقري الألباب. وفي الطبقة الثانية من باحة الحديقة الرئيسة توجد تلال اصطناعية مصنوعة من الرواسب الكلسية وصخور تايهو والحجارة الصفراء وثلجية اللون والتي يمثِّل تباين ألوانها مناظر الجبال في الفصول الأربعة. تعتبر التلال الاصطناعية بتصميمها العبقري وموادها الحجرية الغريبة آية فنية في الإبداع. إذا مشينا إلى داخل الباحة، فسيكون أول ما نراه هو «جبل الربيع» (الصورة 1-7)، حيث توجد على يساره مجموعة من شجيرات الخيزران التي يوحي منظرها بفصل الربيع. نجد على كل من جانبي



الصورة 1-7 جبل الربيع في حديقة قه يوان في يانغتشو (تصوير وو دي في)

في الواقع، لا يوجد جبل لدينا هنا، ولكن بين قصب الخيزران الطويل نرى تجمعات من الرواسب الكلسية التي تظهر وكأنها انبثقت من الأرض؛ مضفية الحيوية على الحديقة ورامزة إلى قدوم فصل الربيع! تتميز التلة الاصطناعية المشيدة بالصخور بشتى أنواعها بأنها تقع «بين مشابهة الطبيعة وعدم مشابهتها لها»، ولكنها توفر الخلفية التي تقوم عليها كامل فكرة «جبل الربيع» وغابة الخيزران.

الطريق المرصوف بالحصى تماثيل لحيوانات مصنوعة من صخور تايهو، وهذه هي فكرة «اثنا عشر حيواناً تحتفل بالربيع» لتعزيز الشعور بفصل الربيع. تنتظم الرواسب الكلسية بجانب أسوار الزهور حتى يظهر قصب الخيزران وكأنه انبثق في الربيع؛ ليمثل هذا المشهد غابة الربيع وعودة الحياة إليها في فصل الربيع.

أما جبل الصيف (الصورة 1-8) فتمثله تلة اصطناعية بنيت من صخور تايهو. توجد أمام «الجبل» بركة من الماء النقي كامل الشفافية والمغطى بزهور اللوتس، وهو مظهر يحصل عادة في منتصف الصيف، وخاصة انعكاس الشمس على زهور



الصورة 1-8 جبل الصيف المصنوع من صخور تايهو (تصوير وو دي في)

صخور رمادية ونهر ملتوٍ وظل كثيف مغطى بأوراق الأشجار مع كهف عميق الغور؛ جميع هذه العناصر تتكامل لتصنع تنوعاً كبيراً من الصور والأشكال. يمثّل جبل الصيف لزائره الكثير من المشاهد التي يمكنه أن يستمتع بها.

اللوتس الحمراء. ربما يكون أكثر ما يلفت الانتباه في «جبل الصيف» هو الطريقة التي ترتبط بها الهضاب فوق المياه، حيث تشكل جسراً متعرجاً من فوقها، وعلى كلا جانبي السطح المائي تبدو الصخور وكأنها طائر كركي ينتصب بسهولة، بينما تبدو تشكلية صخرية أخرى وكأنها وحيد قرن يشاهد ولادة القمر، في حين تظهر أخرى وكأنها سمكة شبوط تهز ذيلها في تعبير حي، وتظهر صخرة أخرى وكأنها ضفدع يستمع إلى صدى صوت نقيقه فوق الماء. إذا توقف الزائر فوق الجسر ونظر إلى الأعلى فسوف يرى على مدخل السهل صخوراً مقلوبة تشبه طيوراً



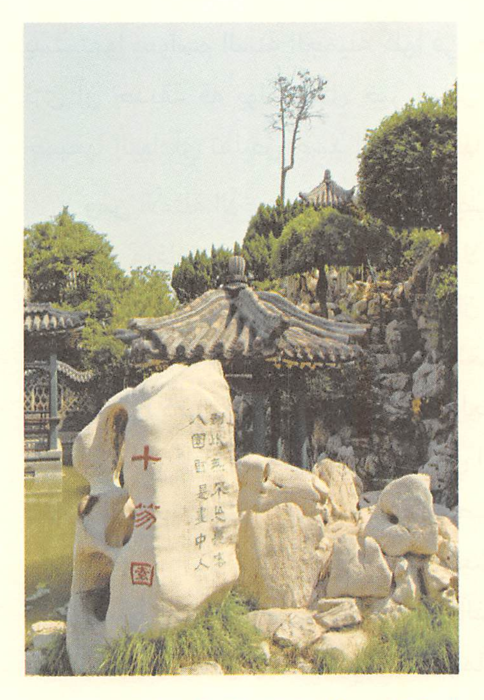
الصورة 1-9 تلة جبل الخريف المصنوعة من أحجار يميل لونها إلى الاصفرار (تصوير وو دي في)

جبل الخريف من أهم المناظر الريفية وأكثرها اكتمالاً. تضفي شجرة الصنوبر بخضارها الزاهي، وشجرة القيقب بأوراقها الحمراء بريقاً أكبر على المشهد الجبلي. كما أن تسلق جبل الخريف يشكل مصدر ترفيه قوياً لمحبي تسلق الجبال.

استقرت على أغصان الخوخ الزاهرة كي ترحب بالزوار. أما أعلى الهضبة فمزيّن بمجموعة من الصخور الموضوعة دون ترتيب واضح لتشبه مجموعة من القرود التي تستمتع بوقتها. يوجد المزيد من المشاهد الساحرة والجذابة التي تثبت أن هذه الصخور تحتوي على أكثر مما يقابل العين لأول وهلة. حين تدخل من فتحة الحديقة، ستصعد درجات عدة لتصل إلى أعلى التلة حيث توجد مقصورة، وفي الجهة الشرقية من المقصورة سترى شجرة وستارية صينية تتشابك أغصانها وأوراقها الكثيفة ليتشكل ظل تحتها. تشكّل الهضبة مع شجر نخل الرتان عليها كُلّاً متكاملاً يُعزز من الخضار الزاهي الذي يتمتع به جبل الصيف.

أما تلة جبل الخريف (الصورة 1-9) فتتشكل من أحجار يمْيل لونها إلى الاصفرار. قيل إن هذه التلة التي استُخدم في بنائها الكثير من الصخور قد صممها شي

تاو؛ الفنان الكبير الذي ذاع صيته خلال حقبة سلالة تشينغ. تجمع هذه الحجارة صفراء اللون بين بهاء جبال شمال الصين وأناقة المشاهد الطبيعية في جنوبها، وتعتبر تلة «جبل الخريف» هذه أكثر التلال الاصطناعية في الباحة شاعرية، ويبرز جمال تصميمها إلى أقصى درجاته مع احمرار السحب ساعة غروب الشمس. في فتحات المنحدر الصخري تنتصب أشجار الصنوبر الخضراء والقيقب الحمراء بثبات لا يهزه تعاقب الفصول، وتتناقض أغصانها وارفة الظلال بأوراقها الخضراء والحمراء بشكل صارخ مع الصخور الصفراء والبنية؛ مما يصنع مشهداً حيّاً يحاكي الجبال في الخريف.



الصورة 1-10 حديقة الصولجانات العشرة في ويفانغ، شاندونغ (تصوير تشانغ ديان شِنغ)

ذاع صيت هذه الحديقة بأنها أفضل الحدائق الخاصة في شمال الصين. تحتوي حديقة الصولجانات العشرة على جميع عناصر الحدائق الخاصة؛ كالهضاب والجداول والمباني والأشجار. توجد في الحديقة مبانٍ وشرفات وقاعات ومقصورات يبلغ مجموعها 67، بالإضافة إلى كهف مستور بمياه شلال صغير؛ مما يظهر أن مصممي الحديقة كانوا يرغبون في إدراج أكبر عدد ممكن من التنوع في مساحتها الصغيرة. حديقة الصولجانات العشرة هي إحدى الحدائق الصغيرة الخلابة التي تميّز أسلوب حدائق جيانغنان في شمال الصين.

استخدمت حجارة شوانشي بيضاء اللون ومستديرة الشكل في تشييد «جبل الشتاء» لصنع مشهد يحاكي الجبال التي تجمد الثلج عليها في الشتاء، في أكثر مشاهد موسم الصقيع جمالاً وتعبيراً. وكذلك لإضفاء المزيد من العمق على شعور المشاهد بفصل الشتاء، استخدم البستانيون الذين صمموا هذه الحديقة 24 نافذة مشبكة تحتوي على ثقوب دائرية. وكلما هبت فيها الرياح فهي تصدر صوتاً هادراً وكأنه عويل الرياح الشمالية الغربية التي تهب في الشتاء، وهكذا تمكّن مصممو الحديقة من محاكاة صوت الرياح في الشتاء وليس فقط صور الشتاء وألوانه.

بينما يتجول السياح في أرجاء الحديقة بصخورها مختلفة الألوان، يمكنهم أن

يستمتعوا بمواسم السنة الجميلة كلها في هذه الحديقة صغيرة المساحة. وهكذا، نرى أن حديقة قه يوان تمثّل خير تمثيل الفلسفة التي تصبو الحدائق الصينية جميعها إليها؛ أي تقليص جسد الطبيعة الهائل إلى مساحة محدودة.

ومن الأمثلة الأخرى على الحدائق الصينية حديقة الصولجانات العشرة (الصورة 1-10) في ويفانغ في مقاطعة شاندونغ. لا شك بأن اسم الحديقة مثير للاهتمام والتفكير، وقد بيَّن مالك الحديقة دينغ شان باو سبب هذه التسمية في كتاب ألفه تحت عنوان «قصة حديقة الصولجانات العشرة»: «سُمِّيت الحديقة بـالصولجانات العشرة لأنها كانت صغيرة الحجم»، فالصولجان في هذا السياق يعني اللوح الطويل والضيق الذي كان أحد مسؤولي الدولة في الأزمنة القديمة يحمله حين كان يحظى بموعد ليجتمع مع الإمبراطور، وعادة ما يصنع من الجاد أو العاج أو الخيزران، وفي وقت لاحق صارت عبارة «الصولجانات العشرة» ترمز إلى أي مبنى صغير الحجم. تغطي هذه الحديقة مساحة لا تزيد على ألفي متر مربع بكثير؛ فهي صغيرة الحجم بالفعل، ولكن تصميمها العبقري جعل جمالها الساحر بارزاً ولا يخفى عن العيان، فلا يوجد فيها أي عنصر - سواء أكان هضبة اصطناعية، أم بركة، أم غرفة ضيافة، أم مكتبة، أم جسراً ملتوياً، أم شرفة - إلا وقد تجلى فيه إبداع التصميم وجمالية التناسق. ورغم كثرة العناصر والمباني المستخدمة ضمن مساحة الحديقة الضيقة، إلا أن حسن التصميم لا يوحي للناظر بالازدحام؛ فالمساحات بين عناصر الحديقة المختلفة مدروسة ودقيقة وحسنة التنظيم، حيث يشعر المتجول فيها أن المشهد يتغير أمامه في كل خطوة يمشيها فيها، وكأنه يسير في صورة ملونة ومتعددة الأبعاد. وقد صنع المصممون هذه المشاهد الكثيرة في مساحة الحديقة الضيقة وهم يسعون إلى الغاية الأسمى لفن زراعة الحدائق في الصين؛ ألا وهي تقديم مشاهد لا متناهية في مساحة صغيرة من خلال التكامل ما بين الخيالي والحقيقي. باختصار، جمعت هذه الحديقة بين إنجازات فن تصميم الحدائق وإنشائها؛ كما تطور في شمال الصين وجنوبها، ولهذا ذاع صيتها بأنها أفضل الحدائق الخاصة في شمال الصين.

كنز من مصادر الجذب الثقافي

كثيراً ما نسمع كلمة «ثقافة» اليوم وفي سياقات متعددة. فمثلاً، نسمع عن «ثقافة الشاي» و«ثقافة الخمر» و«ثقافة الطبخ» بل وحتى «ثقافة الحمامات» وهكذا دواليك، ولكننا لا نبالغ حين نقول إن الحدائق من الجوانب الملموسة من الثقافة الصينية التقليدية التي لا يختلف حولها اثنان.

منذ حقبة مبكرة من تاريخ الصين تسبق حتى عهد سلالة تشين، ارتبطت الحدائق ارتباطاً وثيقاً مع السياسة؛ ففي أوقات الاضطرابات السياسية عادة يوجِّه الناس هجماتهم إلى الحكام الطغاة الذين يهملون شؤون الدولة ويستغرقون في الملاذ الحسية في القصور الإمبراطورية خارج العاصمة أو في المزارع والحدائق. ومن الملوك الذين اشتهروا بهذا التقصير وتعرضوا نتيجة لذلك لهجمات الناس الملك جيه من سلالة شيا، والملك تسو من سلالة يين. يعود مصدر هذه المشكلة إلى واقع تاريخي؛ وهو أن السلالات الإقطاعية حين أحكمت قبضتها على السلطة في البلاد بدأت بإنشاء مشاريع عمرانية ضخمة تشمل الحدائق، وكان الهدف من الحدائق الإمبراطورية على وجه الخصوص هو الترفيه عن العائلات الإمبراطورية



الصورة 1-11 قاعة الإحسان وطول العمر في القصر الصيفي (تصوير ليو جون)

كانت هذه القاعة تدعى في الأصل: «قاعة الحكومة المجتهدة»، وقد أنشئت سنة 1750 حتى تذكر الحكام بأن يبذلوا دائماً قصارى جهدهم في تولي شؤون الدولة. وبعد ذلك، استخدمت عبارة «الشعب المحسن يتمتع بالعمر الطويل» من كتاب «المختارات»، وتحوّل اسم القاعة إلى «قاعة الإحسان وطول العمر». كانت هذه القاعة هي المكان الذي تستخدمه الإمبراطورة الأرملة تسي شي والإمبراطور قوانغ شو في القصر الصيفي لتلقي التهنئات من الأعيان، وحيث يقابلان المبعوثين الأجانب. وقد كان هذا هو المبنى الأساسي في منطقة إدارة شؤون الدولة.



أثناء جولاتها التفقدية؛ فلطالما وجد الوعي السياسي تعبيراً له في هذه الحدائق، فمثلاً كانت قاعة الإحسان والعمر الطويل (الصورة 1-11) في القصر الصيفي تدعى قاعة الحكومة المجتهدة أثناء حكم الإمبراطور تشيان لونغ من سلالة تشينغ. وقد ترك إدراك المصممين لحجم سلطة الإمبراطور من ناحية والوعي السياسي من ناحية أخرى أثرهما على الطراز المعماري المستخدم في القاعة، والذي يمتاز بصمته المهيب وبنيته الرصينة والبهية. يمكننا أيضاً القول إن «قاعة البساطة والصدق» (الصورة 1-12) – القاعة الرئيسة في مصيف تشنغده - هي أيضاً قاعة للحكومة المجتهدة؛ حتى لو لم تحمل هذا الاسم.

تمثّل جميع هذه القاعات البقايا التاريخية للوعي السياسي السائد في الزمن

الصورة 1-12 داخل قاعة البساطة والصدق (تصوير يي تشين ياو)

تقول الكلمات الأربع الظاهرة على اللوح الأفقي المعلق في وسط القاعة: «دان بوه جينغ تشينغ»، وهي عبارة ترجع أصولها إلى «كتاب التغيرات»، وتعني كلمة «دان»: البساطة، أما عبارة «دان بوه» فتعني: «الرضا بالبساطة وعدم الاكتراث بالمكاسب الدنيوية»، أما الكلمتان «جينغ تشينغ» فتعنيان: «كُن حصيفاً وصادقاً». والكلمات الأربع معاً تعني: «تولي أمور الدولة باجتهاد، ودون الاكتراث بالشهرة والثروات».

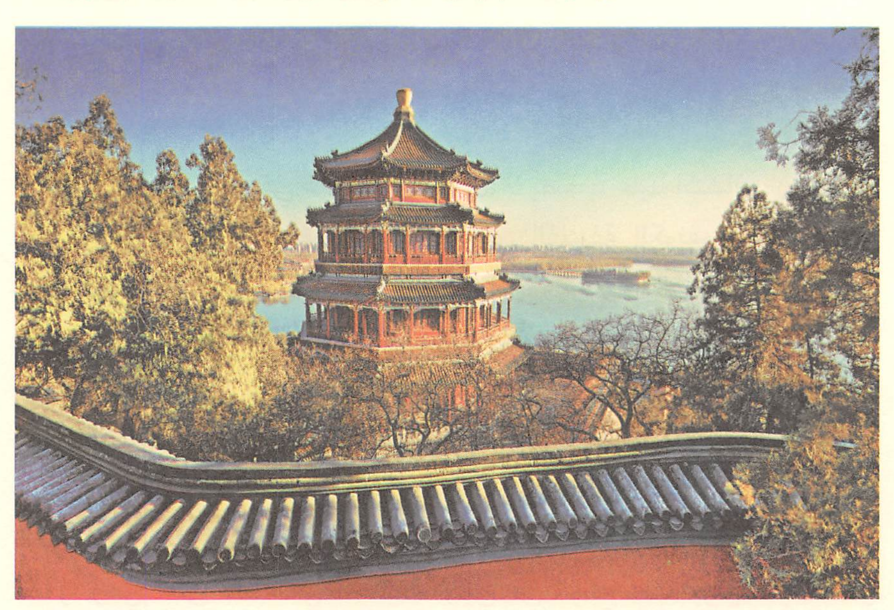


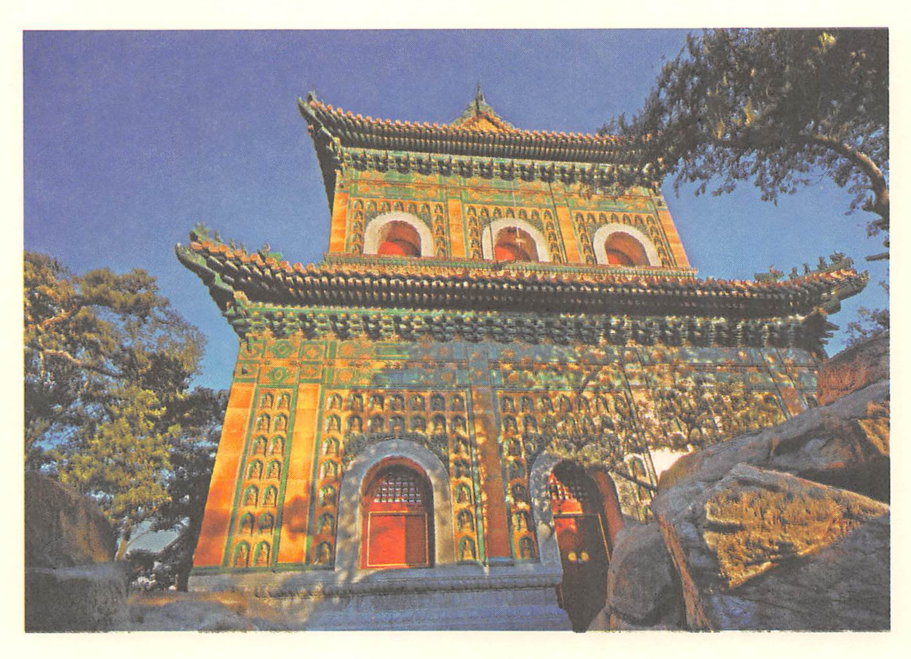
الإمبراطوري، لكن الحدائق في جيانغنان على عكس ذلك تماماً. فالذوق العام لمصممي هذه الحدائق يكشف عن توجه مضاد للسياسة، أو على الأقل عن عدم اكتراث بالوعي السياسي. فهذه الحدائق تدل إجمالاً على وعي مصمميها بأهمية الخلوة والعزلة، ولا شك في أن هذا هو النقيض للروحية الجماعية الفاعلة التي تتطلبها السياسة.

العلاقة بين الحدائق الصينية والمفاهيم الفلسفية واضحة. فمثلاً، توحي المناظر الطبيعية التي تصورها الحدائق بمفهوم «وحدة الإنسان والطبيعة» الذي تتبناه المدرسة الكونفوشيوسية، وكذلك توحي باتباع طريق الطبيعة؛ الأمر الذي تدعو إليه الفلسفة الطاوية، وبمفاهيم التناغم والتحرر من الهموم الدنيوية التي يقوم عليها الفكر البوذي.

الصورة 1-13 مقصورة عطر بوذا في القصر الصيفي (تصوير تيكتوك912)

تعني عبارة «فوشيانغ» الرثاء للبوذا، وقد كان من المزمع بناء «مقصورة إطالة العمر» لتتألف من تسعة طوابق أثناء حكم الإمبراطور تشيان لونغ (حقبة سلالة تشينغ)، ولكن البناء توقف بأمر من الإمبراطور قبل إتمام الطابق الثامن، وبدلاً من ذلك تمت إعادة تصميم البناء، حيث أصبحت المقصورة تعرف باسم: «مقصورة عطر بوذا». في عام 1860، دمرت القوات الفرنسية والبريطانية المتحالفة المقصورة، ولكن سرعان ما أعيد بناؤها أثناء حكم الإمبراطور قوانغ شو (1875-1908) في موقعها الأصلي لتحتوي على تمثال لأميتابها (بوذا السماوي، أو بوذا الرئيس عند طائفة «الأرض الطاهرة» البوذية).





الصورة 1-14 مدخل ذو قناطر مزججة أمام «بحر الحكمة» - «أرض العطور الكثيرة» (تصوير تيكتوك912)

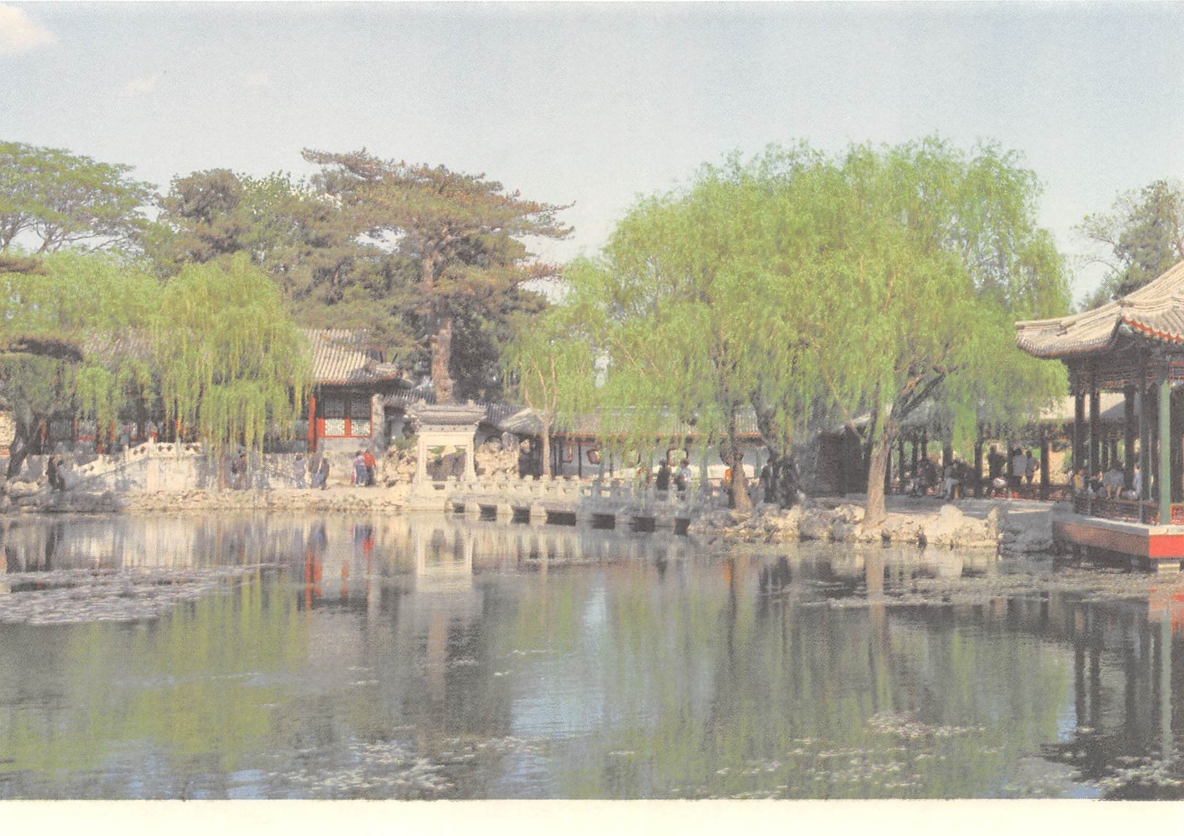
يقع مبنى «بحر الحكمة» على قمة تلة «العمر الطويل» في القصر الصيفي. «بحر الحكمة» مصطلح ديني يشير معناه العام إلى مديح حكمة بوذا على أنها ظواسعة كالبحر، وعلى أن سلطته لا حد لها. يبدو المبنى نفسه وكأنه مشيد بمواد خشبية ولكنه في الحقيقة مبني بالكامل باستخدام أقواس مقلوبة مصنوعة من الطوب الحجري، ولذلك يسمى المبنى أيضاً: «القاعة الخالية من الدعامات» لأنه لا توجد فيه أي دعامة تحمل وزن المبنى، ويسمى أيضاً: «قاعة الأميتايوس» بسبب وجود تمثال لأميتايوس داخله (وهو اسم آخر لآميتابها).

لنأخذ القصر الصيفي على سبيل المثال، لا يصعب علينا اكتشاف أن تصميم الحديقة الإمبراطورية فيه يعكس مبادئ من الفلسفة الكونفوشيوسية. توجد داخل بوابة القصر الشرقية مجموعة من المباني، ومن بينها القاعة الرئيسة، وهي «قاعة الإحسان والعمر الطويل». وتعني أن الأشخاص الذين يمارسون الإحسان في حياتهم يتمتعون بعمر طويل؛ وهو تعبير للمفهوم الكونفوشيوسي في إدارة شؤون الدولة. وبالإضافة إلى الكونفوشيوسية، نرى أيضاً آثار للمعتقدات البوذية؛ فالمبنى الرئيس داخل القصر الصيفي هو «مقصورة عطر بوذا» (الصورة 1-13)، والتي تحتوي على تمثال لآميتابها. كما توجد قاعة بحر الحكمة في أعلى هضبة طول العمر؛ وهي أعلى نقطة في الحديقة، وهي في الواقع قاعة بوذية تتألف من

طابقين يتقدمها مدخل ذو قناطر مزججة (الصورة 1-14). نجد على الألواح المنحوتة أفقياً في كلا جانبي المدخل ثلاثة أحرف، وإذا جمعناها معاً فستشكل الأنشودة البوذية التي تقول: «أراضي العطور التي لا تحصى، وغابات البَرَكة، وبحر الحكمة، والغيوم الميمونة». كما نجد أيضاً أثراً للديانة الطاوية في القصر الصيفي. فحديقة المصالح المتناغمة (الصورة 1-15) صُمِّمت لتحاكي حديقة «إيواء المشاعر الواسعة» في مدينة «ووشي»، بل وقد كانت تحمل الاسم ذاته في بداية إنشائها، ولكنها سُمِّيت بعد ذلك «حديقة المصالح المتناغمة» في عهد الإمبراطور جيا تشينغ (من سلالة تشينغ). إن معنى «إيواء المشاعر الواسعة» هو أن يوجّه الإنسان مشاعره إلى الطبيعة؛ وهو من الأسس الفلسفية التي قامت عليها آراء المفكرين الطاويين من أمثال لاوتسي وتشوانغ تسي. ولدينا أيضاً «جسر السمكة العارفة» (الصورة 1-16) في حديقة المصالح المتناغمة؛ فهذا الجسر يذكر العبارة الرمزية التي قالها الحكيم تشوانغ تسي عن «معرفة اللذة التي تجربها السمكة في نهر هاوشوي». أما بالنسبة إلى الحدائق الخاصة، فلا شك في أنها لا تحتوي على المستوى نفسه من الرموز الفلسفية التي تحتويها الحدائق الإمبراطورية، لكن هذا لا يعني أنها لا تحتوي على أي معنى فلسفي، بل إنها تحتوي على معانٍ فلسفية كثيرة، لكننا لن نخوض في شرحها هنا.

تعود العلاقة بين الحدائق والأدب إلى أزمنة بعيدة أيضاً. فقد مارست الأساطير الصينية، وخاصة مجموعة الأساطير حول «أرض بينغلاي الأسطورية»، تأثيراً كبيراً على ترتيب الحدائق الصينية التقليدي، فأصبحت عملية حفر بركة واستخدام الأتربة المتراكمة من جراء الحفر لبناء هضبة اصطناعية هي النمط العام الذي يتبعه إنشاء الحدائق الصينية، وكذلك استخدمت الحدائق الإمبراطورية نمط «البركة الواحدة والهضاب الثلاث» منذ عهد سلالة هان. حتى في الحقبة الحديثة، شُيِّدت الجزر الثلاث في القصر الصيفي – وهي جزيرة البركة الجنوبية، وجزيرة تشي جينغ قه، وجزيرة تساوجيانتانغ - لترمز إلى جبال الخالدين الثلاثة.

وكذلك تلعب القصائد والمقالات دوراً مهماً في فن تصميم الحدائق وزراعتها؛ إذ نجد في الحدائق الصينية عادة ألواحاً محفورة أفقياً، ونقوشاً وأبياتاً شعرية متجانسة كي تسلط الضوء على بعض المشاهد المحددة أو التي تعبِّر عن بعض

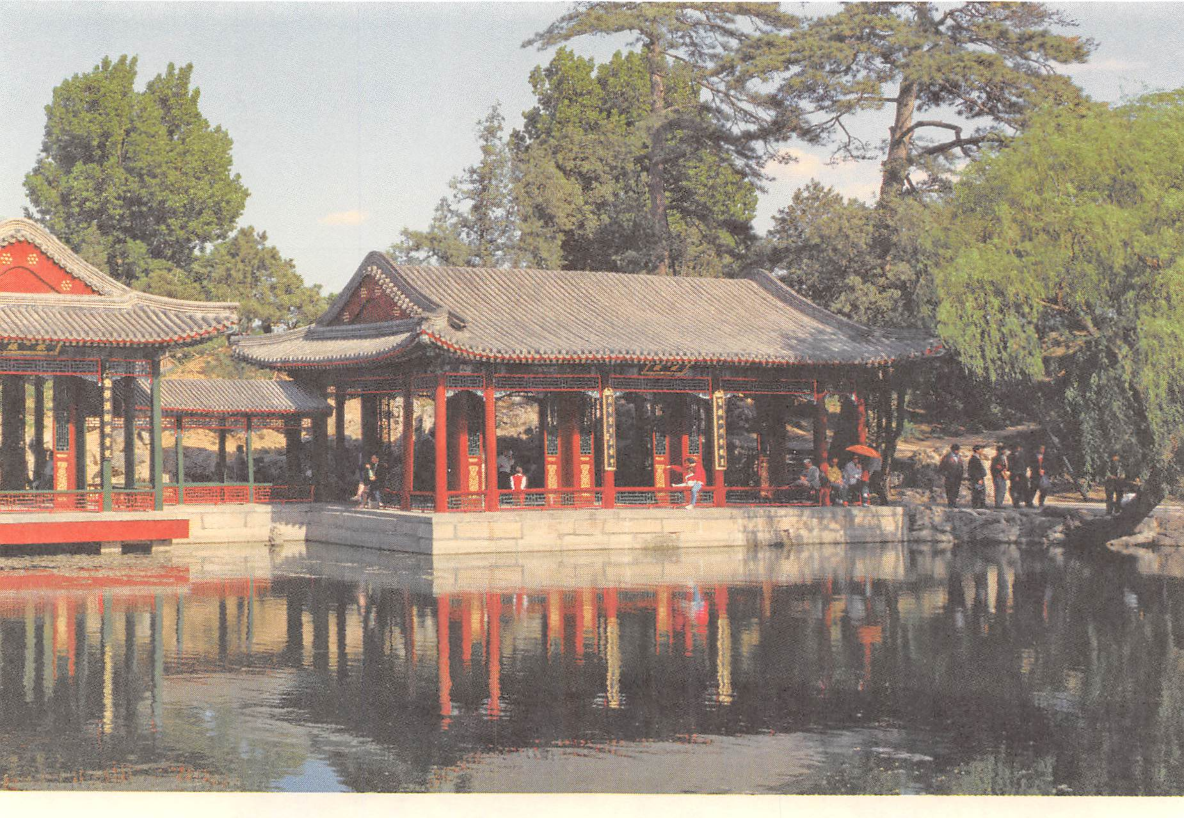


الصورة 1-15 حديقة المصالح المتناغمة في القصر الصيفي (تصوير وانغ وِن بوه)

تقع حديقة المصالح المتناغمة على السفح الشرقي من تلة العمر الطويل، وهي حديقة مستقلة صُمِّمت على طراز حدائق جنوب الصين داخل القصر الصيفي. في أول الأمر، كانت هذه الحديقة تدعى: «حديقة إيواء المشاعر الواسعة» لتحاكي الحديقة التي تحمل الاسم ذاته في جبل هويشان في ووشي، والمقصود منها هو «إيواء مشاعر المشاهد من خلال توجيهها إلى الطبيعة»، وهي فكرة ترجع إلى الفلسفة الطاوية، ثم أعيدت تسميتها إلى «حديقة المشاعر المتناغمة» حين أعيد بناؤها سنة 1811.

المشاعر والآمال. عادة، تكون تلك الأبيات الشعرية منعشة للنفوس ومحفِّزة للأفكار، وتلعب دوراً مهماً في إضفاء جو علمي على الحدائق، ولهذا كثيراً ما تسمى الحدائق الصينية هذه: حدائق العلماء.

أما في ما يتعلق بعلاقة الحدائق بالرسوم، فالحدائق الصينية تسعى إلى تحقيق مثال «محاكاة المشهد الطبيعي والتفوق عليه»، وهو الهدف ذاته الذي تسعى إليه الرسوم الصينية. لقد لعب فن رسم المشاهد الطبيعية الصيني التقليدي دوراً خاصاً، ومارس تأثيراً هائلاً على فن تصميم الحدائق؛ من حيث تنظيم الحدائق، وتأليف عناصرها، وصناعة مشاهدها، بالإضافة إلى أساليب إنشاء الحدائق الأخرى. وجّهت النخبة الأدبية الصينية جهودها نحو التعبير عن جوهر المشاهد الطبيعية وليس إلى إعادة إنتاجها كما هي، وقد عبّر أولئك الأدباء والفنانون عن فهمهم العميق للطبيعة ونظرتهم الفلسفية إليها من خلال تصاميم حدائقهم، فكانت الحدائق عموماً، والحدائق الخاصة على وجه الخصوص تنشأ لتعبر عن اشتياق الفنان أو



الأديب الذي صممها إلى القرب من الطبيعة والحياة المنعزلة في المناطق الريفية؛ وهكذا كان فن تصميم الحدائق ومنذ أول نشأته متأثراً إلى حدٍّ كبير بالرسوم الفنية المعبرة عن الطبيعة، وكانت تلك الرسوم الصينية التقليدية غالباً ما تستخدم الأسلوب الانطباعي وليس الواقعي في التعبير، بل وكثيراً ما كان الفنان يخط قصيدة على لوحته لينقل حالته الروحية أو العاطفية إلى المشاهد، إذ كان هدف الفنان هو تحفيز أخيلة مشاهدي فنه من خلال تصميمه العام للوحته، فكانت بعض اللمسات بالفرشاة ترمز إلى مساحات واسعة من أمواج البحر المتكسرة، أما رسم بعض أغصان الأشجار فيرمز إلى غابة متنامية الأطراف ووارفة الظلال. وقد طُبِّقت المبادئ ذاتها على فن تصميم الحدائق وزراعتها، حيث يصنع الفنان مشهداً «يكون فيه طول عمودي يتألف من ثلاثة تسون يمثل ارتفاع ألف رِن، وعرض أفقي من بضعة تشي يمثل مسافة مئات لي»، أو: «تُظهِر زاوية واحدة من قمة الجبل الاصطناعي كامل انحدار جبل هوا وبهاءه، بينما تُمثِّل بركة ماء صغيرة أنهاراً أو بحيرات متسعة لا تكاد تكون لامتدادها نهاية». وحين يُقلَّص المشهد الطبيعي إلى مشهد الحديقة الاصطناعي يصبح مقيداً بمساحة ضيقة، ولكنّ هذه المساحة الضيقة تُمكّن زوارها من رؤية امتداد الطبيعة الهائل.



الصورة 1-16 جسر السمكة العارفة في حدائق المصالح المتناغمة في القصر الصيفي (تصوير نيه مينغ)

يعود اسم الجسر إلى حوار بين اثنين من فلاسفة الصين القدماء، قال أحدهما، وهو الحكيم الشهير تشوانغ تسي: «ما أسعد هذه الأسماك التي تسبح في النهر!» فاعترض الفيلسوف الآخر، ويدعى هوي تسي، قائلاً: «أنت لست سمكة، فكيف يمكنك أن تعرف ما تشعر به الأسماك؟»، لكن تشوانغ تسي استخدم المنطق ذاته الذي استخدمه خصمه فأجاب: «ولكنك لست أنا، فكيف يمكنك أن تعرف أنني لا أعرف ما تشعر به الأسماك؟».

أنشئت الحدائق الصينية بأسلوب إيحائي مدروس بدقة، وهو الأسلوب ذاته الذي تعتمده الرسوم التقليدية الصينية؛ وهو أسلوب يرفض فكرة «رؤية كل شيء في لمحة بصر واحدة»، بل يعتمد على «تقديم مشهد خارج عن توقعات الزوار؛ حيث يظلون في ضباب الحيرة». عادة، لا يتجلى المشهد المركزي الرئيس في الحديقة من النظرة الأولى عند مدخل الحديقة، بل عند آخر محطة من الجولة فيها. يختلف أسلوب تصميم الحدائق هذا عن الحدائق الغربية. ففي الحدائق

الغربية، يركز أسلوب التصميم على «رؤية كل شيء من اللمحة الأولى عند بوابة الحديقة». يتّبع الفنانون الذين صمموا الحدائق الصينية المبدأ المستخدم في الرسوم الصينية القديمة؛ وهو قيام كل من الحقيقي والمتخيل بتوليد بعضهما بعضاً، فيمثّل المشهد الطبيعي الصلابة، أما المساحات الخاوية فتمثل الخلاء والفراغ. ويصنع اندماج الصلابة مع الفراغ تأثيراً دائم التغير، مما يحسّن النتيجة الفنية إلى حدٍّ كبير. فمثلاً في جبل تشينغتشنغ - وهو موقع يعتبره الطاويون مقدساً ويحجون إليه - نرى المباني تحتشد في الجانب الأمامي من الجبل، بينما تتناثر في جانبه الخلفي. ويرمز هذا التصميم إلى عالم المظاهر الخيالي المكتظ المزدحم وعالم الحقيقة المتسع الرحب. ويعتبر تصميم المباني في الجبل وتوزيع المسافات بينها أعجوبة فعلاً.

مع مرور الزمن، توصل مصممو الحدائق في الصين إلى نوع من الإجماع حول بعض المفاهيم والرموز في الحدائق. فمثلاً، يرمز الخيزران إلى النقاء والسمو، وترمز شجرة الصنوبر إلى الهيبة، أما صيد السمك بالصنارة فيشير إلى العزلة والانفراد، في حين أن جعل فنجان يطفو على سطح الماء يرمز إلى اجتماع الأصدقاء. ومن خلال المزج بين المشاهد والمشاعر، تستخدم الظواهر الطبيعية والتاريخية والحضارية بعبقرية لصنع عوالم شاعرية أغنى وأوسع مما يقابل العين عند الوهلة الأولى.

إجمالاً، نشأ فن الحدائق الصينية في حضارة امتد تاريخها لآلاف السنين، وكانعكاس لقيم هذه الحضارة ومدارسها الفلسفية ومذاهبها الدينية، ولذلك تتجاوز مضامين الحدائق مجرد تقليد المشاهد الطبيعية بما فيها من أراضٍ عشبية وغابات مكتظة بالأشجار وجبال شاهقة وأنهار جارية وغيرها من الصور الريفية. لا يمكن لهذا الكتاب أن يحيط بجميع جوانب العلاقة بين الحدائق الصينية والثقافة الصينية التقليدية، لكن علينا أن نتذكر دائماً أنه وكما أن البحر واسع حيث يحتوي جميع الأنهار التي تتدفق إليه، فإن الحديقة الصينية رغم ضيق مساحتها صنيعة استثنائية للحضارة الصينية القديمة، وسبب تميزها هو إحاطتها بمدى واسع من المضامين الثقافية والروحية التي نشأت في ظلال هذه الحضارة.



الحدائق الصينية

الفصل الثاني

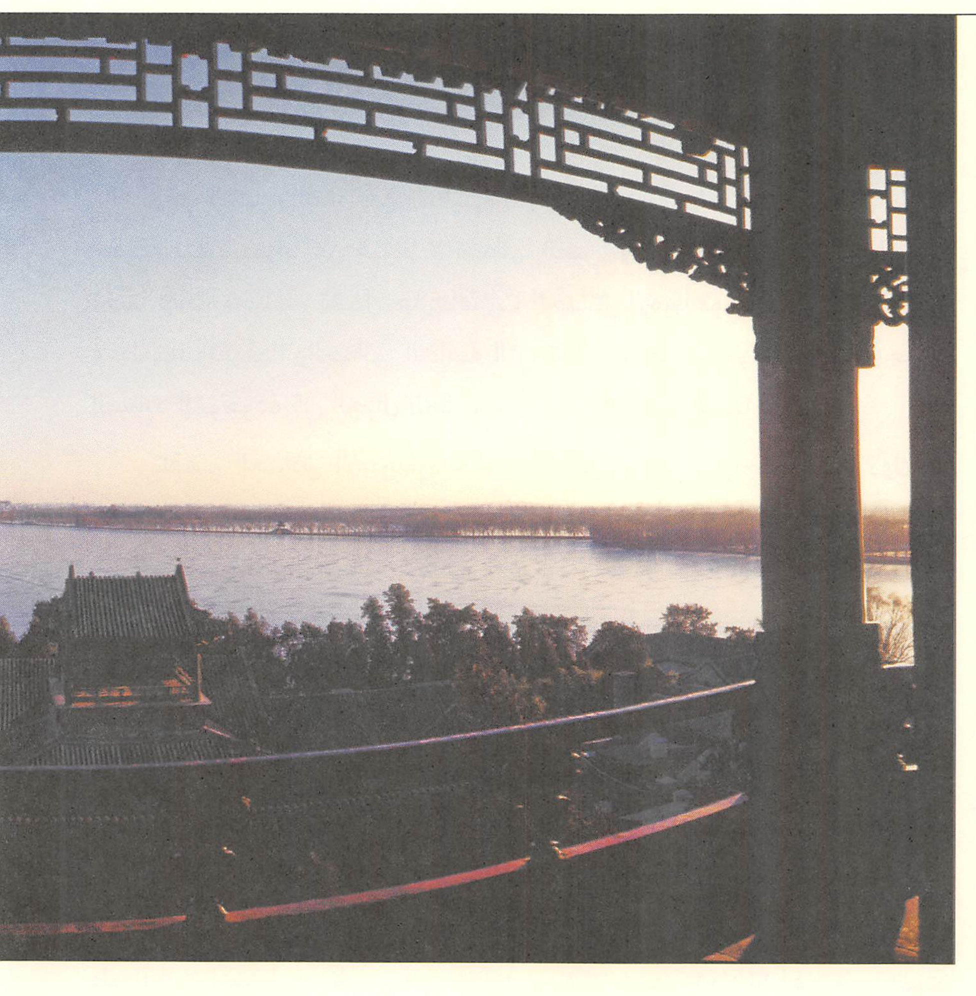
المنافسة في ما بينها لتظهر كل واحدة سحرها
- أنواع الحدائق الصينية

الحدائق الإمبراطورية المدهشة

رغم التشابه العام في أساليب تصميم الحدائق الصينية كلها، إلا أن كل حديقة تتفرد بمزايا عن غيرها لا تخطئها العين، ولذلك صُنِّفت الحدائق الصينية تحت فئات مختلفة. تشمل هذه الفئات الحدائق الإمبراطورية التي تمتاز بأبهتها وعظمتها وتفوقها، والحدائق الخاصة التي تمتاز بصغر حجمها وروعتها، وحدائق المعابد الموجودة في الجبال المشهورة أو المواقع ذات المشاهد المميزة.

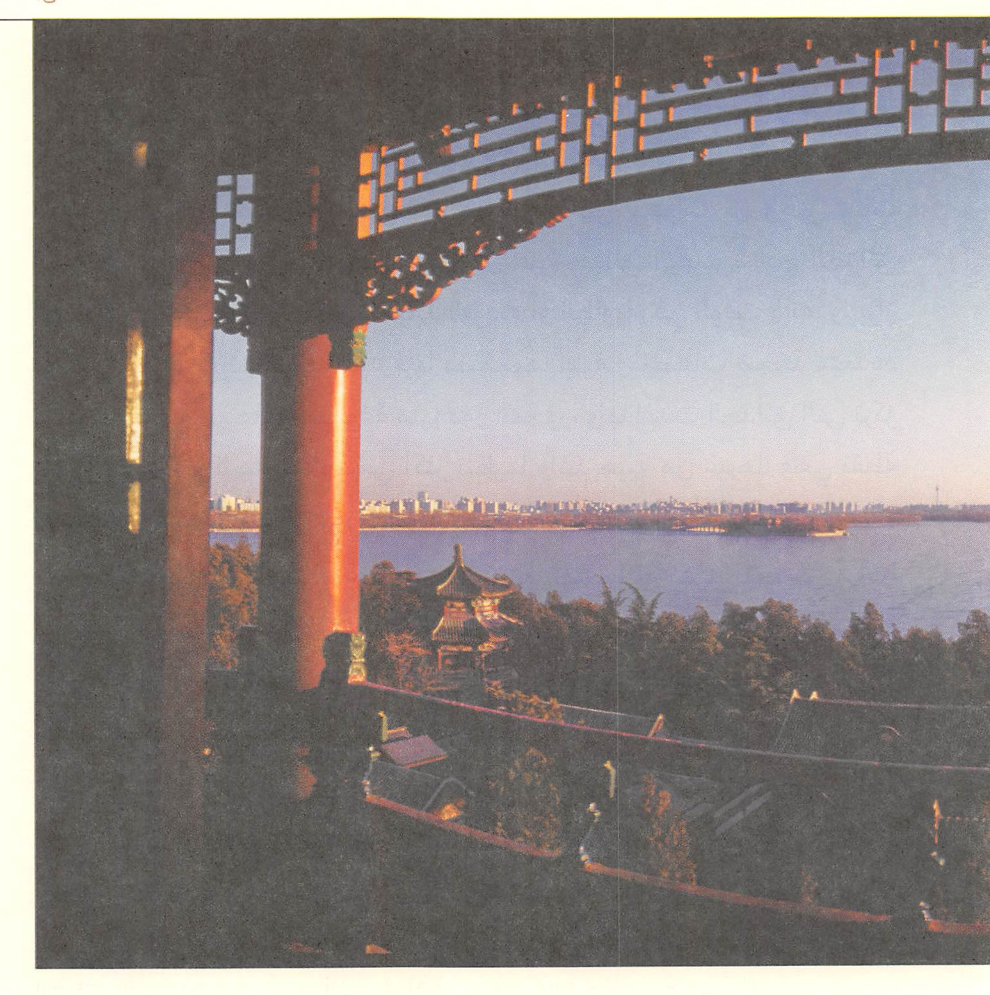
تنقسم الحدائق الإمبراطورية بدورها إلى نوعين: يتواجد النوع الأول في العاصمة قرب القصور الإمبراطورية وهو يماثل الحدائق الخاصة. كان هذا النوع من الحدائق يسمى: «حدائق القصور الإمبراطورية»، وتندرج الحديقة الإمبراطورية داخل المدينة المحرمة وحدائق البحر الأوسط والبحر الجنوبي والبحر الشمالي بجانب المدينة المحرمة تحت هذا النوع. أما النوع الآخر من الحدائق فيبنى في أماكن هادئة ومنعزلة على أطراف المدن، ومن الأمثلة عليها الحدائق الإمبراطورية من فئتَي ليقونغ وتشينغ قونغ. كانت الحديقة الإمبراطورية من فئة تشينغ قونغ جزءاً من القصور المخصصة لإقامة الإمبراطور لفترات قصيرة أثناء قيامه بجولة حول البلاد، ومن الأمثلة عليها حديقة بركة اللوتس القديمة في باودينغ، خه بي. أما فئة ليقونغ فهي الحديقة الموجودة في القصور التي يقيم فيها الإمبراطور لفترة طويلة من الزمن ليدير شؤون الدولة؛ وهي مراكز سياسية تكاد تضاهي في أهميتها القصر الإمبراطوري الرئيس في العاصمة، ومن الأمثلة عليها مصيف تشنغده.

في الصين القديمة، كان أي شيء يتعلق بالإمبراطور مباشرة من قصور وأضرحة ومعابد يستخدم للتعبير عن سلطة الإمبراطور العليا، سواء أكان ذلك في شكله أم ترتيبه. ولما كان الهدف الثاني من البناء هو سعادة الإمبراطور ولذته لم تكن الحدائق الإمبراطورية استثناء لهذه القاعدة. وصلت السلطة الإمبراطورية إلى مدى غير مسبوق أثناء عهد سلالة تشين، وقد عبَّرت الحدائق الإمبراطورية المشيدة في ذلك العصر عن هذه السلطة خير تعبير. فمثلاً، كانت الجزر التسع الموجودة في بركة القصر الصيفي القديم الخلفية تسمى: «قاعة السلام والنعيم على الجزر التسع»، وترمز إلى أقسام الصين الإدارية الستة المدونة في «كتاب يويقونغ في



الصورة 2-1 بحيرة كونمينغ كما تظهر من مباني «التلوي في الصورة» (تصوير نيه مينغ)

تقع مباني «التلوي في الصورة» في الجانب الغربي من هضبة العمر الطويل، وهي مجموعة مهمة من المباني بجانب الجبل. يحتوي المبنى الأوسط على مقصورة ذات طابقين، بينما يحتوي كل طابق على مقصورتين أصغر حجماً وبرجين. يسمى البرج الغربي: «حب الهضبة»، أما الشرقي فيدعى: «استعارة الخريف». تستخدم شرفة تعتلي الجبل للربط بين المباني، وحين يتجوّل الزوار في الشرفة سيجدون أنفسهم أمام مشهد بانورامي خلاب.

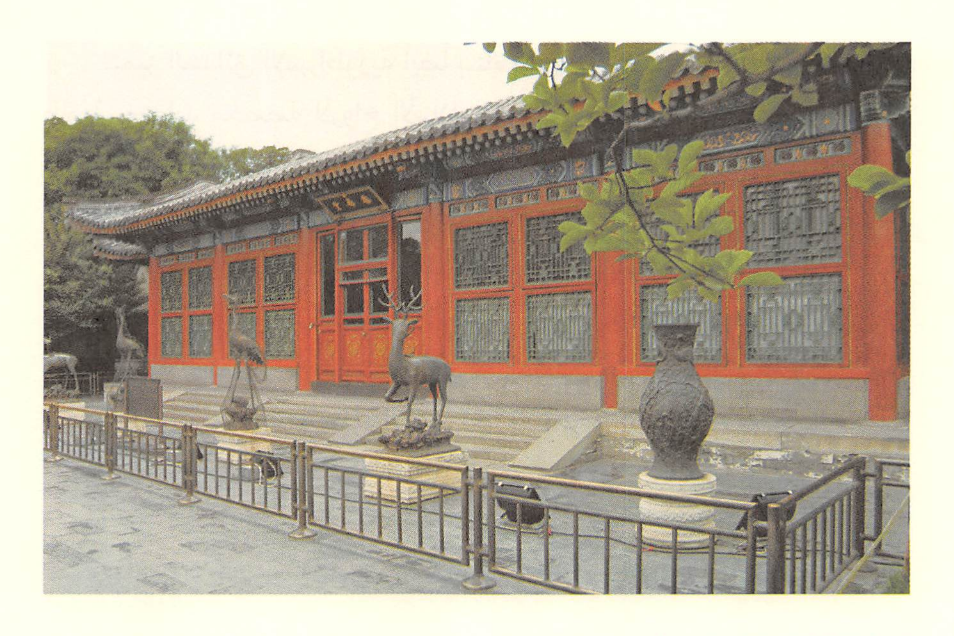


التاريخ»؛ فبحر النعيم في الشرق يرمز إلى البحر الشرقي، وأعلى هضبة في الزاوية الشمالية الغربية والتي يقبع عليها «منزل الهضبة في إشعاع الشمس المشرق» ترمز إلى جبل كونلون شمال غرب الصين. بل ترمز بنية الحديقة برمتها إلى مقاطعات الصين، وتشير إلى الفكرة التي تقوم عليها السلطة الإمبراطورية: «كل ما يقع تحت الشمس ملك للإمبراطور». ولما كان الأباطرة يتمتعون بهذه السلطة السياسية الهائلة مع ما يترافق معها من ثروات طائلة، كانوا قادرين على بناء الحدائق على أراضٍ شاسعة، لذا لا يمكننا مقارنة حدائق المعابد ولا الحدائق الخاصة بالحدائق الإمبراطورية وما تتمتع به من مزايا؛ مثل مشاهدها ضخمة الحجم التي تشمل جميع جوانب الطبيعة دون استثناء، مع رونقها المهيب وتنظيمها الضخم.

ترافق هذا السعي وراء التعبير عن عظمة السلطة الإمبراطورية وتفوقها مع ظهور تصميم «الحديقة داخل الحديقة» في الحدائق الإمبراطورية (الصورة 2-1). فعادة، تحتوي حديقة إمبراطورية كبيرة الحجم على عشرات بل وحتى مئات المواقع التي تصوِّر مشاهد معينة، وتشتمل على حدائق اتبعت نماذج الحدائق الصغيرة في جيانغنان وحدائق المعابد البوذية أو الطاوية. في الوقت ذاته، ولإبراز عظمة الحديقة الإمبراطورية شيَّد فيها مصمموها أبنية ومجمعات ضخمة متعددة التصاميم لعب أحدها أو مجموعة منها دور المحور، ولهذا بدت الحدائق التي تركز على التكامل مع المشهد الطبيعي أكثر تنظيماً وأشد هيبة من غيرها؛ وهي نقطة تختلف بها الحدائق الإمبراطورية عن الحدائق الخاصة تمام الاختلاف.

كانت الحدائق الإمبراطورية المنشأة أثناء عهد سلالة تشينغ تقع في أماكن مختلفة وموزّعة في أرجاء شمال الصين، وكان من الضروري أن تعكس هذه الحدائق جواً إمبراطورياً يقوم على أساس المشاهد الطبيعية. وسوف نركز هنا على القصر الصيفي والمصيف الجبلي في تشنغده.

يقع القصر الصيفي شمال غرب بكين، وقد أنشئ في الأصل في عهد سلالة جين كمقر مؤقت للإمبراطور، ثم أعيدت تسميته، وصار يدعى «المقر الإمبراطوري الرائع» خلال عهد سلالة مينغ، ثم أُعيدت تسميته سنة 1750 ليصبح «حديقة التموجات الصافية»، لكنه بعد ذلك وكآخر الحدائق الإمبراطورية من بين «الجبال الثلاثة والحدائق الخمس» المبنية أثناء عهد سلالة تشينغ تعرض للتدمير مرتين: الأولى على أيدي القوات البريطانية والفرنسية المتحالفة، ثم على أيدي جيش القوى الثماني المتحالفة. في عام 1888، قامت الإمبراطورة الأرملة تسي شي بإعادة بناء الحديقة بعد أن اختلست ثلاثين مليون ليانغ من الفضة كان من المفترض أن تستخدم في تمويل بناء الأسطول البحري العسكري الصيني، وسمَّت الحديقة التي أعيد بناؤها: «القصر الصيفي». بعد إتمام البناء، أصبحت حديقة القصر الصيفي هي الحديقة الإمبراطورية في ليقونغ، حيث تولت الإمبراطورة الأرملة تسي شي إدارة شؤون الدولة لفترة طويلة من ذلك المكان. وفي يومنا هذا، لا تزال تلك الحديقة هي الحديقة الإمبراطورية الأكثر ضخامة التي حفظها لنا التاريخ بشكل كامل، حيث تمتد على مساحة تبلغ 290 هكتاراً. (الصورة 2-2)



الصورة 2-2 قاعة العمر الطويل السعيد (تصوير نيه مينغ)

كانت قاعة العمر الطويل السعيد مقر نوم الإمبراطورة الأرملة تسي شي. شُيِّدت القاعة في الأصل سنة 1750، ثم تعرضت للدمار سنة 1860، قبل أن يعاد بناؤها سنة 1887. ولا شك بأنها أفضل مواقع الإقامة في القصر الصيفي والاستمتاع فيه. تقع بحيرة كونمينغ أمام القاعة، كما تقع هضبة العمر الطويل خلفها، وتتصل بقاعة الإحسان والعمر الطويل في الشرق وبالممر الطويل في الغرب. يوجد رصيف مرفأ أمام القاعة، وقد كانت الإمبراطورة الأرملة تسي شي تستخدمه لركوب القارب، وكان الإمبراطور قوانغ شو هو من كتب النقوش الذهبية في «قاعة طول العمر السعيد».

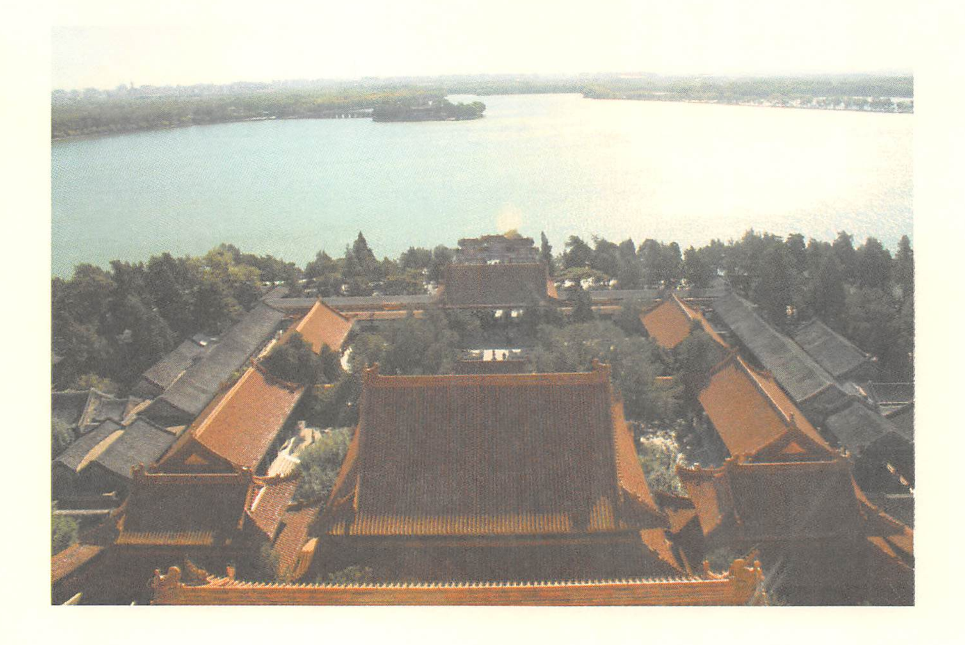
تتألف حديقة القصر الصيفي من هضبة العمر السعيد، ثم إلى جنوب الهضبة تقع بحيرة كونمينغ. وتحتوي البحيرة على جزيرة البحيرة الجنوبية وجزيرة تساوجيانتانغ وجزيرة تشيجينقه؛ والتي تؤلف «الجزر الثلاث داخل البحيرة»، وهو التصميم التقليدي المعتمد في إنشاء الحدائق الإمبراطورية. كانت حديقة القصر الصيفي آخر الحدائق الإمبراطورية التي تعتمد هذا التصميم، وهي الآن آخر الحدائق التي حفظها لنا التاريخ وتحتوي على هذا التصميم.



تتميز الحدائق الإمبراطورية أيضاً ببناء المعابد فيها؛ فهي تحتوي على معابد طاوية، ومعابد مخصصة لأرواح الأسلاف، وبشكل خاص على معابد بوذية. تكاد كل حديقة إمبراطورية كبيرة الحجم تحتوي على معبد بوذي واحد على الأقل، ولا تختلف حديقة القصر الصيفي عن غيرها من الحدائق في هذا المضمار؛ فمجموعة المباني الأساسية داخلها هي التي تشكل «معبد أداء الشكر العظيم وتمني طول العمر» الذي يقع في مركز القسم الأمامي من هضبة طول العمر، ويتألف من «قصر الملك السماوي»، و«قصر ماهافيرا»، و«قصر الكنوز المتعددة»، و«مقصورة عطر بوذا»، و«ممر أرض العطور التي لا تعد ولا تحصى المقنطر»، و«بحر الحكمة»

الصورة 2-3 محور مقصورة عطر بوذا، وهذه المقصورة هي المبنى الرئيس في القصر الصيفي (تصوير قوه بينغ)

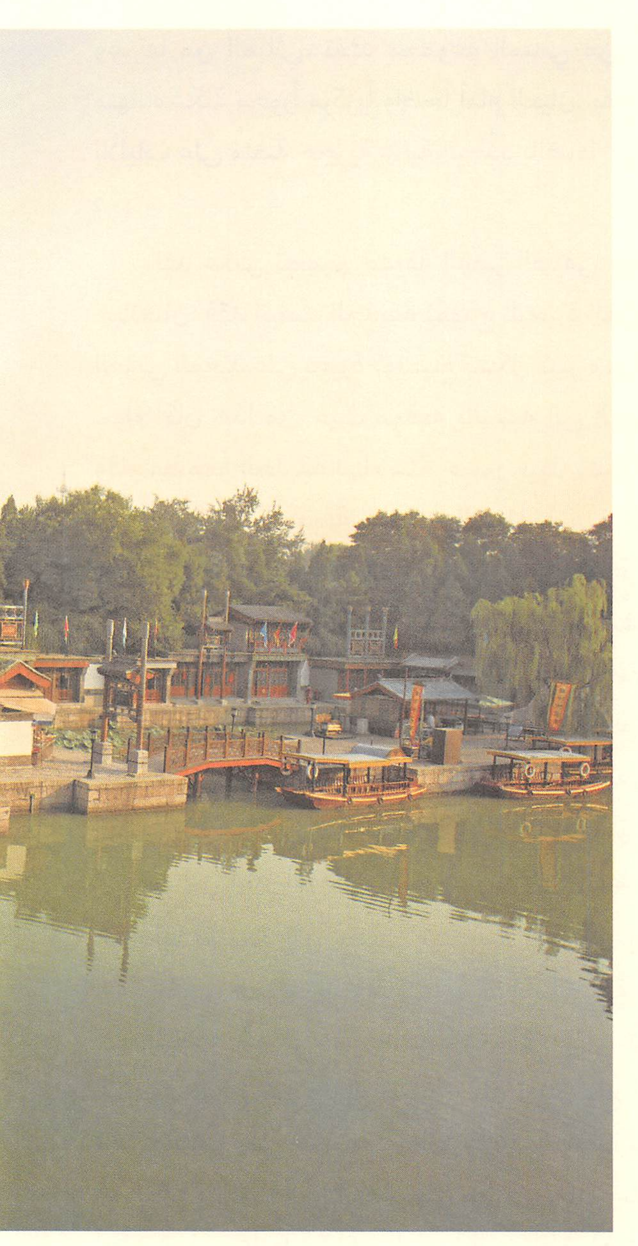
يوجد مجمع مبانٍ هائل في القسم الأمامي من هضبة العمر الطويل، وتقع مقصورة عطر بوذا في وسط هذا المجمع. يبدأ المحور المركزي من «ممر السحب المشرقة والأرض المقدسة المقنطر» في السفح الجنوبي من هضبة العمر الطويل، ويمتد عبر «بوابة انقشاع السحب» و«بوابة القصر الثانية» و«قاعة انقشاع الغمامة» و«قاعة المجد الأخلاقي» و«مقصورة عطر بوذا» وصولاً إلى بحر الحكمة على قمة الهضبة.



وغيرها من المباني. تمتد مجموعة المباني من سفح الهضبة إلى النتوء البارز منها، مشكلة محوراً مركزياً واضحاً أمام العيان. يقع مبنى مقصورة عطر بوذا الآسر للألباب على منصة حجرية عالية، ليحدِّد بالضبط موقع مركز القصر الصيفي. (الصورة 2-3)

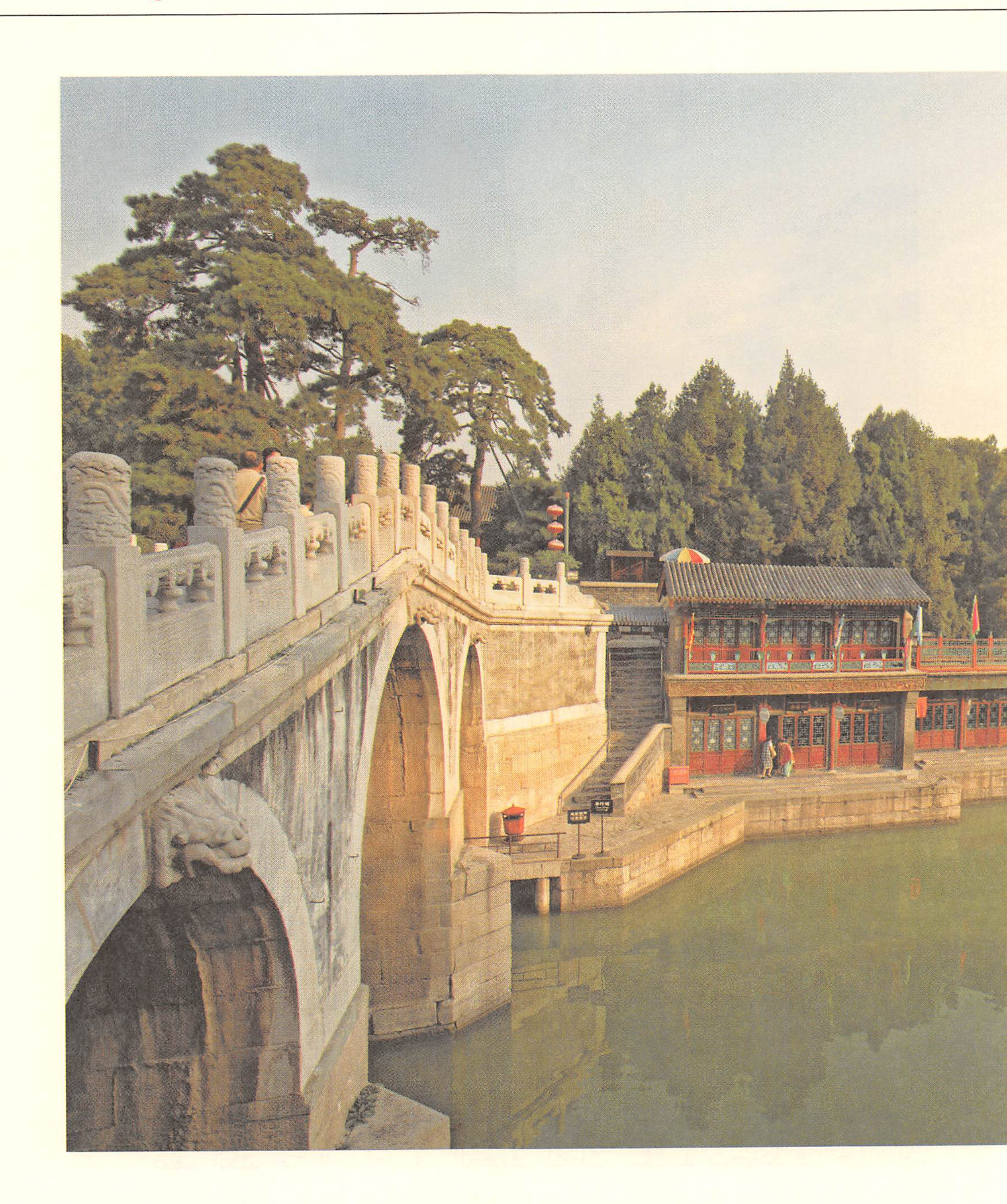
لقد عكس تصميم حديقة القصر الصيفي بهاء المناظر الطبيعية في أقاليم جيانغنان؛ فقد اتبعت الحديقة نموذج البحيرة الغربية في هانغتشو، ويشبه الممر الغربي المعبَّد على بحيرة كونمينغ بشكل كبير ممر سو المعبد في البحيرة الغربية؛ سواء أكان هذا من حيث موقعه بالنسبة إلى البحيرة أم الاتجاه الذي يتبعه، بل وقام مصممو الحديقة ببناء ستة جسور فيها، كتلك الموجودة في ممر سو المعبَّد. كما اتبع تصميم حديقة المصالح المتناغمة على السفح الشرقي من هضبة طول العمر النموذج الموجود في حديقة إيواء المشاعر الواسعة في ووشي، فحديقة المصالح المتناغمة صغيرة الحجم تحتوي على مشاهد أنيقة، ولعلها أبرز الأمثلة على تقليد الحدائق الإمبراطورية للحدائق الخاصة الموجودة في جيانغنان. أما شارع سوتشو (الصورة 2-4) فهو شارع أعمال تجارية يتبع تصميم الأسواق المجاورة للنهر في سوتشو ونانجينغ، ما يجعل الزوار يشعرون بأنهم يمشون في شوارع تجارية مزدحمة في مناطق الأنهار والبحيرات. عملية الاستنساخ هذه من الخصائص الأخرى التي تميز الحدائق الإمبراطورية وتثري مضمونها.

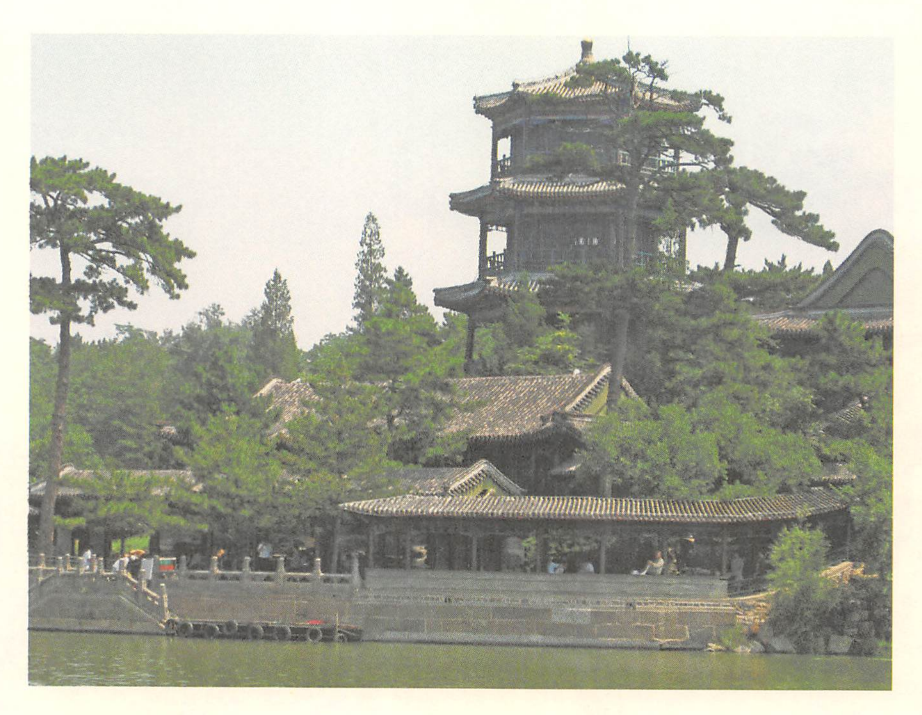
أما بالنسبة إلى مصيف تشنغده، فقد كان يدعى في الأصل: «قصر رهخه الإمبراطوري المؤقت»، ويقع على الضفة الغربية من نهر ووليه شمال تشنغده في مقاطعة خه بي، وقد استغرق بناؤه حوالي تسعين سنة امتدت عبر عهود الأباطرة تسانغ شي ويونغ تسنغ وقيان لونغ. يقع المصيف على مساحة مقدارها 564 هكتاراً، وهو أكبر حديقة إمبراطورية حفظها لنا التاريخ على الإطلاق. يحتوي المصيف بالإضافة إلى القصر على مناطق تغلب عليها مشاهد البحيرات، ومناطق أخرى تغلب عليها مشاهد السهوب، ومناطق أخرى تغلب عليها مشاهد الجبال. لقد عكس تجميع المشاهد من شمال الصين وجنوبها في هذا المصيف طموح الإمبراطور في أن «يحرك السماء ويكثف الأرض». تذكِّرنا مشاهد البحيرات بأنهار جيانغنان وبحيراتها، أما مشاهد السهوب فتدل على مناطق الحدود الشمالية وراء



الصورة 2-4 مشهد من شارع سوتشو في القصر الصيفي (تصوير شياو ياو يو)

يقع شارع سوتشو على ضفة البحيرة الخلفية من القصر الصيفي، وهو شارع أعمال تجارية تم تصميمه اتباعاً لنموذج البلدات المجاورة للأنهر والبحيرات في منطقة جيانغنان. خلال حكم سلالة تشينغ، كان هذا الشارع يحتوي على جميع أنواع المتاجر على طرف النهر، وكان خصيان الإمبراطور وخادمات القصر يرتدون ثياب التجار، لكن بالطبع لم تكن هذه المتاجر تفتح إلا حين يأتي الإمبراطور إلى هذا الشارع ليتسلى. وحين غزت القوات البريطانية والفرنسية البلاد عام 1860 أحرقت عشرات المتاجر على ضفة البحيرة الخلفية، أما الشارع الحالي فقد أعيد بناؤه سنة 1986.





الصورة 2-5 مقصورة الجبل الذهبي في مصيف تشنغده (تصوير ياو هونغ)

اتبع تصميم مقصورة الجبل الذهبي في تشنغده نموذج معبد الجبل الذهبي في تشنجيانغ. تتميز مقصورة الجبل الذهبي عن غيرها من المقصورات العادية والمقصورات ذات الطوابق والغرف والشرفات المجاورة للبحيرة بأنها تقليد يكاد يطابق أصله؛ ممّا يُذكّر الزائرين بصراع السلطة الذي اندلع بين الأفعى البيضاء والراهب فاهاي في الأسطورة الشهيرة.

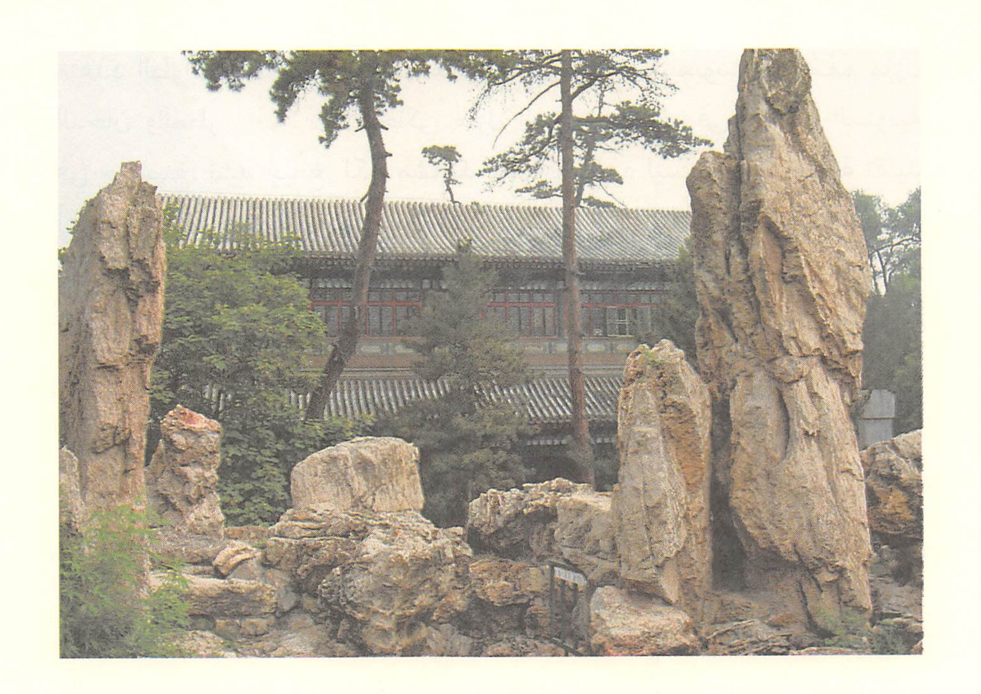
(اليسار إلى الأعلى) الصورة 2-6 مبنى وِنجين متعدد الطوابق (المكتبة الإمبراطورية) في مصيف تشنغده (تصوير نيه مينغ)

شُيِّد مبنى وِنجين متعدد الطوابق سنة 1774، ويشبه في تصميمه العام وحجمه والمواد المستخدمة في بنائه وطريقة هذا البناء بل وحتى مواصفات رفوف الكتب فيه مقصورة تيانيي في نينغبوه. يبدو المبنى وكأنه يحتوي على طابقين، ولكنه في الحقيقة يحتوي على ثلاثة. فالطابق الأوسط يستخدم في تخزين الكتب، ولا تدخله الشمس مباشرة.

(اليسار إلى الأسفل) الصورة 2-7 منزل الدخان والمطر في مصيف تشنغده (تصوير يي تشين ياو)

يتبع هذا المبنى تصميم منزل الدخان والمطر في جياشينغ. تقف أشجار الصنوبر الطويلة والمستقيمة في باحة المبنى على طرف النقيض من نبات اللوتس والقصب والكستناء المائي النامي خارج الباحة، فيجمع المشهد الطبيعي في الحديقة بين الهيبة والسكون. لهذا المبنى سحره الخاص، وجماله الضبابي المميز في الأيام الغائمة والماطرة.

السور العظيم، في حين أن المشاهد الجبلية ترمز إلى سلاسل الجبال شمال الصين. صُمِّم الكثير من المشاهد في المصيف لتحاكي مشاهد موجودة في جيانغنان. فمثلاً، تحاكي حديقة غابة الأسود الواقعة ضمن حديقة وِنيوان الحديقة التي تحمل الاسم ذاته في سوتشو، أما مقصورة الجبل الذهبي (الصورة 2-5) فتحاكي المشاهد الموجودة في معبد الجبل الذهبي في تشنجيانغ، جيانغتشو. أما مبنى وِنجين





متعدد الطوابق (الصورة 2-6) فيقلد مقصورة تيانيي في نينغبوه، وقد صُمِّم منزل الدخان والمطر (الصورة 2-7) ليحاكي منزل الدخان والمطر في البحيرة الجنوبية في جياشينغ، تشه جيانغ. لكن مشاهد المحاكاة هذه ليست مجرد عملية تقليد أعمى، بل تم استنساخ هذه المشاهد بأسلوب فني لتعكس مميزات المناظر الطبيعية في شمال الصين، حيث يتكامل سحر الفنون الشعبية الريفي مع هيبة الحديقة الإمبراطورية، فتحاكي المشاهد الناتجة روحية النماذج التي تتبعها أكثر من مظهرها الخارجي.

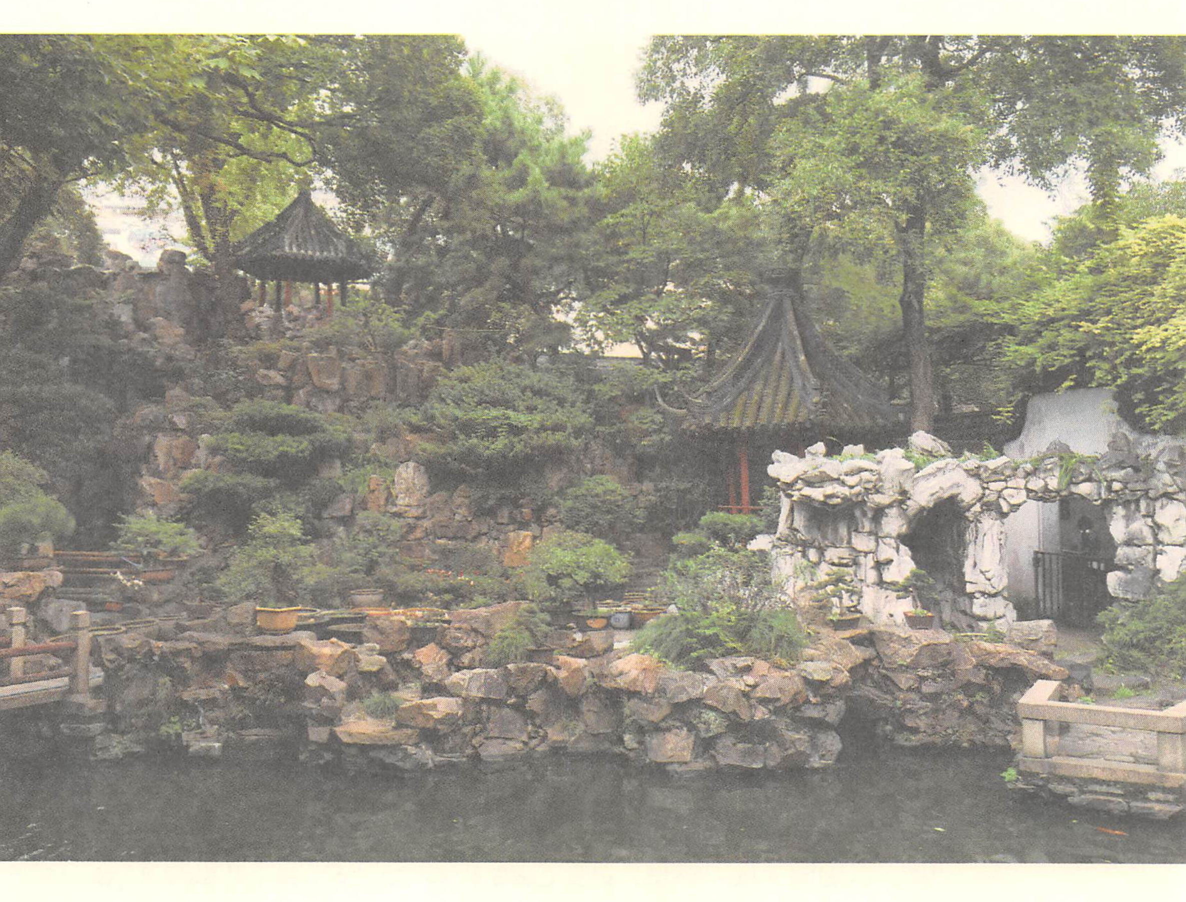
كما يحتوي مصيف تشنغده على مجموعة من المعابد رائعة الجمال مصفوفة بشكل نصف دائري، وكأنها مجموعة من النجوم التي تحيط بالقمر. تسمى هذه المعابد: «المعابد المعزولة»، وقد شُيِّدت على أعلى قمم الجبل، واتبع بنّاؤوها تصاميم متعددة قلّدوا فيها أشكال معابد اللاما البوذية في التيبت وشينجيانغ ومنغوليا، حيث تُجسِّد بمجموعها الفنون المعمارية التي تطورت بين عرقي هان والتيبت. يشكّل مصيف تشنغده مع المعابد المعزولة كلاً عضوياً؛ حيث يُبرِز المشهد الكلي بساطة المصيف وأناقته من ناحية، مقابل هيبة مباني المعابد وجمالها الباهر.

حدائق خاصة فاتنة

تحتوي الحدائق الخاصة عادة على مناظر طبيعية تشمل بركاً مائية وتلالاً اصطناعية، وغالباً ما كانت تُشيَّد في مناطق جيانغنان وكذلك في لينغنان، وترتبط مع مبانٍ سكنية. تقع معظم الحدائق الموجودة ضمن جيانغنان في مناطق سوتشو ويانغتشو وهانغتشو ووشي وأماكن أخرى. وتحتوي سوتشو على العدد الأكبر من الحدائق، وأبرزها مقصورة تسانغلانغ وحديقة غابة الأسود وحديقة الحاكم المتواضع وحديقة التريث، وتسمى هذه الحدائق: «الحدائق الأربع المشهورة في سوتشو». تشمل الحدائق المعروفة الأخرى حديقة تشيوي يوان وحديقة يي يوان وحديقة أويوان (منتجع حديقة الأزواج) وحديقة وانغشي (حديقة سيد الشبكات) وتقع جميعها في سوتشو. أما الحدائق الخاصة في يانغتشو فتشمل حديقة «قه يوان» وحديقة «خه يوان»، وكذلك لدينا حديقة إيواء المشاعر المتسعة في ووشي وحديقة يوي يوان (الصورة 2-8) في شانغهاي؛ وهي الحديقة التي اشتهرت بأنها «تاج حدائق جنوب شرق الصين».

تغطي الحدائق الخاصة في جيانغنان مساحة أصغر بكثير من تلك التي تغطيها الحدائق الإمبراطورية شمال الصين، حيث تتفاوت مساحتها بين ما لا يزيد عن 1-2 مو إلى بضع عشرات مو؛ فيصعب صنع مشاهد جذابة تتألف من تلال شاهقة وأسطح مائية جارية ونبات ومبانٍ على هذه المساحات الصغيرة، لكنّ سكان هذه المناطق لديهم قول مأثور، وهو أنهم قادرون «على تأدية شعائرهم الدينية داخل صدفة حلزون»! وما يعنيه هذا هو أنهم قادرون على صنع حدائق فاتنة ذات مناظر خلابة على مساحة صغيرة من الأرض.

سعى مصممو الحدائق في جيانغنان إلى تحريك مشاعر الزوار من خلال وسائل تعبير خفية ومتسقة تعزّز من شعور الزوار بعمق المساحات ضمن الحدائق. أول ما تظهر عليه وسائل التعبير هذه هو ترتيب الحديقة. ففي معظم الحدائق، تقع البرك في منطقتها المركزية، وتحيط بها المباني والهضاب الاصطناعية والنباتات ومشاهد أخرى؛ فتشكّل مجموعةٌ من المشاهد منطقةً تبثُّ انطباعاً موحداً، وتشكّل مجموعة من هذه المناطق حديقة كبيرة الحجم. يُستخدَم طريق ملتوٍ للربط بين



الصورة 2-8 حديقة يويوان في شانغهاي (تصوير هوانغ تشيونغ)

أنشئت حديقة يويوان سنة 1559، وهي الحديقة الوحيدة في شانغهاي التي حفظها لنا التاريخ من عهد سلالة مينغ. تحتوي الحديقة على مبانٍ ومقصورات متناثرة هنا وهناك، كما تحتوي على هضاب عالية وبحيرة متلألئة ذات أمواج رقراقة، وقد اشتهرت بأنها أجمل حدائق منطقة جيانغنان. في عام 1982، صُنِّفت الحديقة كموقع تاريخي وحضاري يخضع لحماية الدولة.

المشاهد المتعددة، كما يُستخدَم جسر متعرج ليصل بين جوانب بركة المياه رغم صغر حجمها. وقد يستبدل هذا التصميم بباحة تجمع مشاهد متعددة لتوليد انطباعات متنوعة وكثيرة على قطعة صغيرة من الأرض.

وثاني ما تظهر عليه وسائل التعبير هو أن جميع العناصر المستخدمة لدى بناء الحديقة- كالهضاب والحجارة والمباني وغيرها- صغيرة الحجم ولكنها فريدة



الصورة 2-9 الجدار المحيط بحديقة الصولجانات العشرة (تصوير وانغ جينغ خه)

إن شكل هذا الجدار الغريب وتناسقه وسعته تجعل منه إحدى درر العمارة الصينية؛ وهو جزء من حديقة الصولجانات العشرة الرائعة.

في شكلها. إذ تترك أفاريز الأسطح والزوايا المقلوبة انطباعاً لدى المشاهد بأن هذه المباني خفيفة لدرجة أنها ربما كانت قادرة على الطيران. وهي بذلك تُزيل الشعور النفسي الكئيب الذي يبعثه ضيق المساحات في النفوس، كما تبثّ النقوش اللطيفة والجدران المتعرجة المغلقة جواً من الفرح والحياة (الصورة 2-9).

أمّا ثالث ما تظهر عليه وسائل التعبير المذكورة فهو تصميم المشاهد في الحدائق. فقد كان البستانيون بارعين في تصميم تغييرات كبيرة في المشاهد ضمن مساحة محدودة. على سبيل المثال، يقسم البستانيون مساحة مشاهد الحديقة باستخدام جدران من الجص ونوافذ مزينة بالأزهار أو شرفات طويلة. ورغم أن

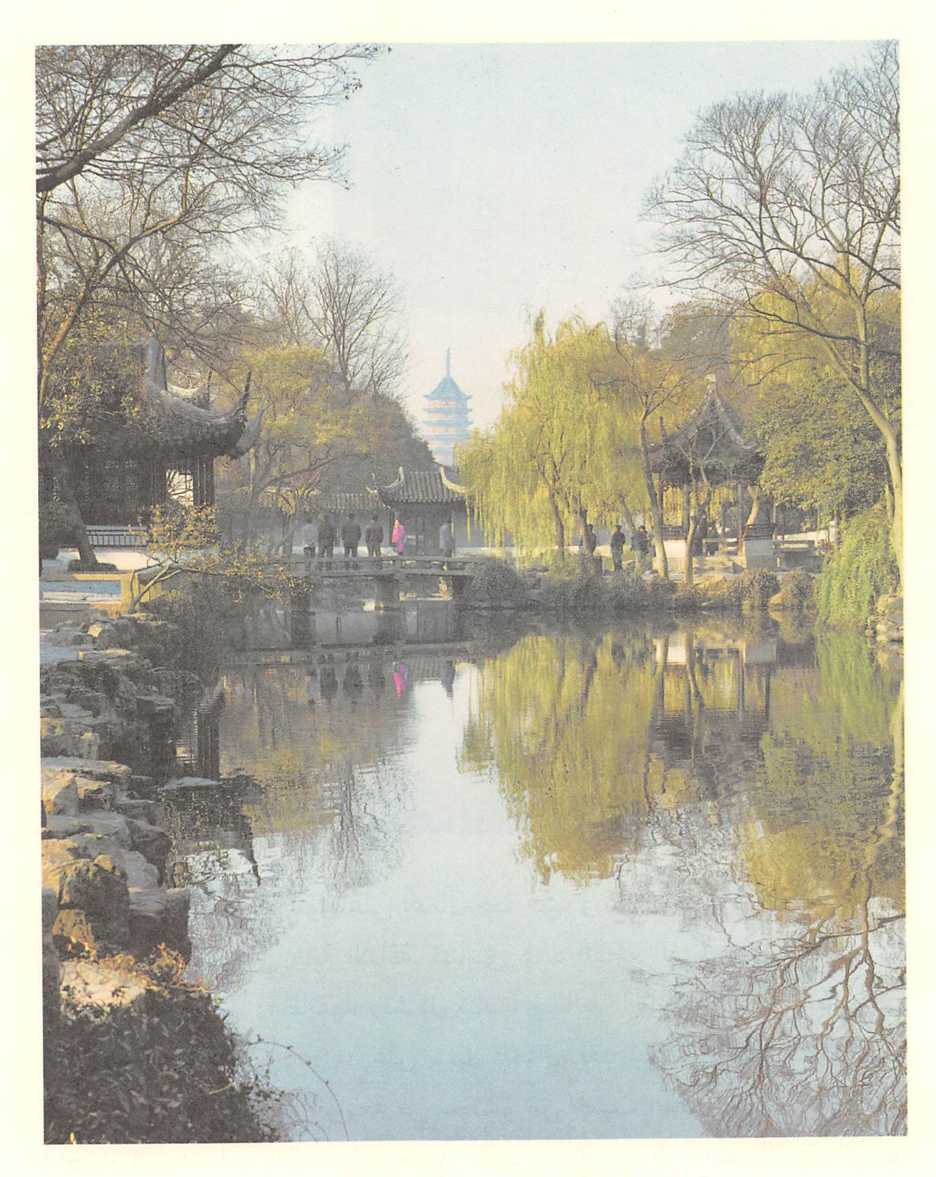


المساحة تكون مقسمة إلا أن هذا لا يعني أنها مفككة الأوصال، بل يشكل كل قسم وحدة متناغمة مع بقية الأقسام. كما أن النوافذ المشبكة تشبه أطر الصور، وقد استخدمت للإيحاء للمتفرج بتنوع المشاهد وتغيرها الدائم من زاوية إلى أخرى.

أما رابع ما تظهر عليه وسائل التعبير فهو كون البستانيين في غاية البراعة في «استعارة» المشاهد. فكما ذكرنا في الفقرة السابقة، إن مشاهد الحديقة تصل إلى أبصار المتفرجين من خلال أطر الأبواب والنوافذ. ومع أن هذه الأبواب والنوافذ لا تفصل في الواقع بين المتفرجين ومشاهد الحديقة إلا أن تصميمها يولّد هذا الشعور لديهم. يؤدي شعور المتفرجين بالانفصال إلى ترك انطباع لديهم بأنهم يسيرون إلى داخل صورة مرسومة بعناية. حتى إن البستانيين يستخدمون أسلوباً أكثر مهارة من هذا، إذ «يستعيرون» المشاهد في الأفق البعيد إلى داخل الحديقة، حيث تكمِّل المشاهد داخل الحديقة وخارجها بعضها بعضاً. ومن الأمثلة على هذا الأسلوب المعبدُ الشمالي متعدد الأدوار الذي استُخدِم لتعزيز الشعور بالجمال في حديقة الحاكم المتواضع (الصورة 2-10) في سوتشو. ومن الأمثلة الأخرى جبل هويشان المستخدم لزيادة جمال حديقة إيواء المشاعر الواسعة في ووشي.

خامساً، يركز مصممو الحدائق الخاصة في جيانغنان على تغيير المشهد مع كل خطوة أو زاوية ضمن الحديقة؛ وهو الأمر الذي يوفِّر للمتفرج تجربة فنية غنية ومتنوعة. إن صنع المشاهد من خلال الجمع بين الواقعي والضمني لتوليد انطباع بعمق المساحة لدى المتفرج إنما يهدف إلى جذب هذا الأخير لزيارة هذه المواقع ذات المشاهد الرائعة. نجد أثر «المساحة دائمة التغير» هذا أحياناً في الحدائق الأصغر حجماً، ضمن زوايا ضئيلة الحجم في الحديقة. ولطالما وجد الزوار هذه «الحديقة داخل الحديقة» في الأماكن المنعزلة؛ من خلال تتبع الطرق المتعرجة، حيث يشعرون بأنهم يتجولون في عدة أماكن ساحرة الجمال ضمن الحديقة الواحدة.

كما ذكرنا سابقاً، كان الذين ينشئون هذه الحدائق الخاصة والمعتنون بها أيضاً أدباء وفنانين وعلماء، وهي أصغر حجماً بكثير من الحدائق الإمبراطورية. ونظراً إلى صغر حجم الحدائق، أولى مصمموها انتباهاً كبيراً لجمالية البناء. وعادة، كان



الصورة 2-10 مشهد لحديقة الحاكم المتواضع في سوتشو (تصوير وانغ شياو دونغ)

يعكس السطح المائي الفسيح في الحديقة المركزية جوهر تصميم حديقة الحاكم المتواضع، والتي تعكس بدورها غنى حدائق جيانغنان. بعد نقل أشجار الصفصاف المائلة - التي كانت مزروعة أصلاً لحجب مشاهد الحديقة - إلى أماكن أخرى، صار بإمكان الناس أن يروا باغودا المعبد الشمالي ثانية على بعد ثلاثة لي في مثال على أسلوب «استعارة المشاهد»؛ فحين ينظر الزوار إلى اتجاه الغرب من مقصورة معانقة قوس قزح فسوف يرون باغودا المعبد الشمالي وكأنها داخل حديقة الحاكم المتواضع، وهذا بحد ذاته مشهد جذاب مميز!



الصورة 2-11 أثاث داخل في قاعة التناغم في حديقة يويوان (تصوير فينغ شياو لي)

صنعت مجموعة الأثـــاث هـذه الموجودة داخل قاعة التناغم في حديقة يويوان من جـذور شجر الأثـاب، وتشمل طاولة ومكتباً وطاولة طويلة ضيقة، بالإضافة إلى زينة على أشكال مخلوقات أسطورية كالعنقاء والتنين، ولا شك أن هذه الأخيرة تتميز بحسن صنعة نحاتها وغرابة شكلها، كما يعود تاريخها الذي أكثر من مائة سنة.

الأثاث داخل المباني يحتوي على أعمال خط فنية ورسوم ومنتجات فنية وحرفية، بالإضافة إلى قطع في غاية الأناقة. تتناسق هذه القطع الفنية والحرفية بترتيبها الدقيق مع المباني ووظائفها، وتشكل تناسباً جمالياً داخلياً تتفرد به المباني في الحدائق الصينية (الصورة 2-11). على سبيل المثال، لقد تم بناء قاعة نانمو (الصورة 2-12) في حديقة التريث الواقعة في سوتشو من خشب النانمو الثمين، وقد أدى الاختيار الموفق لمواد البناء إلى صنع مشهد يجمع بين البساطة والذوق الرفيع. يتم تقليدياً تطبيق مبادئ التناظر (Symmetry) في عملية تصميم هذه المشاهد الداخلية، فيتم ترتيب لفائف الورق المزينة بفنون الخط الصيني أو الرسوم المعلقة على الجدران مع الطاولات والمقاعد الحجرية بشكل متناسق ومتناظر داخل المنزل، حيث تبدو وكأنها تكرر إيقاعاً بصرياً موحداً. أما ألوان قطع الأثاث والزينة الداخلية والخارجية المحيطة بها فهي الأحمر والأسود والبني المائل إلى الاحمرار؛



الصورة 2-12 داخل قاعة القمم الخمس السماوية في حديقة التريث، سوتشو (تصوير هوانغ يوان)

إن المواد المستخدمة في بناء قاعة القمم الخمس السماوية في غاية الجودة. وقد صُنِعت أعمدة هذه القاعة وقطع أثاثها من أشجار النانمو؛ مما جعل عوام الناس يدعون القاعة: «قاعة النانمو». يُظهِر استخدام هذا الخشب النفيس الأهمية المتميزة التي حظيت بها هذه القاعة في حديقة التريث.

وهي ألوان تتناسب مع أجواء الحديقة الهادئة والأنيقة.

في ما يتعلق بالألوان، راعى مصممو الحدائق الخاصة في جيانغنان الحاجة النفسية إلى الشعور بالبرودة في الأيام شديدة الحرارة، ولذلك جعلوا الجدران



بيضاء، واستخدموا القرميد الرمادي والأسود، كما جعلوا أطر الأبواب والنوافذ والأعمدة ذات لون بني مائل إلى الاحمرار. بالطبع، يشكّل استعمال هذه الألوان تناقضاً صارخاً مع اللونين الأحمر الفاقع والأخضر المستخدمين غالباً لإضفاء جو من الأبهة على الحدائق والمباني الإمبراطورية.

كان معظم مالكي حدائق جيانغنان الخاصة من رجال العلم والأدب، وقد كان هؤلاء يمتلكون مقدرة كبيرة على تأليف الأشعار أو رسم اللوحات، كما كان لديهم من رهافة الحس وسعة المدارك ما يؤهلهم لتقييم الأعمال الفنية. كان غرض هؤلاء الناس من إنشاء هذه الحدائق بالدرجة الأولى هو تهذيب نفوسهم وصقل مداركهم وصنع مساحة من الجمال تتيح لهم المجال كي يروحوا عن أنفسهم ويقضوا بعض الوقت الخالي من الهموم، وقد كانت حدائقهم في غاية الرقي فعلاً، وتعكس ثراء فكرهم وإبداعهم الأدبي. فبينما تعكس الحدائق الإمبراطورية في شمال الصين مبادئ التوازن والتناظر ويتفجر من ثناياها حرص المصممين على التأكيد على السلطة الإمبراطورية وجلالها، فإن الحدائق الخاصة في جنوب الصين تعكس بالدرجة الأولى شخصية صاحبها، وتميل إلى التركيز على اللطف واستغلال المساحات الصغيرة وملئها بالتناسق والجمال.

تشمل الحدائق الخاصة في مناطق لينغنان أربع حدائق عظيمة في مقاطعة قوانغدونغ (وهي حديقة لوانغيوان في مدينة فوشان، وحديقة يوي يين في مدينة بانيوي، وحديقة كه يوان (الصورة 2-13) في مدينة دونغقوان، وحديقة تشينغهوي في مدينة شونده)، كما توجد حديقة يانشان في مدينة قويلِن في منطقة إقليم قوانغشي تشوانغ ذاتية الحكم، وحديقة شوتشوانغ في مدية شيامن في مقاطعة فوجيان، وحدائق تايوان العظيمة الأربع (حديقة تاينانوو، وقصر وحديقة عائلة بانتشياو لين، وحديقة هسينتشو بيقوه، وقصر وحديقة عائلة ووفينغ لين) وغيرها. بخلاف الحدائق الخاصة في منطقة جيانغنان التي نجدها عادة داخل المدن، إن الحدائق الواقعة في مناطق ليانغنان تقع عادة في مواقع طبيعية بعيدة عن مراكز المدن المزدحمة؛ فنجد مثلاً حديقتَي تشينغهوي وليانغيوان في المناطق الخارجية من بلدات صغيرة. كما أن الحدائق الخاصة في لينغنان أصغر حجماً من حدائق جيانغنان، ويركز تصميمها على توفير أكبر قدر ممكن من المزايا العملية التي



الصورة 2-13 مقصورة كه تينغ في حديقة كه يوان، مدينة دونغقوان (تصوير دوه تشي)

بدأ بناء حديقة كه يوان سنة 1850. تبثُّ المقصورات والشرفات والأبراج المبنية بإتقان بالغ شعوراً بالجمال الكلاسيكي الأنيق. وتعتبر الحديقة واحدة من حدائق قوانغدونغ الأربع المشهورة والمبنية في عصر سلالة تشينغ، كما أنها تمثّل حدائق لينغنان عموماً خير تمثيل.

تسهل الحياة اليومية بدلاً من التركيز على فلسفة «النطاق الواسع والاشتمال على كل شيء»؛ حيث تتكامل فيها البنى السكنية مع المشاهد الطبيعية المصطنعة.

استُخدم أسلوب مفتوح في تصميم الحدائق الخاصة الواقعة في لينغنان وترتيبها؛ حتى لو كانت من مظهرها تبدو مغلقة. في الكثير من الحالات، كانت الأسطح المائية الفسيحة تستخدم كمدخل إلى الحديقة ومشاهدها، وذلك بهدف توسيع مجال رؤية الزوار والمتفرجين. عادة، تُشيَّد المباني في هذه الحدائق لغاية عملية، وتلعب دوراً في غاية الأهمية، بخلاف الحدائق الخاصة في جيانغنان؛ حيث



الصورة 2-14 حديقة يوي يين في بانيو، قوانغدونغ (تصوير تشانغ فين تشيوان)

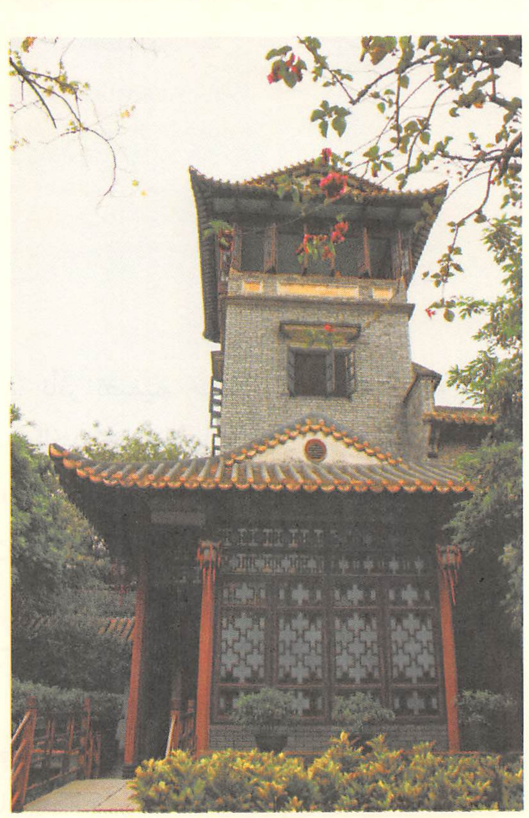
بيت يوي يين الجبلي، أو حديقة يوي يين؛ وهي حديقة خاصة بناها وو يان شان، وهو أحد العلماء الذين عاشوا في عهد الإمبراطور داو قوانغ من حقبة سلالة تشينغ في ذكرى جده وو يوي يين. تشتهر الحديقة بأسلوب تصميمها الرائع، وتعتبر إحدى الحدائق الأربع المشهورة في قوانغدونغ.

إن حدائق لينغنان تحيط بها المباني من جميع الجهات، وتشمل المباني البيوت والهضاب المصطنعة والمقصورات. على سبيل المثال، تغطي حديقة يوي يين (الصورة 2-14) مساحة لا تزيد عن 1598 متراً مربعاً، ولكن من خلال استخدام أسلوب إخفاء المشاهد وتقليص حجمها تمكن مصممو الحديقة من الزج بعدد من المباني في مساحة الحديقة المحدودة؛ وتشمل قاعة شينليو، وقاعة لينخه، ومنزل لينتشي للضيوف، ومقصورة لينغلونغ المجاورة للبحيرة، ومقصورة لايشيون، ومقصورة الطاووس، والجسور ذات الشرفات، بينما لم تستخدم الهضاب الاصطناعية والصخور والبرك المائية والنباتات إلا كمشاهد متممة لهذه المباني. ويختلف هذا التصميم تمام الاختلاف عن تصميم الحدائق الخاصة في جيانغنان، حيث تستخدم المباني كمتممات تزيينية للمشاهد الطبيعية.

يمكننا أن نرى في الحدائق الخاصة في مناطق لينغنان أبراج مراقبة (الصورة

15-2) وقاعات قاربية (الصفحة 2-16) وجسوراً ذات شرفات استُخدِمت فيها كميات كبيرة من المنحوتات الخشبية والحجرية ومصنوعات السيراميك والخزف وتحف أخرى تعكس الفنون والمصنوعات الشعبية في تزيين المباني. أما النباتات المزروعة في هذه الحدائق فتشمل بالدرجة الأولى أشجاراً طويلة ومستقيمة دائمة الخضرة، مثل أشجار البومباكس والنخيل؛ وهما من الأشجار التي تمثِّل جمال طبيعة جنوب الصين. تختلف هذه المشاهد تمام الاختلاف عن تلك التي نراها في الحدائق الإمبراطورية في شمال الصين، كما تختلف عن الحدائق الخاصة في جيانغنان.

تشتهر الحدائق الخاصة في جيانغنان بجمالها اللطيف والأنيق القائم على أسلوب في تصميم الحدائق مرتبط بفكرة حياة الأديب أو العالم المنعزلة. وبخلاف ذلك، تعكس الحدائق الخاصة في أقاليم لينغنان أسلوب حياة الناس العاديين، حيث كان أغلب مالكيها إما رجالاً من الطبقات الاجتماعية الراقية أو رجال أعمال



الصورة 2-15 مقصورة ياوشان - أعلى نقطة في حديقة قه يوان (تصوير داو تشي)

لقد زُيِّن هذا المنزل الشبيه بالقلعة بزينة مترفة وأنيقة، اندمجت فيها مزايا العمارتين الصينية والغربية. إن مقصورة ياوشان أفضل مكان للاستمتاع بالمشاهد في الحديقة؛ سواء أكانت مشاهد مجاورة أم بعيدة. وحين يقف الزائر على قمة المقصورة، يمكنه أن يشرف على الحديقة بأسرها فتتفتح مشاهدها أمامه وكأنها لفافة رسم فني خلاب.



الصورة 2-16 القاعة القاربية في حديقة تشينغهوي في شونده، قوانغدونغ (تصوير فينغ شياو لي)

تسمى هذه القاعة أيضاً: «قارب اليابسة»، أو القارب مفكوك المراسي. وهي فريدة من نوعها في العمارة الصينية، وقد صمّمت تقليداً لقوارب الترفيه، وألوانها الزاهية نابضة بالحياة. يتصل الجزء الأمامي من القاعة مع المياه من ثلاث جهات، ويتصل رأسها مع ضفة النهر عبر جسر مسطح يشبه منصة العبور إلى السفن، وذلك كي يبعث في الزوار الشعور بأنهم على متن قارب حقيقي. تتألف قاعة حديقة تشينغهوي من طابقين صُمّما تقليداً لقارب ترفيهي يدعى «تسي دونغ تينغ»، وهو موجود في متحف «قارب تشوجينانغ الترفيهي المطلي» على ضفة نهر اللؤلؤ.

أو صينيين يعيشون خارج البلاد. تأثّر تصميم حدائق لينغنان الخاصة بوعي أصحابها التجاري، حيث كان تصميم الحدائق وبناؤها يرتكزان على المنحى العملي بالنسبة إلى ما تحتويه الحديقة، وكذلك على العرض المباشر لمشاهدها. تتميز هذه الحدائق بتصميمها المفتوح النابض بالحياة من ناحية، والمقتضب المباشر من ناحية أخرى. وكما أسلفنا، إن هذا يخالف تصميم الحدائق في جيانغنان، حيث يتميز تصميم تلك الأخيرة بمضامينه الخفية التي تحفّز التفكير والتأمل.

والخلاصة هي أن الحدائق الخاصة في مناطق لينغنان - وبخلاف الحدائق الإمبراطورية في شمال الصين والحدائق الخاصة في جيانغنان - تتميز بكونها منفتحة ومريحة، بالإضافة إلى أناقتها.

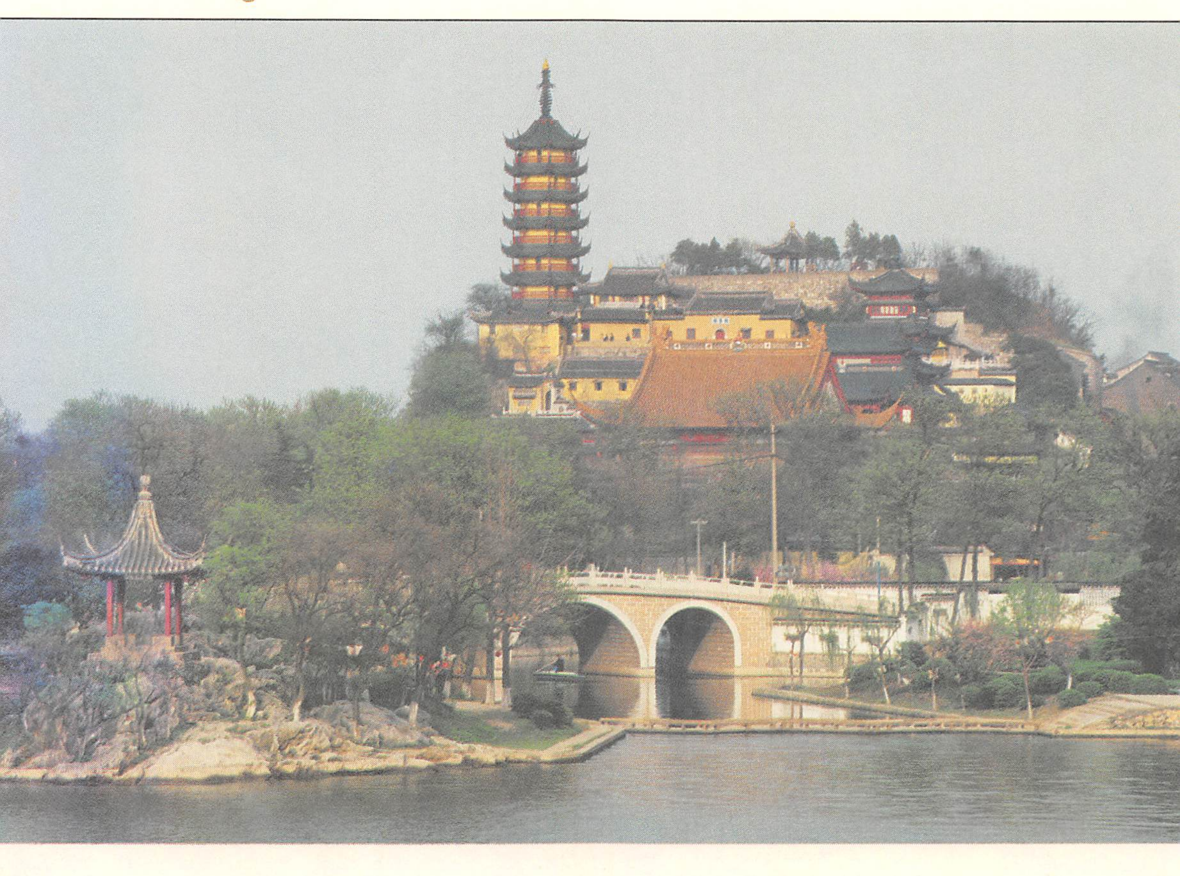
حدائق المعابد القديمة

نعني «بحدائق المعابد» الحدائق الموجودة في المعابد البوذية أو الطاوية، أو تلك التي تحيط بالنصب المشيدة لتخليد ذكرى بعض الشخصيات التاريخية. قد تكون حدائق المعبد في غاية الصغر، أو ضخمة حيث تغطي كامل مساحة بعض الأراضي التي يقدسها أتباع هذه الديانات. تشمل حدائق المعابد المحيط الطبيعي المجاور لمباني معابد الطاوية أو البوذية، وهي تسعى إلى الدمج بين هذه المباني والمشاهد الدينية والمناظر الطبيعية والاصطناعية. يعتبر هذا النوع من الحدائق من الفروع الرئيسة في فن تصميم الحدائق الصينية؛ إذ إن عدد حدائق المعابد يفوق بكثير عدد الحدائق الإمبراطورية والحدائق الخاصة معاً، كما تتميز حدائق المعابد بخصائص يصعب أن نجدها في غيرها من الحدائق. فمن حيث اختيار المواقع، كان مصممو حدائق المعابد يمتلكون خيارات أوسع من تلك المتاحة لدى نظرائهم من مصممي الحدائق الإمبراطورية والخاصة، ويتداول الشعب الصيني قولاً مأثوراً هو: «جميع جبال العالم المشهورة تحتلها معابد بوذية»؛ في إشارة إلى انتشار هذه المعابد على الجبال الشاهقة، وعلى مواقع فيها تتميز بمناظر طبيعية أفضل بكثير من غيرها.

إذاً، لقد تمتعت حدائق المعابد بمزايا لا نظير لها بين الحدائق الإمبراطورية والخاصة من حيث محيطها الطبيعي فائق الجمال والمشاهد المتميزة التي تطل عليها؛ مما أتاح المجال أمام مصمميها كي يدمجوا بمهارة بين المشاهد الطبيعية المحيطة والمناظر الاصطناعية التي أنشأوها، فكانت النتيجة جامعة بين جو الحديقة الداخلي الديني الذي تسوده السكينة والمحيط الخارجي الرائع.

الفرق الأول والأكبر بين أنواع الحدائق الصينية المختلفة هو اختيار مواقع كل منهما. فعادة، تُشيَّد الحدائق الإمبراطورية على مداخل عاصمة البلاد، كما تُبنى الحدائق الخاصة بجانب أماكن إقامة أصحابها، أما حدائق المعابد فتقع على الجبال المشهورة في البلاد على مواقع تطل على مناظر طبيعية خلابة. فعلى سبيل المثال، يقع معبد مشعل البخور (الصورة 2-17) في محافظة جياشيان في محافظة شآنشي على جرف شديد الانحدار على الضفة الغربية للنهر الأصفر، ويشرف على





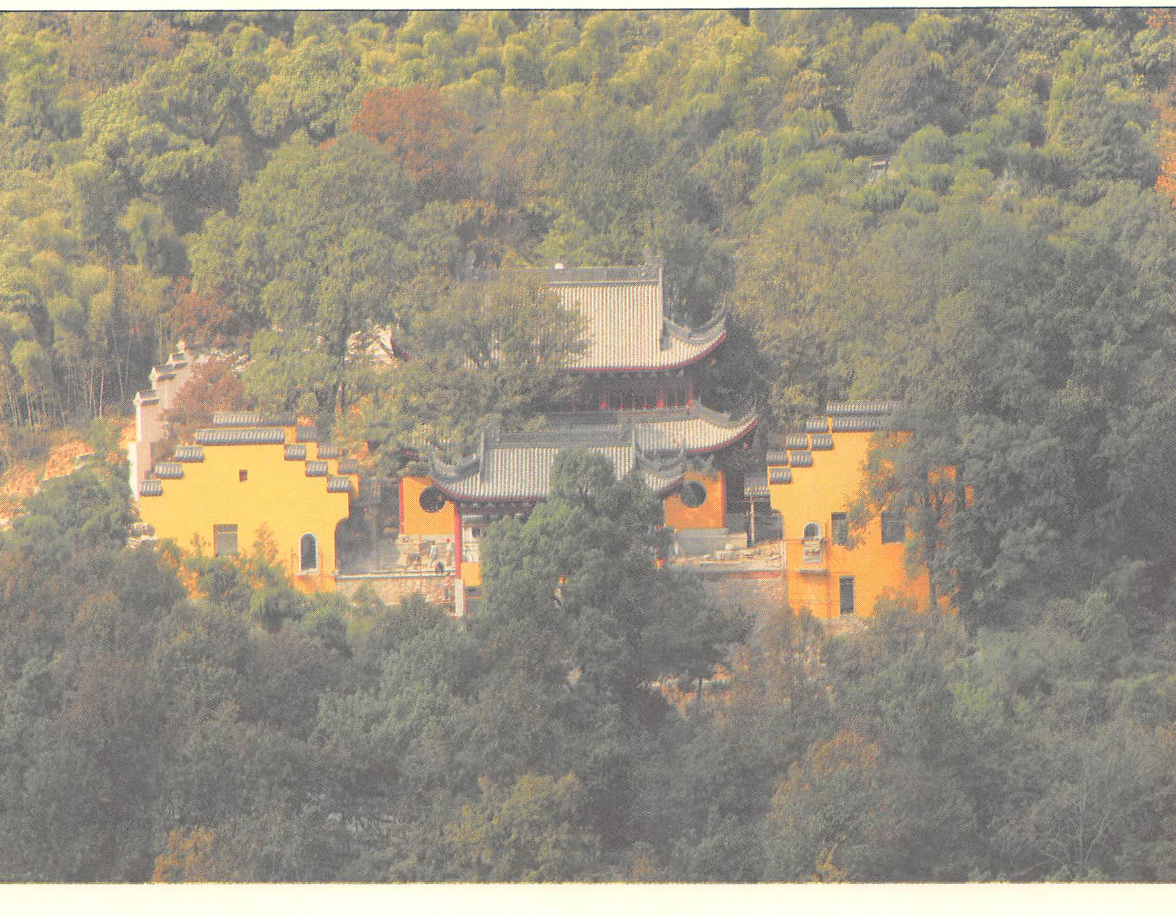
(اليمين) الصورة 2-17 معبد مُشعِل البخور في محافظة جياشيان في مقاطعة شآنشي (تصوير وانغ وِنبوه)

يقع المعبد على ارتفاع 200 متر على قمة مشعل البخور، ويواجه النهر الأصفر من جهة الشرق، حيث يحيط الفراغ حول الجبل بثلاثة من جوانب المعبد. لا يوجد إلا طريق صغير يربط الناحية الشمالية الغربية من المعبد ببوابة البلدة القديمة. أما سبب تسمية القمة بهذا الاسم فهو وجود حجر ضخم يبلغ عرضه حوالي خمسة أمتار، وطوله عشرون متراً، ولا يبعد عن أعلى القمة إلا مترين، ويبدو للناظر إليه وكأنه رجل يحرق البخور، ومن هنا أطلق الناس هذا الاسم على القمة والمعبد.

الصورة 2-18 معبد الجبل الذهبي في تشينجيانغ في مقاطعة جيانغسو (تصوير شيه قوانغ هوي)

بدأ بناء هذا المعبد أثناء عهد الإمبراطور مينغ خلال حقبة سلالة جين الشرقية. وتشمل مباني المعبد قصوراً وقاعات ومقصورات وشرفات، وقد شُيِّدت جميعها على امتداد الجبل لتكون توليفة غريبة يقع فيها المعبد متعدد الطوابق فوق القصر. أما المقصورة فتقع في مكان أبعد من القصر، وكذلك المقصورة متعددة الطوابق. يُروى الكثير من القصص والأساطير الشعبية التي تتعلق بهذا المعبد، ومنها قصة كيفية دقّ ليانغ هونغ يوي الطبول ليشجِّع الجنود أثناء القتال، وأسطورة استخدام السيدة الأفعى البيضاء السحر كي تدمر المعبد.

التيارات المائية المتدفقة. أما معبد الجبل الذهبي (الصورة 2-18) الواقع في محافظة تشينجيانغ في مقاطعة جيانغسو، فقد شُيِّد على قمة وحيدة في أعلى الجبل، ويتألف من صف تلو الآخر من المباني المثيرة للإعجاب التي تتكامل مع جلال أعالي الجبل في مشهد أخّاذ لا نظير له. في حين أن مقصورة الطهارات الثلاث - وهي معبد طاوي يقع في الجبل الغربي في كونمينغ - تواجه بحيرة ديانتشي،



الصورة 2-19 معبد لينغيين الواقع في ثنايا جبال منعزلة تحتوي على غابات كثيفة في هانغتشو (تصوير شاو فينغ لي)

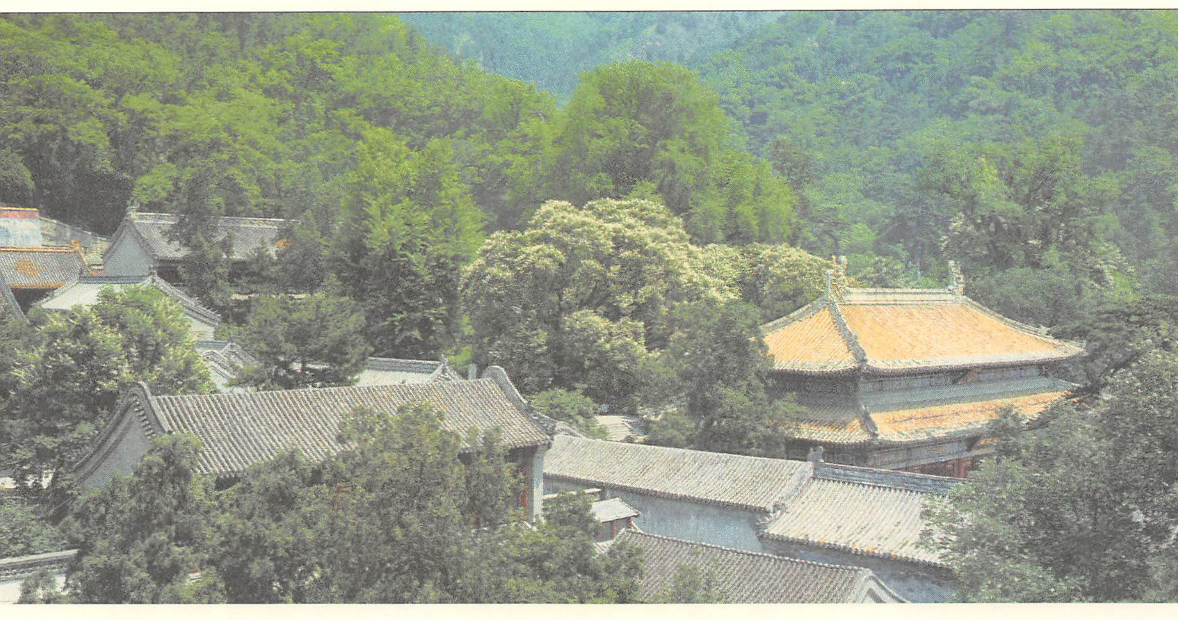
بدأ بناء معبد لينغيين - أقدم معابد هانغتشو - سنة 328 ميلادية، ويقع إلى غرب البحيرة الغربية في هانغتشو، وتقع خلفه قمة بيقاو، كما تقع «القمة الطائرة من بعيد» أمامه. إذاً، يقع المعبد بين قمتي جبلين شاهقين، منعزلاً بعيداً في غابات خضراء ساحرة الجمال، حيث يحيط به الضباب. صُنِّف هذا الموقع ضمن المواقع التاريخية والحضارية الواقعة تحت حماية الدولة مباشرة.

(إلى اليسار) الصورة 2-20 كهف أفالوكيتسافارا في جبل ياندانغ في تشه جيانغ (تصوير شيه قوانغ هوي)

بدأ إنشاء هذا الكهف سنة 1106. في البداية، كان الكهف من نتاج الطبيعة في وسط قمة خه تشانغ في جبل ياندانغ. يبلغ عرض الكهف وعمقه حوالي الأربعين متراً، أما طوله فيبلغ مئة متر. وفي داخل الكهف، يوجد مبنى من عشر طوابق مُشيَّد على طول الجرف. وعلى الزوار أن يصعدوا 77 درجة حجرية قبل أن يصلوا إلى القصر العظيم في الطابق الأعلى من المبنى، حيث توجد تماثيل لأفالوكيتسافارا و18 آرهات.

بينما يقع جبل أخضر خلفها، ويشرف موقعها على مشهد «قوارب ذات أشرعة تبحر على المياه الخضراء». أما معبد خلوة الروح (معبد لينغيين) **(الصورة 2-19)** في هانغتشو فيقع ضمن ثنايا غابات جبل لينغيين الكثيفة قرب البحيرة الغربية، حيث تنتصب «القمة الطائرة من بعيد» في أعلى جبل لينغيين، بينما يتدفق نبع ماء بارد عند أسفل الجبل.





الصورة 2-21 منظر جوي لمعبد تانتشه في بكين (تصوير هو وي بياو)

يقع معبد تانتشه عند سفح الجبل المسمى بالاسم نفسه في منطقة مِنتوقوه في بكين. يحتوي المعبد على أشجار قديمة يشق طولها أفق السماء، وغابة تتخللها مبانٍ متعددة الطوابق للعبادة وقصور رائعة وبهية. لقد تم إنشاء هذه المباني على طول الجبل في تصميم عبقري يبدو لأول وهلة وكأنه غير مرتب، ولكنه يهدف إلى دمج المباني مع محيطها الطبيعي. المبنى الرئيس في المعبد هو قاعة ساكياموني ذات السقف الأصفر، وتمثل المحور المركزي للمعبد. ومع وجود أشجار الخيزران الأخضر وحدائق الزهور المتناثرة في أرجاء المعبد فهو يمثّل بيئة ممتازة تملأها السكينة.

إذا نظر المشاهد من بعيد فقد يحسب كهف أفالوكيتسافارا كهفاً طبيعياً في جبل ياندانغ في مقاطعة تشه جيانغ، ولكنه في الواقع يحتوي على مبانٍ شاهقة، يتدفق نبع على يسار القاعة الرئيسة منها، وهو بالفعل مشهد فريد من نوعه من بين المعابد.

لكن في نهاية الأمر، يمكننا القول إن جميع حدائق المعابد سواء أكانت واقعة على قمم الجبال الشهيرة أم في أعماق الغابات المنعزلة أم مخفية في أعماق الوديان تتشابه في أنها تكون دائماً قريبة من الطبيعة.

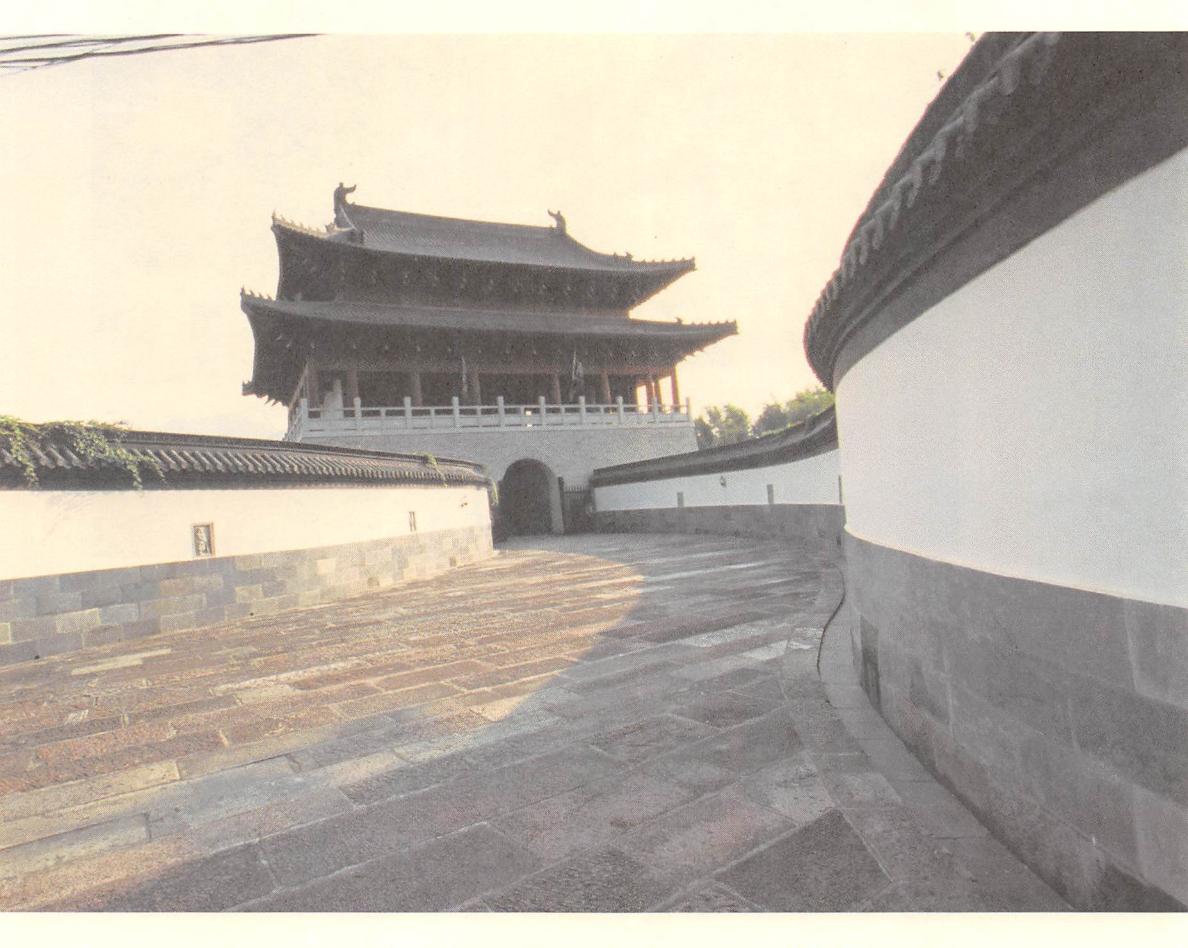
الفرق الثاني بين حدائق المعابد وغيرها من الحدائق هو أن حدائق المعابد قد أنشئت لغايات دينية؛ فهي مصممة بالدرجة الأولى لخدمة المؤمنين بالأديان التي تمثلها هذه المعابد، أو الزوار القادمين لممارسة نشاطات دينية فيها. لهذا، شُيِّدت مباني المعابد بما يتناسب مع النشاطات الدينية التي يمارسها الزوار، وتمركز تصميم الحدائق فيها على الأفكار الدينية التي يعتنقها أصحابها. فمثلاً،



الصورة 2-22 بركة لإطلاق سراح الحيوانات الأسيرة في معبد بوذا المستلقي في بكين (تصوير نيه مينغ)

ورد في كتاب «الرسالة العظمى في كمال الحكمة»: «من بين جميع الجرائم، لا شك في أن القتل أسوأ جريمة. ومن بين جميع الأعمال الفاضلة، لا شك في أن إطلاق سراح الحيوانات الأسيرة هو العمل الأهم». بركة إطلاق سراح الحيوانات الأسيرة من المرافق التي نجدها في الكثير من المعابد البوذية، حيث يقوم المؤمنون بهذه الديانة بإطلاق سراح العديد من الحيوانات المائية مثل الأسماك والسلاحف.

تُصمَّم المعابد البوذية عادة حيث تحتوي على باحة ذات مداخل متعددة تكون محور مجمع المباني التي تؤلف المعبد. تنتظم المباني داخل المعبد بحسب ترتيب النشاطات الدينية التي يمارسها الزوار؛ بدءاً من البوابة الجبلية ووصولاً إلى أبراج الطبول والساعات وقصر الملك السماوي وقاعة ساكياموني وخزانة النصوص الدينية البوذية، وانتهاء بمنامات الرهبان والباغودا (أي مباني العبادة ذات الطوابق المتعددة) والغرف الحجرية؛ مما يؤلف ترتيباً حافلاً بالمعاني الدينية. وكذلك تُعزِّز المرافق الدينية كالباغودا والنقوش اللوحية والتماثيل على الأسطح الحجرية المحيطة بالمعبد من الجو الديني من ناحية، ومن سكينة البيئة وجمالها من ناحية أخرى. حتى إن البركة الموجودة في المعبد تستخدم عادة كمكان يقوم عنده أتباع الديانة البوذية بإطلاق سراح الحيوانات الأسيرة طلباً للترقي الروحي، وتشمل الأمثلة على هذه البرك بركة معبد تانتشه (معبد البركة والتوت) (الصورة 2-21) ومعبد بوذا المستلقي (الصورة 2-22) في بكين.



الصورة 2-23 زاوية من قاعة شانغتشينغ في جبل لونغهو في جيانشي (تصوير لي جيان تشيو)

تعتبر قاعة شانغتشينغ من أهم أماكن إجراء الشعائر الدينية الطاوية. فهذا هو المكان الذي كان الأستاذ السماوي تشانغ يدعو الناس فيه إلى مبادئ الطاوية، ويرسم الصور السحرية لاستدعاء الأرواح الطيبة وطرد الأرواح الشريرة، فضلاً عن أداء طقوس طاوية أخرى. تُصنَّف هذه القاعة كإحدى أهم القاعات، ليس على مستوى جيانغنان فحسب بل على مستوى الدولة ككل؛ وذلك بفضل حجم قاعاتها الفرعية الهائل، ومقصوراتها ذات الطوابق المتعددة، ومنازلها العالية، وباحاتها الموزعة في الجبل.

أما معبد الديانة الطاوية فيصمم باتباع ترتيب «الرسوم الثمانية» أو الباكوا حيث تقع تشيان أو السماء في الجنوب، وكون أو الأرض في الشمال. يشكل الخط الوسط بين الجهتين المحور المركزي من المعبد، حيث يتم ترتيب قاعات تواجه الجهة الجنوبية وتحتوي على نصب تذكارية للآلهة الطاوية. يزدان جانبا المحور المركزي هذا بقاعات مبنية لغاية تقديم القرابين إلى هذه الآلهة. وقد شُيِّدت

هذه القاعات على أساس المبدأ الطاوي القائل إن «الشمس في الشرق والقمر في الغرب»، ومبدأ «تناظر الرمز الثلاثي المشير إلى كان (الماء) مع الرمز الثلاثي المشير إلى لي (النار)». تقع القاعة الرئيسة في مواجهة البوابة الجبلية، وتقع قاعتا لينغ قوان ووِنتشانغ على جانبيها، ثم نجد عبر المحور المركزي قاعة إمبراطور الجاد أو قاعة الطهارات الثلاث، وبعدها تقع قاعات الأباطرة السماويين الأربعة؛ وهي قاعات متباينة الحجم. نجد هذا الترتيب في معبد الأسلاف ضمن مدرسة تشينغيي للطاوية، وفي قاعة شانغتشينغ (الصورة 2-23) في جبل لونغهو في مقاطعة جيانغشي، وفي معبد الأسلاف في مدرسة تشيوانتشن للطاوية، أو معبد السحابة البيضاء في بكين.

تكون المباني في حدائق المعبد عادة بسيطة وأنيقة، وقد حاول مصمموها قدر الإمكان تجنب الأبهة والرفاهية التي تميز القصور في الحدائق الإمبراطورية. عادة، تكون الألوان المستخدمة في الجوانب الخارجية من المعابد أنيقة ولكنها خافتة وغير صارخة - مثل القرمزي أو النيلي - باستثناء تلك المستخدمة في بعض الرسوم الملونة أو التماثيل المطلية في قصور المعابد الرئيسة، والتي تصف أسرار عالم الآلهة، والملذات الموجودة فيه. في جبل إي مي الذي يعتبره البوذيون أرضاً مقدسة، لا يتم طلاء أبنية المعابد أصلاً، بل تحتفظ المباني بلونها الخشبي الأصلي؛ مما يضفي عليها سحراً تاريخياً خاصاً من ناحية، ويجعلها متكاملة مع الغابة الجبلية الهادئة والمنعزلة حول المعابد ومندمجة فيها من ناحية أخرى.

هناك الكثير من الأمثلة على الاندماج بين مباني حدائق المعابد ومحيطها. فعلى سبيل المثال، إن الحجارة الرملية الحمراء التي تم استخراجها من الجبال القريبة استُعملت في بناء معبد وويو (الصورة 2-24) ومعبد بوذا العملاق (الصورة 2-25) على جبل «له شان». أما الجسور الصغيرة (الصورة 2-26)، والمقصورة الموجودة في جبل تشينغ تشنغ والتي تعتبر أرضاً مقدسة لدى أتباع الديانة الطاوية، فقد صُنِعت بالدرجة الأولى من خشب التنوب الصيني الذي أُحضِر من الغابات المجاورة؛ حيث تُرِك الخشب من دون أن يُشذَّب، بل واستُخدمت جذوع الأشجار مباشرة كأعمدة في المقصورة. أما جذور الأشجار فاستُخدمت لصناعة الطاولات والكراسي، كما استُخدمت الأغصان الميتة والكروم القديمة لتزيين حواجز السلالم، حيث حافظت



(اليمين) الصورة 2-24 معبد وويو على جبل له شان في سيشوان (تصوير وانغ جون)

يقع المعبد قرب جبل وويو، وقد بناه الأستاذ هوي جينغ؛ وهو راهب شهير عاش أثناء حقبة سلالة تانغ. يحتوي المعبد على الكثير من المباني ذات الجدران الحمراء والقرميد الأخضر، ومنها قاعة الآرهات. يتميز جو المعبد المحاط بغابات خيزران واسعة بهدوء وجمال خاصين.

(اليسار) الصورة 2-25 معبد لينغيون على جبل له شان في سيشوان (تصوير وي ده تشي)

يُعرف معبد لينغيون الواقع على جبل له شان في سيشوان بمعبد بوذا العملاق، ويقع في أعلى قمة تشيلوان في جبل لينغيون، حيث يلتقي كل من نهر مينجيانغ وتشينغجيانغ ودادوخه غرب مدينة له شان في محافظة سيشوان.

المقصورة على طابعها القريب من المحيط الطبيعي، وفاقت في تناغمها معه أي قطعة من النقوش الخشبية كانت ستوضع بدلاً منها.

لكنّ هذه البنية الخشبية تعني أن المباني الصينية القديمة ما كانت لتحتمل عوامل التآكل المناخي لمدة طويلة، ولذلك فهي تحتاج إلى أعمال صيانة وتجديد، بل وحتى إلى إعادة بناء خلال فترة قد لا تتجاوز بضعة عقود، أو قرن من الزمان على أقصى تقدير. لهذا السبب، كان من الصعب على المباني الصينية القديمة أن تُظهر حقيقة عراقة تاريخها. لكن، وبخلاف ذلك، يمكن لجذوع الأشجار القديمة والمشهورة أن تستمر طويلاً، وبالتالي أن تلعب دوراً أكبر في حفظ التاريخ ضمن فروعها الملتوية وندوب الفؤوس عليها. وفي هذا المجال، تتمتع حدائق المعابد بمزايا طبيعية، حيث تعزز هذه الأشجار القديمة الشعور بالعراقة والعمق التاريخيين. وقد أوليت حماية الأشجار الشهيرة القديمة عناية خاصة؛ سواء أكان ذلك في المعابد الكونفوشيوسية التي تدعو إلى فلسفة تقوم على الدخول في



العالم والالتحام معه، أم في المعابد البوذية والطاوية التي تدعو إلى فلسفة تقوم على الزهد في العالم والخروج منه. ولذلك، نرى الكثير من الأشجار الباسقة في السماء تلقي بظلالها على أرض معظم حدائق المعابد القديمة. فعلى سبيل المثال، لقد نالت المعابد الموجودة في مقبرة كونفوشيوس وفي قصر عائلة كونغ في تشيويفو في مقاطعة شانغدونغ شهرة عالمية؛ ليس فقط بسبب تاريخها الطويل والتنوع الكبير في الآثار الحضارية والتاريخية والدينية التي تحتوي عليها، بل أيضاً بسبب مجموعة الأشجار القديمة التي تحتوي عليها والبالغ عددها 10,270 شجرة، والتي تشهد على عراقة المكان التاريخية من ناحية، ولكنها من ناحية أخرى أكثر عملية تُقدِّم للباحثين مواد لا تقدر بثمن لدراسة علم دورات الظواهر الطبيعية والمناخ والبيئة في الأزمنة القديمة.

لطالما استخدم الرهبان البارزون في تاريخ الصين شجرة الجنكة كبديل عن شجرة «البودي»؛ وهي شجرة يعتبرها البوذيون مقدسة، ونجدها بالدرجة الأولى في



الصورة 2-26 جسر فوق المسالك الجبلية في جبل تشينغ تشنغ، دوجيانغيان، سيشوان (تصوير تشن يين يان)

يقع هذا الجسر الصغير على جبل تشينغ تشنغ في مقاطعة سيشوان، وقد أنشئ باستخدام جذوع شجر التنوب الصينية. بالإضافة إلى أن استخدام مواد البناء المحلية يخفِّض من التكاليف، فهو يحافظ على تكامل المنظر الطبيعي وجماله.

حدائق المعابد البوذية. إن شجرة الإمبراطور (الصورة 2-27) المزروعة في عهد سلالة تانغ، وشجرة الإمبراطورة المزروعة أثناء حقبة سلالة لياو - وكلتاهما موجودتان في معبد تانتشه - بالإضافة إلى شجرة «ملك الجنكة» المزروعة أثناء حقبة سلالة سونغ والموجودة في معبد القمة الغربية، جميعها من أشجار الجنكة التي يبلغ عمرها أكثر من ألف سنة في بكين. كذلك يمكننا أن نجد أشجار جنكة قديمة في معبد الجبل الذهبي ومعبد بوذا المستلقي ومعبد الباغودات الخمس وبقايا المعابد القديمة في شانغفانغشان و«قوه يا». يحتوي معبد الرحمة العظيمة في بكين على ست عجائب، ثلاث منها أشجار قديمة، وهي: ماغنوليا يويلان التي تمت زراعتها قبل 300 سنة، وشجرة صنوبر تعانق الباغودا الواقعة بجانبها، وشجرة «ملك الجنكة» المزروعة أثناء عهد سلالة لياو؛ وهي شجرة ضخمة للغاية حيث تحتاج على الأقل إلى ستة أشخاص كي يحيطوا بها. تقف أمام قاعة ساكياموني في معبد



الصورة 2-27 شجرة الإمبراطور داخل معبد تانتشه في بكين (تصوير وانغ فين جوان)

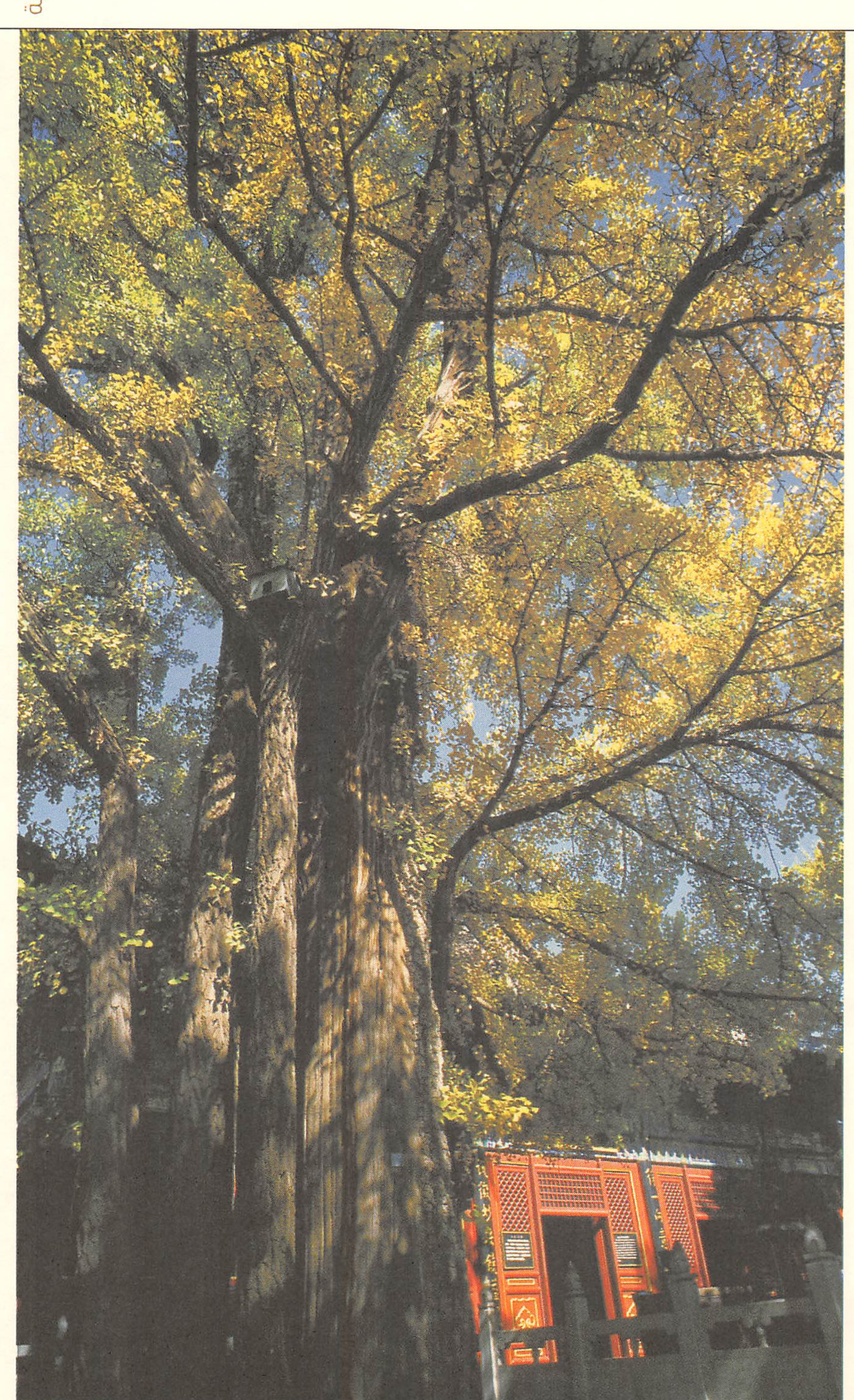
لقد زُرِعت شجرة الإمبراطور داخل معبد تانتشه قبل أكثر من 1300 سنة خلال عهد سلالة تانغ- وهي شجرة جنكة هائلة الحجم- شرق قاعة فيروتشانا (وهو بوذا سماوي يعتقد البوذيون أنه تجسيد لمفهوم الفراغ أو التجرد من كل الأشياء). تمتد أغصانها إلى عرض يبلغ أكثر من ثلاثين متراً، أما محيط جذعها فيكاد يصل إلى تسعة أمتار.

هونغلوه (معبد المحارة الحمراء) شجرتا جنكة عملاقتان يصل طول الواحدة منهما إلى ثلاثين متراً، وكانتا قد زرعتا أثناء حقبة سلالة تانغ. إحدى هاتين الشجرتين هي الذكر وتحمل الزهور كل فصل ربيع، أما الشجرة الأنثى (الصورة 2-28) فتحمل الثمار كل فصل خريف، وتعتبر كلتاهما من عجائب المعبد.

لا تزال معظم حدائق المعابد موجودة حتى يومنا هذا، بخلاف الحدائق الإمبراطورية التي كانت تتعرض للتدمير كثيراً مع تغير السلالة الحاكمة، أو حتى مع انحسار سلطة الإمبراطور وثروته. وكان لهذه الاستمرارية الممتدة عبر قرون طويلة التي تمتعت بها حدائق المعابد المشهورة أثر كبير في تراكم إرث تاريخي وحضاري غني تمثِّله هذه المواقع الدينية، ويتجسد في القصص التاريخية التي رُوِيت حولها والنقوش المحفورة على أسطح الصخور والجروف من حولها، والقصائد التي ألّفها الأدباء عنها على امتداد السلالات الحاكمة المختلفة. كان لتطور حدائق المعابد التي تعتمد على دمج المناظر الطبيعية التي يصممها الإنسان مع محيطها البيئي أن صنعت مع الزمن مشاهد تسحر الألباب، وتجتذب الزوار الراغبين في مشاهدة جمال هذه الحدائق، بالإضافة إلى أتباع الديانات القادمين إليها لغاياتهم الدينية.

الصورة 2-28 شجرة الجنكة الأنثى في معبد المحارة الحمراء (تصوير وو جيا لين)

زرعت شجرة الجنكة الأنثى أمام قاعة ساكياموني في معبد المحارة الحمراء أثناء عهد سلالة تانغ، ولم تذبل حتى بعد مرور ألف سنة على ذلك، حيث شهدت تقلب سلالات إمبراطورية عديدة وتغيرات تاريخية هائلة.





الحدائق الصينية

الفصل الثالث

إتقان رباني

- أربعة عناصر في إنشاء الحدائق الصينية

| بناء الهضاب

من بين العناصر الكثيرة التي تدخل في إنشاء الحدائق الصينية، لا شك في أن أهمها هو بناء الهضاب وترتيب الأسطح المائية والمباني والنباتات. تكمن أهمية بناء الهضاب في كونه ما يحدد إطار الحديقة، أما ترتيب الأسطح المائية فهو شريان الحديقة الحيوي، في حين أن وضع المباني تحديد للرابط بين الاصطناعي والطبيعي في الحديقة، والنباتات هي الكنز الحقيقي في الحديقة، حيث تحتوي على حياة الحديقة وجوهر مظهرها؛ ومجموع هذه العناصر يؤلف عملاً متكاملاً هو الحديقة.

تحتل المشاهد الجبلية موقعاً أساسياً في حياة الشعب الصيني وتنقلاته الداخلية ضمن حدود البلاد، ولما كانت الحدائق تصميماً مصغراً يحاكي مناظر الصين الطبيعية، فإن تصميم المناظر جبلية الطابع يحتل موقعاً أساسياً ضمن الحديقة الصينية، بل ويتداول الشعب الصيني القول المأثور التالي: «لا غنى عن الجبل في بناء الحديقة». تحتوي الحدائق على هضاب حقيقية ومصطنعة، فالكثير من الحدائق الإمبراطورية وحدائق المعابد مشيَّد في مناطق طبيعية تحتوي على هذه التضاريس، ولذلك يمكننا في الكثير من الأحيان أن نراها ممتدة على هضاب بل وحتى جبال حقيقية نحتتها يد الطبيعة. أما الحدائق الخاصة فهي الأكثر استخداماً للهضاب الاصطناعية. وعموماً، إن استخدام هذه الهضاب المصطنعة في الحدائق يعكس الفكرة القائلة إن الحدائق يجب أن تستمد تصميمها من الطبيعة، ولكن عليها أن ترتقي بالطبيعة من خلال إضفاء لمسة فنية إنسانية عليها.

أسلوب بناء الهضاب الطبيعية الأكثر شيوعاً وتميزاً في الصين هو مراكمة الصخور الطبيعية مع الأتربة. وعادة، تُستَخدم صخور صغيرة ولكن جميلة ومتميزة لإبراز خصائص الهضبة المصطنعة، كما توضع صخرة أو اثنتان تتسم كل منهما بضخامة الحجم وأناقة المنظر لتشكلا الزينة الرئيسة لمساحات الحديقة مثل «القمم الثلاث» في حديقة التريث - والتي تدعى: قوانيون وروي يون وبايون - المبنية بصخور تايهو كاملة ورائعة الجمال وتتميز بفتحاتها التي تتيح المجال أمام الهواء والماء لينفذا منها، كما تتميز برقتها وتعرجها ونقائها وبساطتها المخادعة.



الصورة 3-1 قمة قوانيون في حديقة التريث، سوتشو (تصوير شو مي)

أنشئت قمة قوانيون باستخدام صخرة تايهو كاملة يقال إنها تُركت دون أن يستخدمها أحد في عهد سلالة سونغ. تقع القمة شرق حديقة التريث، وشمال منزل العالم المعتكف العجوز، وتسمى هذه القمة أيضاً: «قمة أفالوكيتسافارا». يمثل هذا الترتيب الصخري كامل خصائص صخور تايهو: الفتحات التي تتيح المجال أمام نفاذ الماء والهواء.



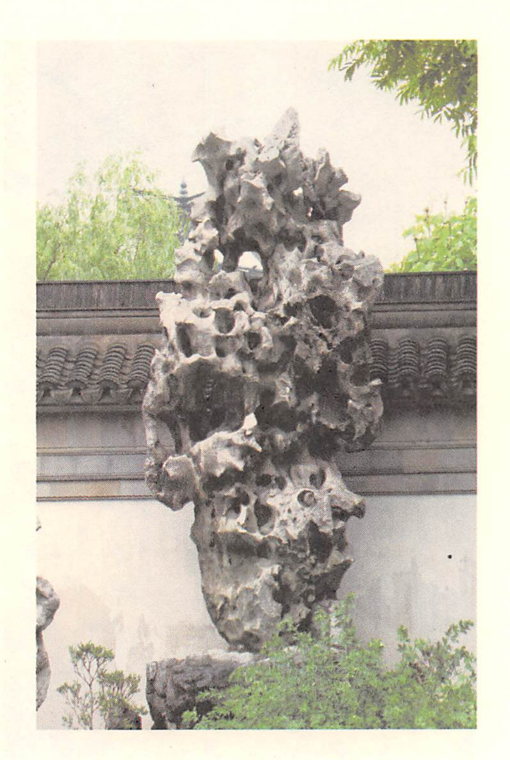
ومن بين هذه القمم، نالت قمة غوانيون (الصورة 3-1) شهرة واسعة «كتاج التصاميم الصخرية في حدائق جيانغنان». وتمتد قمة قوانيون (أو القمة المكللة بالسحاب) إلى ارتفاع يبلغ 6.5 م من الصخر المستقيم والأنيق، وهي المشهد الرئيس في ترتيب الحديقة العام، وتساندها قمتا روي يون (قمة السحابة الميمونة) وبايون على كل من جانبيها. تواجه قمة قوانيون البرج الذي يحمل الاسم نفسه في الشمال،

كما تواجه ممراً متعرجاً في الغرب، ومنصة قوانيون من الجنوب، أما من الشرق فتواجه كلاً من مقصورة قوانيون وتشويون آن (كوخ السحابة القائمة).

ومن الأمثلة الأخرى على ترتيب الصخور هذا صخرة «الجاد البديع» (الصورة 3-2)، وهي صخرة تقع في حديقة يويوان في شانغهاي، وتمتاز بضخامتها حيث لا تماثلها إلا صخرة قمة قوانيون، ويقال إن تاريخها يرجع إلى عهد سلالة سونغ. تقف الصخرة ببهاء مهيب وكأنها نبتة غانوديرما قد ظلت تنمو لآلاف السنين، حيث بلغ طولها 5.1 م، أما عرضها فمتران، كما تزن أكثر من 5 أطنان. تكاد الفتحات الواسعة المنتشرة في هذه الصخرة توحي للناظر بأنها نتاج تصميم نحات حديث أكثر من كونها نتاج حت الطبيعة وتعريتها. وقد جعل شكلها الغريب والبديع صاحبها الأصلي يبني قاعة أسماها: «قاعة بهاء الجاد» إلى الجهة الشمالية من الصخرة، حيث تعمل هذه القاعة كغطاء لهذه الصخرة التي تعتبر بحق كنز حديقة يويوان.

أما حديقة جيوياو في قوانغتشو فقد أطلق عليها هذا الاسم بسبب الصخور التسع رائعة المنظر التي تحتوي عليها. فباحة الصخور والمياه تحتوي على تسع صخور تشكل المشهد الرئيس فيها. وهذه الصخور الراسخة باسقة الطول، وضخمة الحجم، ونقية اللون، لم يقم مصممو الحديقة بتزيينها بأي شيء، بل كانت هي زينة مشاهد الحديقة؛ حيث أضفت سحراً طبيعياً عليها. تحمل هذه الصخور نقوشاً تركها عليها الكثير من علماء الصين البارزين، واستخدموا فيها شتى فنون الخط الصينية؛ بما في ذلك الأختام والخطوط الرسمية والخطوط العادية والخطوط الجارية والخطوط المتصلة. ومن بين هذه النقوش توجد قصيدة تمتدح جمال هذه الحجارة ألفها مي فو، وهو خطاط شهير عاش أثناء عهد سلالة سونغ. وقد اشتهرت الحديقة بسبب الحجارة الرائعة الموجودة فيها، أما الحجارة فاشتهرت بسبب الكتابات المنقوشة عليها.

ولكن ما ذكرناه عن الصخور الضخمة سابقاً لا يعني أن قطع الحجارة الأصغر حجماً لا يمكنها أن تشكل مشاهد جميلة ضمن الحديقة، وقد يكون أسلوب استخدام الحجارة الأصغر حجماً لصنع هضاب اصطناعية ضرورياً حتى يتناسب مع بعض الظروف المحلية. على سبيل المثال، يرى مصممو الحدائق أن الحجارة الموضوعة بجانب أشجار الخوخ يجب أن تكون بسيطة وغير مزينة، أما تلك

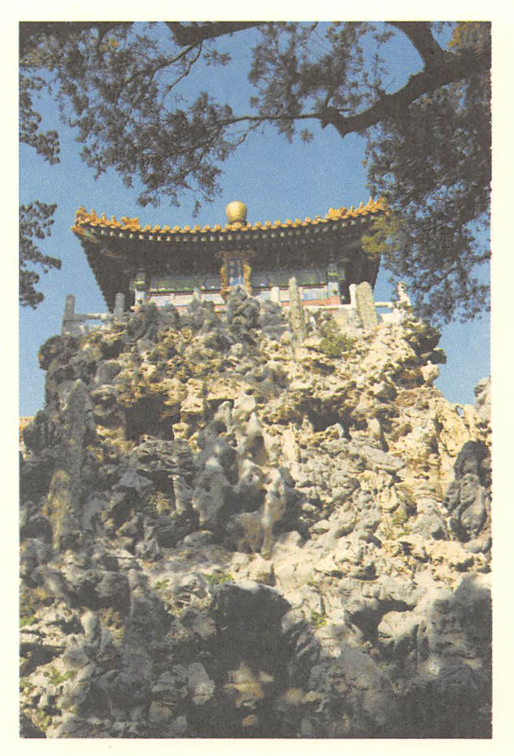


الصورة 3-2 الجاد البديع - أجمل منظر في حديقة يويان، شانغهاي (تصوير فين شياو لي)

يقال إن صخرة «الجاد البديع» من الصخور التي ظلت من دون أن تستخدم بعد بناء جبل الحياة الطويلة للإمبراطور هوي تسونغ. تحمل هذه الصخرة جميع الخصائص التي تميز صخور تايهو: الفراغات والرقة.

الموضوعة بجانب أشجار الصنوبر فيجب أن تكون بسيطة وخالية من أي تعقيد، في حين أن تلك الموضوعة بجانب شجيرات الخيزران يجب أن تكون حادة وقاسية، أما تلك الموضوعة بجانب شجر موز البلانتين فعليها أن تكون صلبة وقوية.

قد تصنع الحجارة الجبلية المختلفة المتجمعة في حديقة واحدة آثاراً فنية متعددة. على سبيل المثال، كثيراً ما تستخدم أشجار الخيزران الباسقة التي تدعمها الحجارة الصاعدة الطويلة والرقيقة لترمز إلى فصل الربيع، وتستخدم صخور التايهو البديعة لمحاكاة المنحدرات والجروف. وكذلك إذا ترافق وجود الصخور مع المياه الصافية الجارية أسفلها وظلال أوراق الأشجار التي تغطيها فسيؤدي ذلك إلى صنع بيئة ساحرة ومنعزلة تحاكي فصل الصيف، بينما تعزز الصخور الصفراء المتراكمة في أعلى هضبة عالية وشديدة الانحدار والمحاطة بأشجار حمراء الأوراق من شعور المتفرج عليها بفصل الخريف، وكذلك تتم مراكمة الصخور البيضاء النقية والمستديرة التي يشبه لونها لون الثلج في الناحية الشمالية من الجدار لصنع أثر فني يشبه الثلج غير الذائب في الشتاء.



الصورة 3-3 تفاصيل من الهضبة الاصطناعية في الحديقة الإمبراطورية في المدينة المحرمة، بكين (تصوير نيه مينغ)

تعكس الهضبة الاصطناعية المنتصبة على مساحة محدودة بعض الشيء عبقرية مصمميها؛ حيث شُيِّدت باستخدام صخور تايهو متعددة الأحجام والأشكال لتحاكي جلال الجبال الشاهقة ومنحدراتها المرعبة ومسالكها الملتوية؛ ممّا يعزز من تقدير المتفرج للعظمة المتجلية في هذه المساحة الصغيرة.

تتعدد القواعد والطرائق التي تستخدم لبناء الهضاب الاصطناعية؛ بحسب ما إذا كانت الهضبة ستشيد على أرض جافة أم على أرض تقع بجانب مسطح مائي. وتعتبر الهضبة الاصطناعية في الحديقة الإمبراطورية في المدينة المحرمة، بكين (الصورة 3-3) من الأمثلة التي تجسد أسلوب البناء على الأراضي الجافة؛ حيث أنشئت الحديقة برمتها على أرض مسطحة بدون أي منظر طبيعي يلعب دور الخلفية لها- مثل هضبة طبيعية أو حتى مسطح مائي اصطناعي - فكانت الهضاب الاصطناعية هي التي تلعب دور الزينة الفنية الرئيسة في الحديقة. يكاد المشاهد يشعر بأن قطع الصخور المختلفة والموزعة في شتى أرجاء الحديقة تتنافس من حيث الجمال، فيحتار في أي منها الأجمل. كما يجد في الحديقة جميع المشاهد التي يمكن لأنواع مراكمة الصخور المختلفة أن تحاكيها؛ بما في ذلك سلاسل جبال ومنحدرات وكهوف ووهاد وقمم وغيرها تظهر من بينها مناظر تسودها المرتفعات، وتحمل في ثناياها

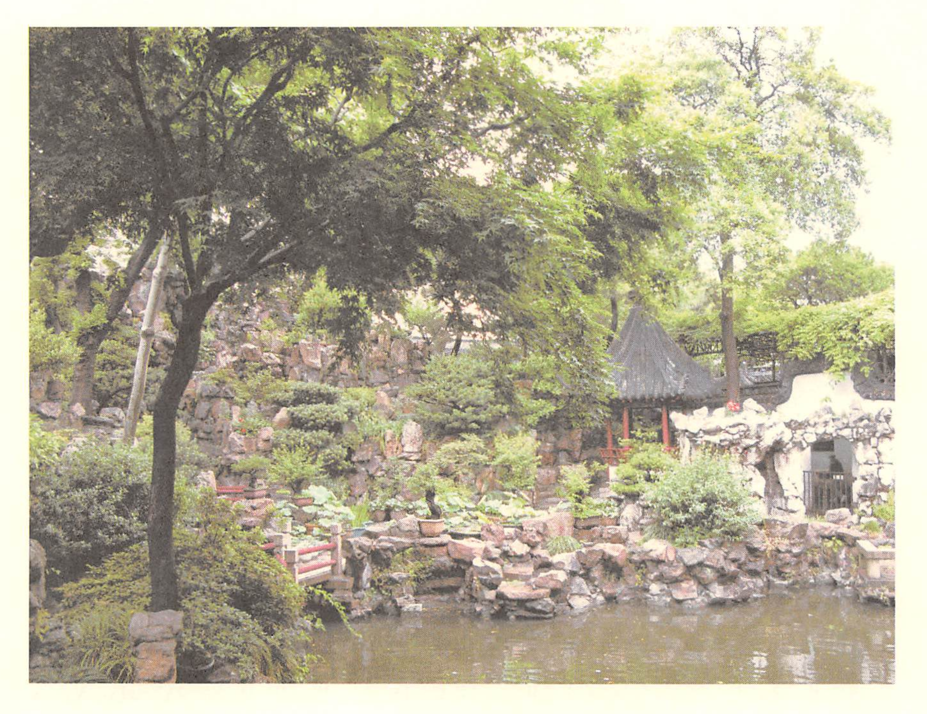
فوضىً مقصودة تترك لدى المتفرج انطباعات بالجلال والتعالي والعمق والهدوء.

ومن الأمثلة الأخرى على الهضاب المبنية على أراضٍ جافة الهضبة الاصطناعية غرب حديقة «إيواء المشاعر المتسعة» في ووشي. فقد حاكى البستانيون الذين صمموا الحديقة سلسلة متصلة من تسع قمم في أعلى الهضبة، مما جعل باقي المرتفع الاصطناعي يتخذ شكل منحدر يحيط بأعالي الجبل. عادة، يمتد طول الهضبة الاصطناعية إلى ما بين ثلاثة أمتار وخمسة، ويصمم بحيث تتناسب أبعاده مع بركة المياه في الشرق، فتحاكي في نطاقها الصغير جبال شيشان وهويشان. وهكذا، يندمج هذا المشهد مع الجبل الحقيقي، وبدون أي إضافة اصطناعية تزيينية على الصخور.

إن بناء هضبة اصطناعية أسفل جبل أو على ضفة نهر أو جدول من الأساليب كثيرة الاستخدام في صنع مشاهد الحدائق الصينية؛ وذلك عملاً بالمبدأ القائل: «تبث المياه شعوراً بحركة الأشياء وسرعة زوالها، أما الجبل فيوحي بثبات الأبدية ورسوخها». إذاً، تشكل الجبال تضاداً جذاباً مع المياه؛ حيث تمثل القوة والسكون، بينما تجسد المياه اللطف والحركة.

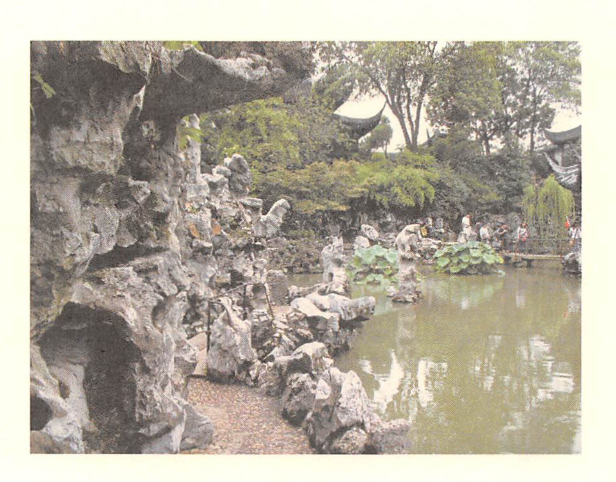
لقد أنشئت الهضبة الاصطناعية الكبيرة (الصورة 3-4) أمام قاعة يانغشان في حديقة يويوان، شانغهاي وعلى ضفة نهر. وهذه الهضبة هي أكبر هضبة اصطناعية حفظها لنا التاريخ في جيانغنان من عهد سلالة مينغ، وقد استخدمت الحجارة الصفراء في بنائها. تتصاعد النتوءات والقمم واحدة تلو الأخرى وفوق بعضها بعضاً، وتتنوع المنحدرات والمرتفعات في مسالك هذه الهضبة، فتبدو للناظر إليها وكأنها دائمة التغير من مكان إلى آخر. إذا تسلق الزائر الهضبة فسيجد نفسه قد أشرف على الحديقة بأسرها، أما إذا نظر من الطريق الصغير الممتد بمحاذاة بركة الماء فسيرى أشجاراً قديمة للغاية وباسقة تشق السماء، وسيشعر عندها بالمطلق اللامتناهي ضمن حدود الحديقة المتناهية، وهو الشعور الذي سعى مصمموها إلى بثه في نفسه، وسيجعله هذا يشعر بأنه بعيد من الهضبة المحاطة بالخشب رغم كونه قريباً للغاية منها.

أما حديقة غابة الأسود في سوتشو، فيقال عنها إنها «مملكة الهضاب



الصورة 3-4 الهضبة الاصطناعية العملاقة في حديقة يويوان، شانغهاي (تصوير فينغ شياو لي)

هذه من أقدم الهضاب الاصطناعية المبنية باستخدام الحجارة الصفراء في جيانغنان وأجملها. تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من الحديقة، ويصل طولها إلى 12 متراً، وقد أنشئت باستخدام ألفي طن من الحجارة الصفراء من ووكانغ، تشه جيانغ. صمم تشانغ نان يانغ هذه الحديقة وبناها، ويعتبر أحد أهم خبراء مراكمة الهضاب الاصطناعية، وقد اشتهرت هذه الهضبة بأنها أفضل هضبة اصطناعية في الصين.



الصورة 3-5 الهضبة الاصطناعية مع صخور من جميع الأشكال والهيئات في حديقة غابة الأسد، سوتشو (تصوير وانغ تشيونغ)

تشبه معظم هذه الصخور الأسود، ويبلغ عددها أكثر من 500. يظهر بعضها وكأنه أسد يزأر بغضب، فيما يظهر بعضها الآخر وكأنه أسد ينام بسكينة، والآخر وكأنه أسد يستلقي بسعادة. يبدو بعض هذه الصخور كبيراً وبعضها الآخر صغيراً، كما يظهر بعضها سميناً وبعضها الآخر نحيلاً، بعضها يبدو وكأنه سلحفاة أما بعضها الآخر فيبدو وكأنه سمكة، ويشبه بعضها الطيور. ويمكننا أيضاً أن نجد أنماط الحيوانات الرمزية الاثني عشر جميعها فيها.

الاصطناعية»؛ حيث اشتهرت بهضابها الاصطناعية المشيدة بصخور رتبت بحسب تصميم رائع وعبقري لكهوف متعرجة (الصورة 3-5). لقد أنشئت معظم الهضاب الاصطناعية بجانب المياه، ويقع معظمها في الجهة الجنوبية الشرقية من الحديقة، أما المياه فتقع في الجهة الشمالية الغربية. تحتوي الحديقة على عدد كبير من الجروف الحجرية المصنوعة من صخور تايهو بديعة المنظر والتي تؤلف أربع قمم أسماؤها على التوالي: هانهوي وتويويه وشيوانيو وآنغشياو، وتضمّ حجارة شبيهة بالخشب وصخورَ صواعد؛ وكلها من مخلفات عهد سلالة يوان. تنقسم الهضاب إجمالاً إلى قسمين شبيهين بالخاتم يغطيان مساحة كبيرة، ويغطيها رصف غير منتظم لصخور وحجارة كبيرة تختلف أحجامها وطريقة وضعها، ويقال إن معظمها يشبه أسوداً ذات أشكال مختلفة، ولكن الواقع هو أن شكلها غريب للغاية؛ حيث لا يمكن وصفه. تنمو الأشجار القديمة في الحديقة بين جروف قمم الهضبة، وتتشابك أغصانها ذات الأوراق الخضراء الكثيفة، فتبدو الهضاب الهائلة بقممها الباسقة ونتوءاتها غير المنتظمة بالنسبة إلى الناظر إليها من الخارج وكأنها غابة طبيعية لم تمسها يد إنسان. لكن الداخل إلى الحديقة لا يمكنه إلا أن يلاحظ جو الانفتاح من حوله في كل مكان؛ بوجود فتحات الكهوف هنا وهناك تحت الجروف الصخرية. وهذه الكهوف تقود السائر فيها إلى طرق ملتوية نزولاً وصعوداً تنتهي به إلى مناطق معزولة تتيح له المجال إما للتسلق إلى قمة هذه الجرف أو دخول كهف آخر.

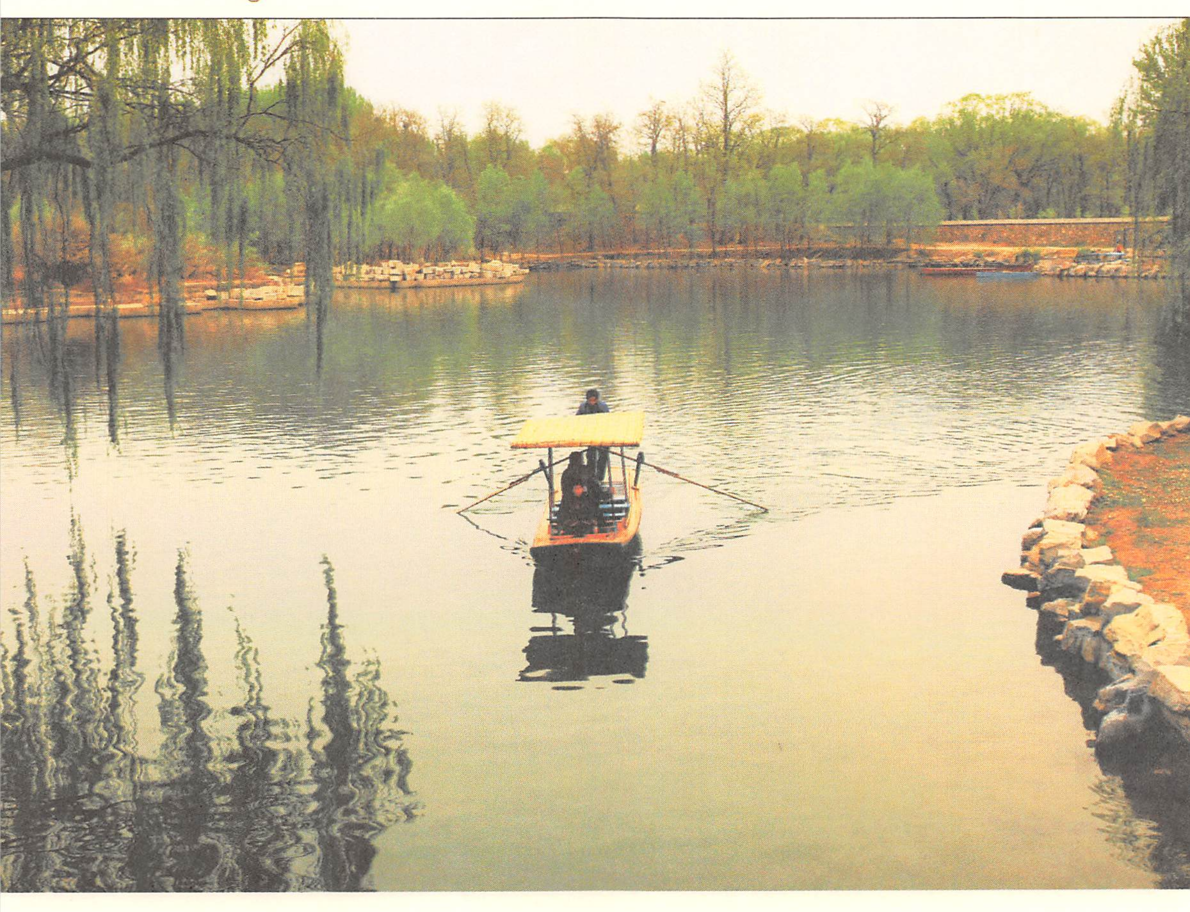
يوصل الكهف – الذي يبدو وكأنه مغلق في الداخل - السائرَ فيه إلى مساحات واسعة من الحديقة، وقد يشعر أيضاً بأنه على وشك مقابلة أشخاص آخرين، ولكنه في الحقيقة يسير باتجاه مختلف تماماً عنهم؛ فهو قادر على رؤيتهم ولكنه ليس قادراً على الوصول إليهم. وسيجد أنه سيسير مسافة طويلة للغاية في كهف لا يبدو عميقاً أبداً. هذا الكهف مخادع، فقد تسمع فيه أناساً من غير أن تراهم، وقد يبدو أناس آخرون وكأنهم آتون إليك، لكن ترتيب الكهف لن يسمح لهم بالوصول إليك. إذ يبدو ترتيبه وكأنه على شكل خط القتال ثمانيّ الأضلاع الذي رتبه تشو قه ليانغ– المخطط العبقري الذي عاش أثناء حقبة الممالك الثلاث (220-280) - كما قيل إنه تمت دعوة الفنان العظيم ني يون لين لينضم إلى الفريق الذي صمم الحديقة المليئة بالسحر والمتعة بهضبتها المصطنعة التي تبدو وكأنها رسم ثلاثي الأبعاد.

ترتيب الأسطح المائية

تؤلف الجبال والأسطح المائية العناصر الرئيسة في رسم الإطار المحدد للحديقة الصينية. فكما يترك الجبل انطباعاً عمودياً بوجود مساحة أكبر في الحديقة ويبث شعوراً بالقدم والقوة بثقله ومهابته ورسوخه فإن الماء يعرض اتساع الحديقة أفقياً، ويضفي عليها مسحة من السكينة والجمال الأصيل. يظهر الجبل وكأنه يتفجر بالطاقة إذا ترافق مع الماء، بينما تجري المياه طالما أن هناك جبلاً ممتداً لتنحدر منه. فالجبل والماء ضدان، والضد يُبرِز حُسْنَه الضدُ؛ كما قيل في قصيدة صينية قديمة: «كيف يمكن لبركة أن تكون نقية وباردة؟ فالمياه النقية تأتي من منبعها»، والماء من دون منبع يتدفق منه سوف يركد ويتعفن لا محالة، وهذا الركود أمر ممنوع منعاً باتاً في تصميم الحدائق الصينية.

يُعزى سبب وجود الكثير من مشاهد الأنهار والبحيرات في القصر الصيفي في بكين إلى توفر مصادر المياه الكافية. لكن العثور على مصدر للمياه المتدفقة ليس سهلاً أبداً، ولذلك يتطلب إنشاء الحديقة مصدراً مائياً من صنع الإنسان، فيقوم المصممون بحفر بركة ومراكمة الأتربة والصخور التي أزيلت منها لتتحول إلى هضاب اصطناعية، أما الحفرة فتتحول إلى سطح مائي اصطناعي (الصورة 3-6)؛ وهكذا نرى الرابط بين حفر البرك المائية وصناعة الهضاب الاصطناعية، ولا يقل أي من العنصرين أهمية عن الآخر في الحديقة، وكلاهما من الوسائل التقليدية في تصميم الحدائق القديمة في الصين.

يمكننا تقسيم المياه في الحديقة الصينية إلى قسمين: المياه الساكنة والمياه المتحركة. ونعني بالمياه الساكنة الأسطح المائية الثابتة التي تحتوي الحديقة عليها مثل البرك والبحيرات وغيرها، وتهدف هذه الأسطح إلى عكس المشاهد المجاورة مثل النباتات الخضراء والسماء الصافية وأوراق الأشجار الحمراء ومشاهد الثلج وغيرها. إن هذا الانعكاس يؤدي إلى جمال لا يوصف وتنوع كبير في الألوان. وحين يهب النسيم، ستجعل الأمواج البراقة والرذاذ المتطاير المتأمل فيها يطلق العنان لخياله وفكره.

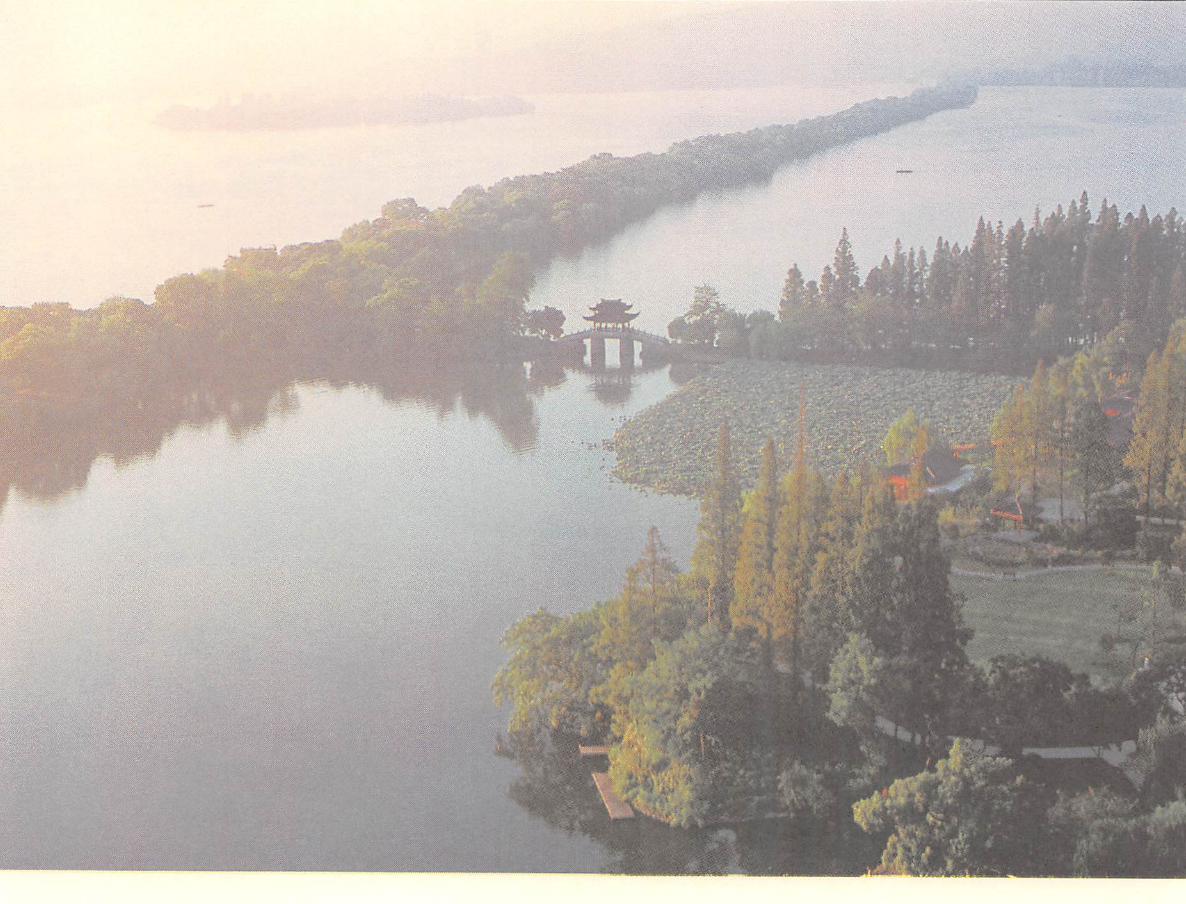


الصورة 3-6 بحر السعادة – مصدر مائي اصطناعي في القصر الصيفي القديم، بكين (تصوير ليو شوه)

اشتهرت حديقة القصر الصيفي القديمة بمناظرها المائية، وبحر السعادة هو أكبر الأسطح المائية فيها ويقع شرق القصر، وقد أطلق عليه هذا الاسم على أساس التحية الصينية القائلة: «عسى سعادتك أن تكون بلا حد مثل البحر الشرقي». يبلغ عرض بحر السعادة 600 متر، وتوجد في وسطه ثلاث جزر مربعة الشكل وبأحجام مختلفة تصل بينها جسور.

إذا كان لنا أن نصنِّف الأسطح المائية الساكنة من حيث حجمها فسوف تنقسم إلى الأصناف التالية:

الصنف الأول هو البحيرات: وهي النوع المستخدم عادة في تصميم منطقة المياه في الحدائق ضخمة الحجم، حيث تُصنع المشاهد المائية على أساس تضاريس الأرض الأصلية واتجاه جريان النهر القريب منها. تضم الأمثلة على البحيرات بحيرة



الصورة 3-7 طريق سو الفرعي في البحيرة الغربية في هانغتشو (تصوير شيه قوانغ هوي)

يُزين صف من الأشجار جانبي طريق سو المتفرع من البحيرة الغربية، ويبلغ طوله حوالي ثلاثة كيلومترات؛ بدءاً من أسفل جبل نانبينغ وانتهاء بأسفل جبل تشيشيالينغ. يبلغ معدل عرض الطريق الفرعي 36 متراً، ويقسم مساحات مائية واسعة؛ مما يعزّز الشعور بالتدرج. لقد اشتُهر مشهد الفجر في الربيع بأنه المشهد الأجمل من بين المشاهد العشرة المشهورة في البحيرة الغربية.

كونمينغ في القصر الصيفي في بكين، والبحيرة الغربية في هانغتشو. لكن، لمّا كان هذا النوع من الأسطح المائية كبيراً في الحجم فكثيراً ما يتم تقسيمه لزيادة التدرج في المساحة. ولهذا نرى أن بحيرة كونمينغ تحتوي على طريق فرعية شرقية وأخرى غربية، أما البحيرة الغربية فتحتوي على الطريق الفرعي الأبيض وطريق سو الفرعي (الصورة 3-7). وفي الوقت ذاته، يتم ترتيب الجزر والمباني لجعل المساحات تبدو دائرية وعميقة؛ وكأنها تسير بعيداً عن مركزها وتتناثر في محيطها. وقد

استُخدِم هذا الأسلوب في الحدائق الصينية لصنع مساحة مفتوحة، عبر إحاطة المباني بأسطح مائية ضخمة؛ كما هو الحال في «قمر الخريف فوق البحيرة الهادئة»، و«انعكاسات القمر عن البحيرات الثلاث» في البحيرة الغربية؛ وكلاهما مشهدان شهيران للأسطح المائية. وإذا نظر الزائر إلى الأفق البعيد الذي يضم هذه المشاهد المائية، ورأى كيف يندمج الماء مع السماء في لون واحد عند آخر امتداد الأفق فسيبعث فيه هذا المشهد شعوراً بالسعة بل واللاتناهي. كما أن تغيرات الألوان في الحديقة مع تبدل أحوال الطقس بين الأيام المشرقة والغائمة والممطرة وتلك التي يسودها الضباب جميعها ستلهم خيال الزائر بطرائق مختلفة. كثيراً ما يستخدم مصممو الحدائق أسلوب «استعارة المناظر» لتعزيز عمق مشاهد التدرج في مساحات البحيرة وجاذبيتها. فعلى سبيل المثال، إن غصون الصفصاف القريبة بالإضافة إلى منظر جبل ربيع الجاد البعيد مشهدان مستعاران لغاية تعزيز جمال الضفة الجنوبية الشرقية من بحيرة كونمينغ في القصر الصيفي؛ وهو بلا شك تصميم استثنائي في إبداعه.

الصنف الثاني هو البرك: يمكن للسطح المائي كبير الحجم أن يخلق شعوراً بالسعة والضخامة بكل تأكيد، ولكن السطح المائي الأكثر استخداماً في حدائق جيانغنان الخاصة هو البركة. فكما أسلفنا، إن هذه الحدائق لا تحتل إلا مساحات ضيقة لا تسمح بأكثر من ذلك. يمكن أن تمتد البركة على مساحة تكبر حتى تصل إلى بضع مو، كما يمكنها أن تصغر حيث لا تتجاوز مساحتها مساحة سجادة صغيرة. ومع أن البرك أصغر مساحة من البحيرات بكثير إلا أنها قد تتيح المجال أمام مصمم بارع كي يُبرز مشاهد متعددة حتى ضمن مساحة الحدائق الخاصة الضيقة، وقد استُخدم هذا الأسلوب كثيراً في تصميم المشاهد المائية ضمن الحديقة. مثلاً، في حديقة سيد الشبكات (الصورة 3-8) في سوتشو لا تزيد مساحة البركة عن عشرين متراً مربعاً، ولكن براعة التصميم تجعلها تبدو وكأنها أرض عجائب في تكاملها مع المشاهد من حولها؛ مثل الشرفة المتعرجة والمقصورة المشرفة على الماء حيث يندمج معهما انعكاس أشجار الصفصاف والدراق على سطح الماء.

في هذا الصنف من الحدائق، تقع البركة في مركز الحدائق وتحيط بها المباني؛ ليشكل الترتيب بكامله نظاماً يميل إلى مركزه ويشتمل على كل شيء. كثيراً ما



الصورة 3-8 حديقة سيد الشبكات في سوتشو (تصوير هوي يان)

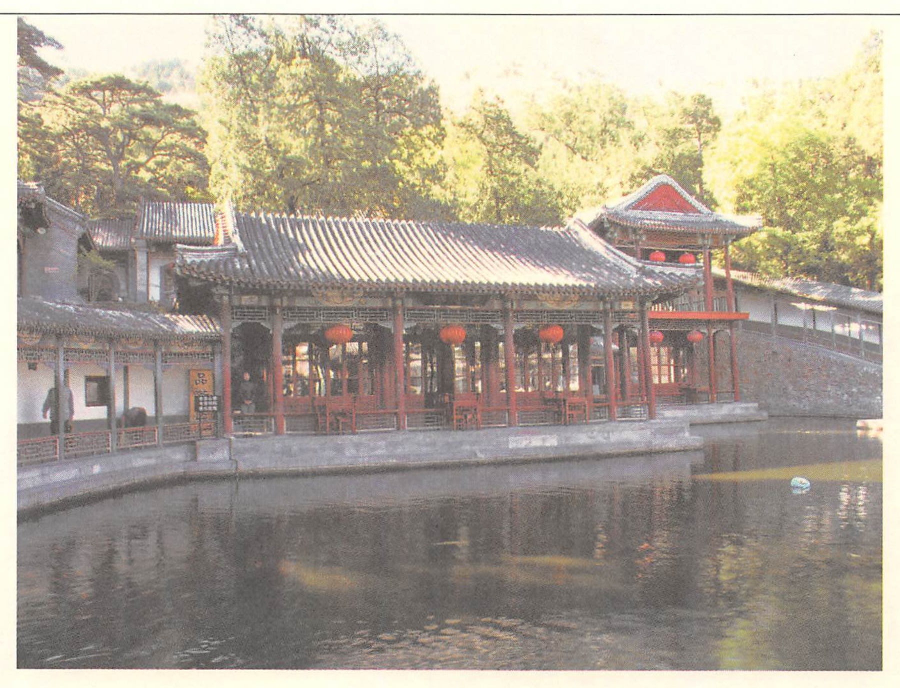
تمثّل حديقة سيد الشبكات العمل في الحدائق المتوسطة وصغيرة الحجم في جيانغنان، حيث تغطي الحديقة مساحة تبلغ 8 مو، وتشتهر ببنائها البديع وتناسُبِ مسافاتها المناسب الذي تحقق من خلال تصميمها الذكي وبنيتها المتراصة.

يستخدم هذا الترتيب في الحدائق الإمبراطورية شمال الصين. فعلى سبيل المثال، شُيِّدت بركة شبه دائرية وغير متناسقة المظهر بسبب تضاريس أرض الحديقة في استوديو القلب الساكن (الصورة 3-9) في حديقة التلة العبقة، حيث تتوازى ضفة البركة مع التضاريس المحلية، وتحيط بها شرفة مائية مستديرة الشكل. وهكذا، من خلال براعة التصميم، جمعت البركة بين الانسجام والمرونة. عادة، يبثُّ ترتيب



كهذا شعوراً بالاتساع الهائل ضمن مساحة محدودة، ولذلك هو مثالي للحدائق الأصغر حجماً.

أما بالنسبة إلى شكل البركة، فقد اتفق المصممون على أنه من الضروري تجنب الأشكال الهندسية المنتظمة قدر الإمكان، والاعتماد بدلاً منها على الأشكال غير المنتظمة. وكذلك على ضفة البركة أن تكون دائرية بالمبدأ، وأن تتضمن التواءات وتعرجات. ومن الأمثلة الجيدة على تطبيق مبادئ التصميم هذه حديقة إيواء المشاعر المتسعة، وحديقة سيد الشبكات، وحديقة طائر الكركي في سوتشو، وكذلك حديقة المصالح المتناغمة في القصر الصيفي.



الصورة 3-9 استوديو القلب الساكن في حديقة التلة العبقة (تصوير وانغ تشيونغ)

لقد تم بناء استوديو القلب الساكن في الفترة الممتدة بين 1522 و1566، ثم أعيد بناؤه في الفترة الممتدة بين 1796 و1820. كان هذا المكان الممتد على مساحة 6 مو في الأصل مكاناً خاصاً يوجّه فيه الإمبراطور الإنذارات إلى مسؤولي الدولة، وقد بُني بحسب أسلوب الحدائق الخاصة في جيانغنان؛ بمقصورة وشرفة وسطيحة ومصطبة على ضفة النهر؛ جميعها مصممة بإتقان وعناية.

أما آخر أصناف الأسطح المائية الساكنة فهو البركة المائية الضحلة: فكما قلنا، يصمّم البستانيون دائماً وسط الحديقة، حيث يحتوي على سطح مائي يكون مركز الحديقة. وعادة، يوجد سطح مائي آخر أو اثنان أصغر حجماً بجانب هذا السطح المركزي. غالباً ما تتخذ هذه الأسطح واحداً من بين خمسة أشكال أساسية: القلب، أو السحابة، أو الحرف الصيني الذي يرمز للماء، أو الماء المتدفق، أو القرع الطويل. وكثيراً ما تُستخدم هذه الأسطح المائية الصغيرة في الحدائق الخاصة في جيانغنان؛ مثل حديقة سيد الشبكات، وحديقة غابة الأسد، وحديقة التموجات القديمة (الصورة 3-10) في نانشيانغ، شانغهاي. في الأسطح المائية الأكبر حجماً، يستطيع البستانيون أن يزرعوا نباتات الزينة؛ مثل اللوتس والزنبق المائي وغيرها من النباتات المائية، وذلك كي تحاكي البركة مشهداً طبيعياً لبركة لوتس في غابة برية؛ لكن البرك الصغيرة لا يمكن فيها إلا تربية بعض أسماك الزينة. ويمكن أيضاً إثراء المشاهد



الصورة 3-10 بركة حديقة التموجات العتيقة في نانشيانغ، شانغهاي (تصوير هوانغ يوان)

تتصف حديقة التموجات العتيقة بأشجار الخيزران النحيلة والطويلة، وبمياهها الجارية المتعرجة الهادئة، ومبانيها الأنيقة، والقصائد ذات السحر الخالد المكتوبة فيها، وطرقاتها اللطيفة المرصوفة بالحجارة. يركز تصميم الحديقة البديع على مقدار بساطة الحديقة؛ إذ لم يتم تزيينها وحوفِظ على توازن مشاهدها الدقيق والمتراص.

المائية من خلال بناء برج صغير أو مقصورة قرب المياه لإضفاء المزيد من السحر والمتعة على هذه المشاهد.

النوع الآخر من الأسطح المائية الصغيرة هو النوع الديناميكي الذي يدعى: المياه المتدفقة؛ في إشارة إلى السطح المائي المتدفق على نطاق يشبه الحزام. ويمكن لهذا النهر المصغر أن يكون ضيقاً ومتعرجاً، حيث يتغير عرضه وتعاريج تياره؛ مما يُضفي شعوراً بالعمق. ولا شك في أن خرير المياه في هذا الصنف من الأسطح المائية مبهر للزائر. في الفقرات التالية، سنبيّن أكثر أنواع المياه المتدفقة استخداماً في الحدائق الصينية:

شلالات الينابيع: ونعني بالنبع المياه المتفجرة من تحت الأرض، أما الشلال فهو المياه المتساقطة من الجروف المسطحة. يكون مصدر المياه في الحديقة



الصورة 3-11 نبع باوتو في جينان (تصوير ليو جون)

في الواقع، نبع باوتو هو حديقة اشتهرت بالينابيع الموجودة فيها حتى سُمِّيت باسمها. وتصنّف كأفضل ينابيع جينان الشهيرة التي يبلغ عددها 72، بل وقد أطلق عليها البعض لقب: «النبع الأفضل تحت أديم السماء»، وهو أول نبع أشارت إليه السجلات التاريخية في منطقة جينان وتحول مع الزمن إلى رمز لجينان- مدينة الينابيع - وهو واحد من ثلاث مناطق ذات مشاهد استثنائية في المدينة. أما المنطقتان الأخريان فهما جبل تشيانغفو (جبل الألف بوذا) وبحيرة دامينغ (بحيرة السطوع العظيم).

الصينية دائماً واحداً من اثنين لا ثالث لهما: فهو إما أن يكون نبعاً طبيعياً كما هو الحال في نبع باوتو (الصورة 3-11) في جينان، وإما مصدر ماء اصطناعياً. يكون مصدر النبع عادة كهفاً صخرياً يبدو مظلماً وعميقاً تتفجر مياه النبع منه. أما الشلالات فتتخذ إما شكل خط متدفق، أو ستارة مائية، أو تدفقات منفصلة، أو نزول مستمر من حجر إلى آخر. ولتحقيق الأثر المطلوب، تتم مراكمة الحجارة حتى تصل إلى ارتفاع عالٍ، أما التربة في الأرض فتحفر لتشكل بركة صغيرة. حين تسيل مياه الشلال وترتطم بالحجارة في الأسفل وينتشر الرذاذ منها فسوف تصنع مزيجاً مميزاً من الأصوات والألوان المبهجة لمشاهديها.

الجداول الجبلية: الجدول الجبلي مشهد لمياه نبع جارية من أعلى جبل. يجري الجدول دائماً في مسار متعرج، حتى يظهر وكأنه ينبع من مصدر بعيد.



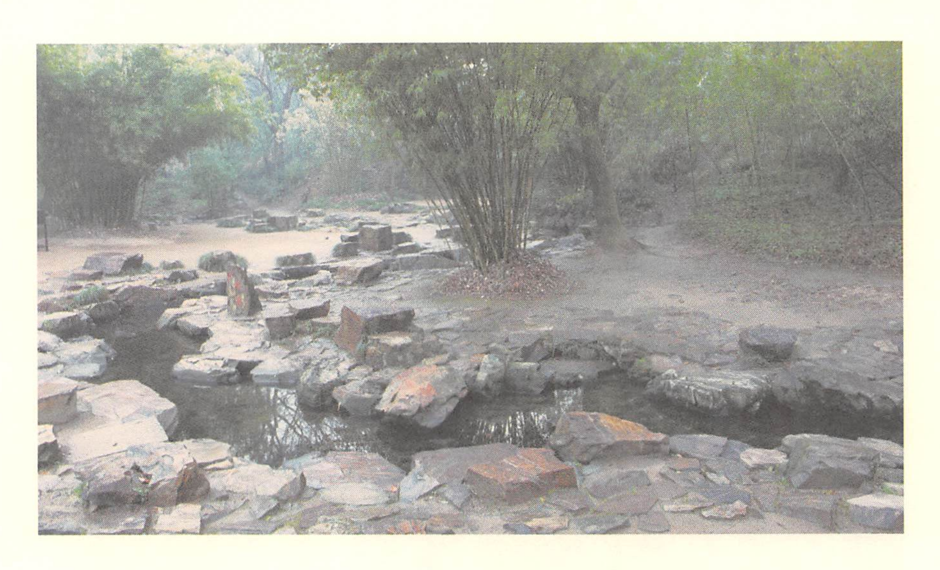
الصفحة 3-12 جزء من الجداول التسعة والمجاري المائية الثمانية عشر في هانغتشو (تصوير رِن تشيونغ)

تقع الجداول التسعة والمجاري المائية الثمانية عشر بين الجبال غرب البحيرة الغربية، وتبدأ من قرية لونغجينغ ومرتفع يانغمي، ثم تتعرج في طريقها وصولاً إلى نهر تشيانتانغ، حيث تتفرع إلى تسعة جداول. وبعد ذلك، تنضم هذه الجداول إلى مجاري مياه صغيرة لا تعد ولا تحصى، ولذلك سُمّي هذا المسار المائي: الجداول التسعة والمجاري الثمانية عشر.

وضفّتا الجدول مصنوعتان من حجارة مصفوفة بمحاذاة مساره؛ بهدف إظهار علاقة الاعتماد المتبادل بين الجبل والماء تحت ظلال الأشجار. ومن الأمثلة على هذه الجداول «الجداول التسعة، والمجاري الثمانية عشر» (الصورة 3-12) في هانغتشو.

في بعض الأحيان، توضع حجارة الشحذ القاسية على ضفة النهر عمداً، حيث تعترض مجرى النهر كي يصدر الجدول صوت خرير في مساره. ومن الأمثلة على ذلك، مجرى الأصوات الثمانية في حديقة إيواء المشاعر المتسعة في ووشي.

من أنواع الجداول الجبلية الأخرى الجدولُ متعرج المسار المشابه للحزام، مثل «جدول أوعية النبيذ الطافية» (الصورة 3-13) في مقصورة الزهور السحلبية في شاوشينغ، مقاطعة تشه جيانغ، حيث كان الأدباء يجلسون على طرفي الجدول ويضعون أوعية النبيذ في مجراه، وأي شخص كان أحد هذه الأواني يطفو أمامه كان عليه أن يأخذ جرعة من النبيذ منه؛ وهذه إحدى الألعاب التي كان القدامى يسلون أنفسهم بها.



الصورة 3-13 الجدول المتعرج لأوعية النبيذ الطافية في مقصورة الزهور السحلبية في شاوشينغ، تشه جيانغ (تصوير مينغ جيا لين)

جاء اسم «الجدول المتعرج لأوعية النبيذ الطافية» من اللعبة التالية: بعد أن تجري المياه في المسار المتعرج يوضع فيها إناء يحتوي على النبيذ، ويترك لتنقله المياه، وحين يقف بجانب شخص ما يتوجب على هذا الشخص أن يتناول جرعة منه، ثم يؤلف قصيدة حول الأمر كوسيلة من وسائل التسلية والترفيه.

ومن الأمثلة الأخرى على هذا النوع من الترفيه: «مقصورة الكوب الجاري» (الصورة 3-14) في مقر الإمبراطور المؤقت في معبد تانتشه في بكين، حيث حفر خندق متعرج في أرضية من الحجر يتدفق فيه جدول ماء صغير، فيصنع مشهداً جميلاً.

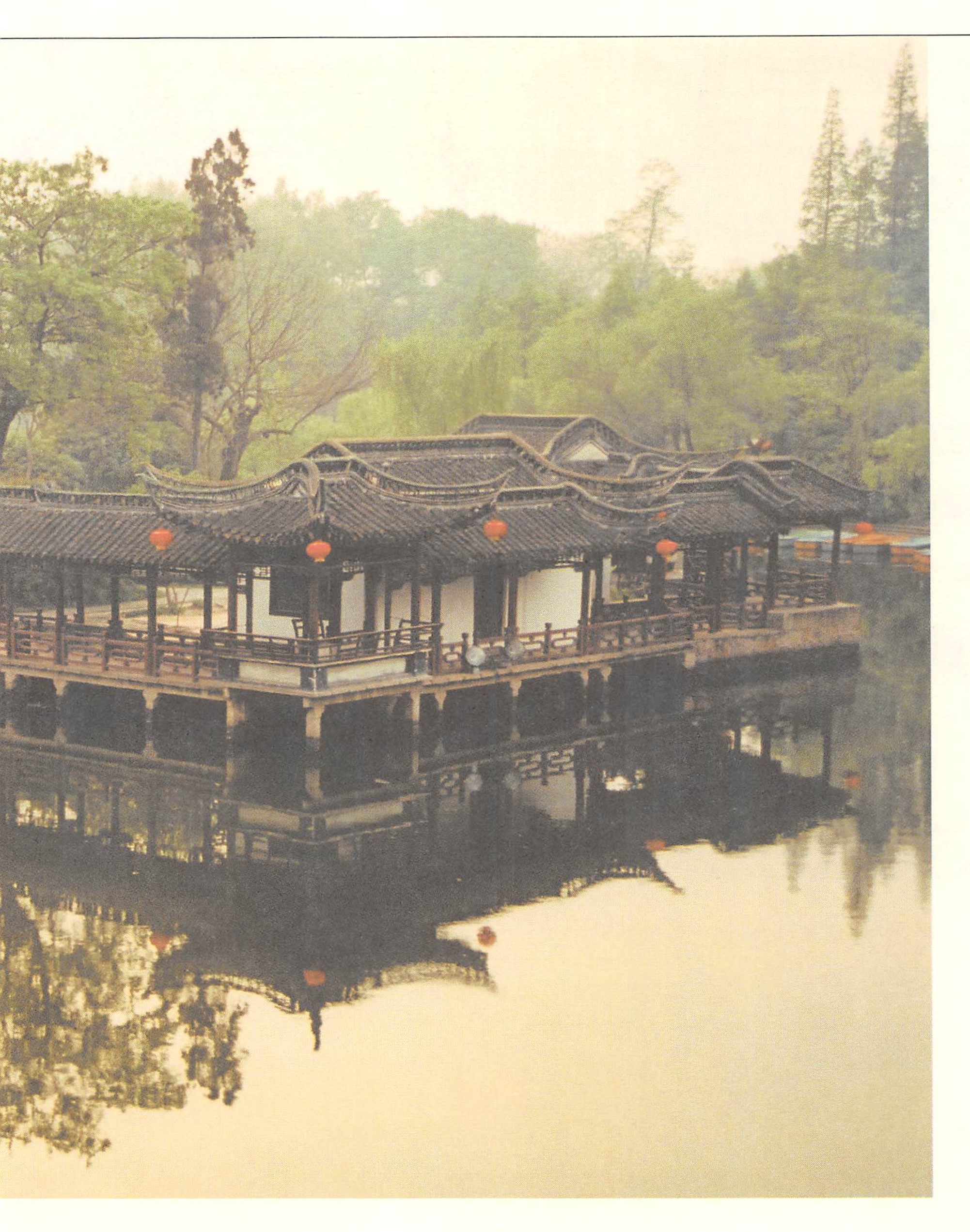
الأنهار: في الحدائق الصينية تعرض الأسطح المائية المشابهة للحزام في إحاطتها بالحديقة والتي تتدفق بتيارات لطيفة ضمن بركة ماء ضيقة لصنع مشاهد مائية مختلفة. يمكن للنهر أن يكون طويلاً أو قصيراً، مستقيماً أو ملتوياً، واسعاً أو ضيقاً، ذا تيارات لطيفة أو قوية. تزرع النباتات المناسبة على ضفاف النهر التي كثيراً ما تبنى باستخدام التراب. في بعض الأحيان تشيد هضبة اصطناعية في منتصف السطح المياه لتشكل «وادياً» بين الهضبة الاصطناعية والنهر وتبرز علو



الصورة 3-14 مقصورة الكوب الجاري في القصر الإمبراطوري المؤقت في معبد تانتشه في بكين (تصوير نيه مينغ)

لقد صُنعت أرضية المقصورة من الرخام الأبيض، وحفر في الحجر مسار متعرج يتبع نمطاً غريباً في شكله؛ إذ يبدو وكأنه رأس تنين حين ينظر إليه المتفرج من الجنوب، أو رأس نمر حين ينظر إليه المتفرج من الشمال. يدخل الماء المتدفق من فم رأس التنين الرخامي الواقع شرق المقصورة إلى المقصورة من خلال هذا المسار، ويلتوي حتى يتدفق خارجاً من الغرب.

الجبل وشدة انحداره لتصمع انطباعاً بالعمق العمودي والتدرج في المساحات. من الأمثلة على هذا الأسلوب البحيرة الخلفية في القصر الصيفي، والبركة الغربية النحيلة (الصورة 3-15) في يانغتشو.



الصورة 3-15 البحيرة الغربية النحيلة، يانغتشو (تصوير يانغ قوانغ يوتسي)

البحيرة الغربية النحيلة قصيرة العرض؛ حيث لا يتجاوز عرضها مئة متر، كما أنها طويلة أيضاً؛ إذ يبلغ طولها 4 كيلومترات، وقد كانت في الأصل ملتقى لعدة أنهر، ولكن عمليات إعادة تشكيل المنطقة أدخلت الكثير من المباني عليها بحسب تضاريسها الجغرافية، وبشكل يعبّر عن الفن الصيني. تبدو البحيرة الغربية النحيلة وكأنها لوحة فنية مرسومة، كما أنها تتصف بجمال طبيعي كذاك الذي تتميز به يانغتشو. وهي تعتبر من أجمل المناطق ذات المناظر الخلابة في الصين.

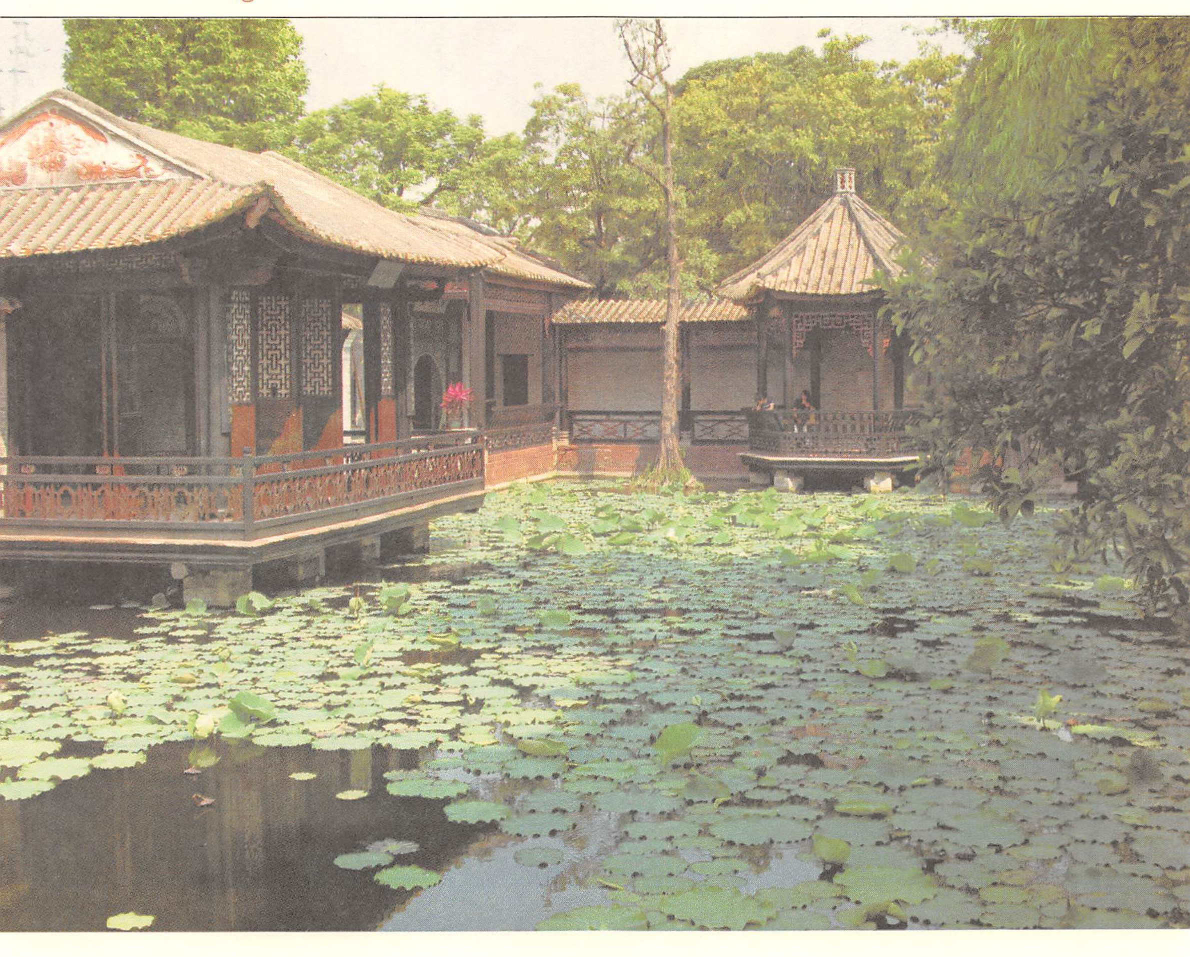


المباني

تختلف مباني الحدائق عن المباني العادية، وتشكل جزءاً من الحدائق في غاية الأهمية. يمكننا أن نجد أعداداً مختلفة من المباني في أي حديقة سواء أكانت إمبراطورية أو خاصة أو حديقة معبد. وبغض النظر عن كونها مؤلفة من مشاهد طبيعية أو اصطناعية، يمكننا أن نجد في جميع الحدائق تقريباً مشاهد جبلية ومشاهد مائية ومباني منظمة بهدف الترفيه عن أصحاب الحديقة، أو تزيين الحديقة وزيادة جمالها، وتحقيق أثر فني يتكامل مع جاذبية المشاهد الطبيعية فيها. وبالإضافة إلى تلبية المباني احتياجات الزوار العملية، وتقديمها لهم المأوى من أشعة الشمس الحارقة في فصل الصيف والأمطار العارمة في فصل الشتاء، فإنها عادة تشيَّد قرب تلال الحديقة ومياهها، ووسط نباتاتها وحيواناتها؛ وذلك لتكون جزءاً لا يتجزأ من محيطها الخلاب (الصورة 3-16). كجزء من الكل، يلعب أحد المباني دائماً دور المركز لأحد مشاهد الحديقة. وفي بعض الأحيان، يكون المبنى هو مركز الحديقة برمتها. ومن العبارات المستخدمة في الصين للتعبير عن هذا الأمر تشبيه المبنى بالعين في وجه الإنسان، أي أن المباني في الحقيقة هي روح الحديقة الصينية.

تتخذ المباني في الحدائق الصينية أشكالاً مختلفة، أهمها القاعة (تينغ أو تانغ بالصينية)، والمباني ذات الطوابق المتعددة، والمقصورات ذات الطوابق المتعددة، والمنزل (قوان) والاستوديو، وبيت العزلة، والمقصورة المجاورة للماء، والقوارب، والمقصورات الاعتيادية، والشرفات، والجسور، والجدران، والباغودا وغيرها، وسوف نناقش مجموعة منها في الفقرات التالية تباعاً:

القاعة (من نوع تينغ): يكون هذا المبنى عادة المبنى الرئيس، ومركز تنظيم الحديقة برمتها، ويتميز بسقفه العالي ومساحاته الكبيرة وزينته المنمقة وأثاثه الفاخر. تستخدم القاعة عادة للترحيب بالزوار، وإقامة الولائم، والاستمتاع بمشاهدة النباتات أو مسرحيات صينية مصغرة النطاق. عادة، تحتوي هذه القاعات على نوافذ وأبواب في جانبيها الأمامي والخلفي، وبعضها يحتوي على أبواب ونوافذ من جميع الجوانب لتكشف للزوار عن مشاهد الحديقة المحيطة بالقاعة من جميع



الصورة 3-16 مقصورة التموجات الصافية في المقصورة السداسية في شونده، قوانغ دونغ (تصوير فينغ شياو لي)

يتكامل في هذه المقصورة طراز البناء الذي تتميز به لينغنان مع زهور اللوتس وبركة المياه. لقد اشتهرت هذه الحديقة بأنها تجسّد بشكل كامل مبادئ بناء الباحات في حدائق لينغنان، والتي تتميز بحسن المظهر والبساطة وتجنب الزينة. تندمج في المقصورة التي تضم شرفة وبرجاً المياه الزرقاء مع الأشجار الخضراء والنوافذ المشبكة والهضاب الحجرية والجسور الصغيرة والشرفات المتعرجة لتجعل الحديقة تبدو أنيقة وبهيجة.

الجهات فيستمتعون بها، ويسمى هذا الصنف من القاعات: «القاعة ذات الجوانب الأربعة»، ومن الأمثلة عليها: قاعة الأريج البعيد في حديقة الحاكم المتواضع في سوتش؛، حيث تقع القاعة جنوب بركة المياه المركزية، وتحتوي على أبواب نافذة في كل جانب من جوانبها الأربعة. وفي مساحة مفتوحة وواسعة كهذه، يستطيع الزوار أن يسترخوا وهم يستمتعون بالمشاهد التي تتكشف أمامهم من كل جانب.



الصورة 3-17 صورة من الداخل لقاعة تباشير الربيع في حديقة يويان، شانغهاي (تصوير تشن دونغ دونغ)

تعكس الدعامات المنقوشة والعارضات المرسومة في القاعة براعة الفنانين الذين زينوها لتترك انطباعاً بالبساطة وسعة المساحة. يحمل اللوح الأفقي الضخم في القاعة نقوشاً ذهبية استخدمت لرسمها ضربات قوية بالريشة جمعت بين القسوة في قوتها والليونة في جمالها. وتعزز الأعمدة الملمعة بسائل الفرميل، ومجموعات الأقواس والركائز المثبتة في الجدران انطباع الزوار ببهاء المبنى وسطوته.

القاعة (من نوع تانغ): تقع القاعات من هذا الصنف عادة في محور المباني المركزي، وتبنى بحسب قواعد دقيقة وصارمة تحدد حجم القاعة وشكلها وأسلوب بنائها، كما يتم فرشها بأثاث رائع ومترف. تقع القاعات من هذا النوع ضمن باحات مغلقة، ويفتح الباب والنوافذ في جانبها الأمامي فقط. تختلف وظائف هذه القاعات إجمالاً، فقاعة العمر الطويل السعيد مثلاً كانت المكان الذي تلتقي فيه الإمبراطورة الأرملة تسي شي مسؤولي الدولة لمناقشة شؤون الحكم، أما قاعة الشُرابات الثلاث

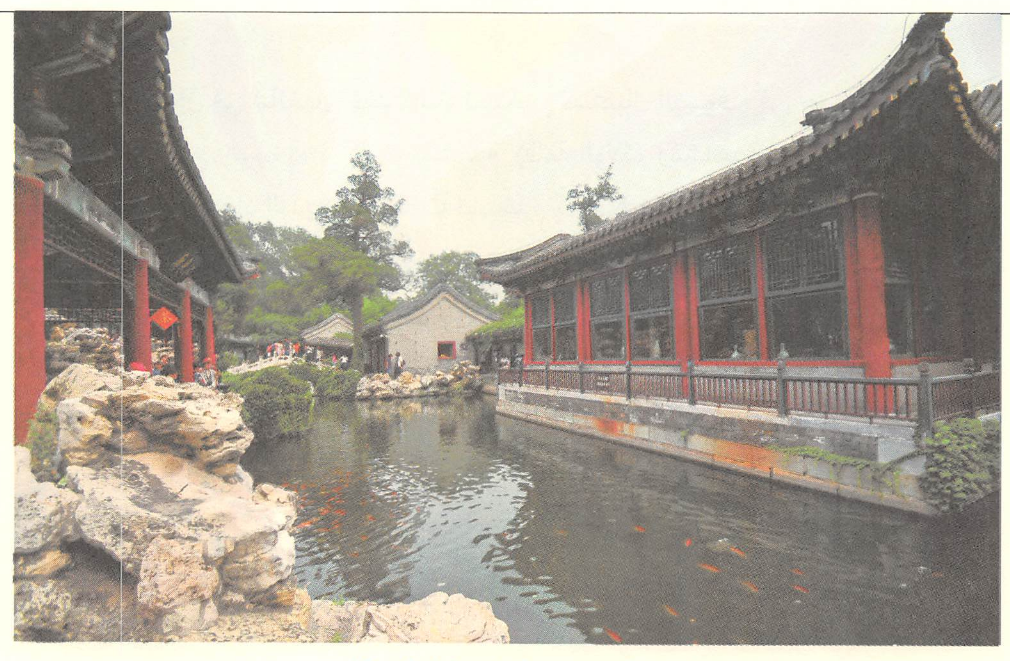
في حديقة يويوان في شانغهاي فقد كانت تستخدم لاستقبال الضيوف، في حين أن قاعة تباشير الربيع (الصورة 3-17) كانت تُستخدَم لإقامة الولائم ومشاهدة أداء الأوبرا الصينية، أما قاعة الجاد البديع فقد كانت تستخدم كحجرة دراسة.

المبنى ذو الطوابق: نعني بالمبنى ذي الطوابق المنزل المؤلَّف من أكثر من طابقين. وهو يقع عادة خلف القاعة، ويستخدم كمنامة أو كمكان للدراسة أو كمكان مطل يستمتع به الناس بمناظر الحديقة. تكون المباني من هذا الصنف طويلة عادة، وتعتبر جزءاً هاماً من مناظر الحديقة.

المقصورة ذات الطوابق: إذا قورنت المقصورة ذات الطوابق بالمبنى ذي الطوابق فستكون أصغر حجماً منه وأبدع جمالاً وأكثر انفتاحاً. تتألف المقصورة عادة من مبنى مربع أو متعدد الأضلاع يمتد طوله إلى طابقين، ويحتوي على نوافذ من جميع جهاته، وهو يستخدم غالباً في تخزين الكتب أو كمكان لاستقبال الزوار كي يستمتعوا بالمناظر ويرتاحوا أثناء تناول الشاي، أو كمكان للحفاظ على تماثيل عملاقة لبوذا.

المنزل (قوان): تبنى المنازل بأحجام مختلفة، وهي تستخدم عادة للترفيه عن الزوار، وتختلف بعض الشيء عن القاعات. تلعب البيوت ضخمة الحجم مثل قاعة القمم الخمس السماوية في حديقة التريث دور القاعة الرئيسة. وفي أحيان أخرى، يكون المنزل – أو القوان باللغة الصينية - مجرد مبنى تزييني صغير الحجم لا يلعب إلا دوراً ثانوياً كما هو الحال في مقصورة النسيم المنعش في حديقة التريث.

الاستوديو: يكون هذا النوع من المباني عادة غرفةً صغيرةً مبنيةً على مكان مرتفع، أو شرفة طويلة تحتوي على نوافذ. ولكن في الكثير من الحدائق، قد لا يكون الاستوديو مشيداً في مكان مرتفع، بل في مجرد موقع من الحديقة يتيح للجالس فيه الاستمتاع بجمال البيئة حوله؛ كما هو الحال في «استوديو مشاهدة الصنوبر وتقدير جمال الرسوم» في حديقة سيد الشبكات، ومقصورة الاستماع إلى المطر في حديقة الحاكم المتواضع. ومع أن الاستوديو ليس المبنى الرئيس في الحديقة، إلا أنه مبنى تزييني يهدف إلى الزيادة من بهائها ورونقها، ولذلك يجب



الصورة 3-18 غرفة القلب الساكن، حديقة بيهاي العامي، بكين (الصورة تقدمة من آكو)

تقع غرفة القلب الساكن في الضفة الشمالية الغربية من حديقة بيهاي العامة، وهي أكبر «حديقة ضمن الحديقة» في بيهاي. أنشئت الحديقة سنة 1755، وكانت في الأصل تدعى: «الحديقة الصافية كالمرآة»، وقد كانت مكاناً لدراسة ابن الإمبراطور الأكبر. ومع اقتراب نهاية عهد سلالة تشينغ وسّعت الإمبراطورة الأرملة تسي شي الحديقة وجدّدتها على نطاق أوسع، وأعيدت تسميتها إلى «حديقة القلب الساكن» سنة 1913.

أن يحتوي على جانب من الجاذبية، كما يمكن في أحيان أخرى أن يلعب دور المبنى الموصل إلى مشاهدة مناظر معينة من الحديقة. ومن الأمثلة على هذا الصنف من المباني «الخيزران خارج الفيلا» في حديقة سيد الشبكات، وهو مبنى يحمل سحره الخاص والجذاب، واستوديو «مع من سأجلس» في حديقة الحاكم المتواضع؛ وهو مبنى على شكل مروحة يطل على مشاهد بديعة وفريدة.

منزل العزلة: يبنى في منطقة منعزلة من الحديقة، في أبعد مكان ممكن عن المسارات السياحية فيها؛ لكي يكون بيتاً للدراسة والتأمل. يبدو منزل العزلة بسيطاً من الناحية المعمارية، وكثيراً ما يقع في باحة صغيرة تحيط بها أشجار المظلة الصينية والبلانتين وغيرها، حيث تصنع هذه الأشجار وارفة الظلال جوّاً من السكينة وشعوراً بالبساطة. فعلى سبيل المثال، تعتبر غرفة القلب الساكن (الصورة 3-18) أفضل الحدائق الصغيرة المُصانة في حديقة بيهاي العامة، كما أنها أجمل تلك الحدائق،



الصورة 3-19 مقصورة غسل شريطة القلنسوة في حديقة سيد الشبكات في سوتشو (تصوير هوي يان)

أعطيت المقصورة هذا الاسم تيمناً ببيت الشعر القائل: «إذا كانت مياه نهر تسانغلانغ نظيفة فسوف تغسل الشريطة على أي قلنسوة»، وهو بيت شعر من كتاب «أغاني تشو» الذي كثيراً ما يتغنى بالعزلة وأهميتها للاحتفاظ بسمو شخصية الإنسان.

وأشدها هدوءاً وسكينة. وقد كانت في أحد الأيام معتكف الإمبراطور تشيان لونغ، ولذلك سميت: «حديقة تشيان لونغ الصغيرة».

المقصورة المجاورة للماء: كما هو واضح، سُمِّيت هذه المقصورات بهذا الاسم لأنها مبنية بجوار الماء، وهي تتخذ عادة شكل منصة ذات حواجز منخفضة. يقوم فوقها مبنى سقفه متعدد الميول وذو نتوءات مستديرة وإفريز منخفض. وتستخدم المقصورة المجاورة للماء عادة للاستمتاع بالمشاهد المائية والاستراحة. وهي تُصمَّم حيث تكون صغيرة الحجم وبديعة الجمال ومفتوحة من جميع الجهات، وتقع في أغلب الأحيان في الضفة الجنوبية من الماء. على سبيل المثال، مقصورة غسل شريطة القلنسوة (الصورة 3-19) في حديقة سيد الشبكات ومرسى عبق اللوتس (الصورة 3-20) في حديقة يي يوان في سوتشو كلاهما يواجهان الشمال، وسبب ذلك أن زوار مثل هذين المبنيين إذا واجهوا الجهة الشمالية فلن يتعرضوا لأشعة الشمس

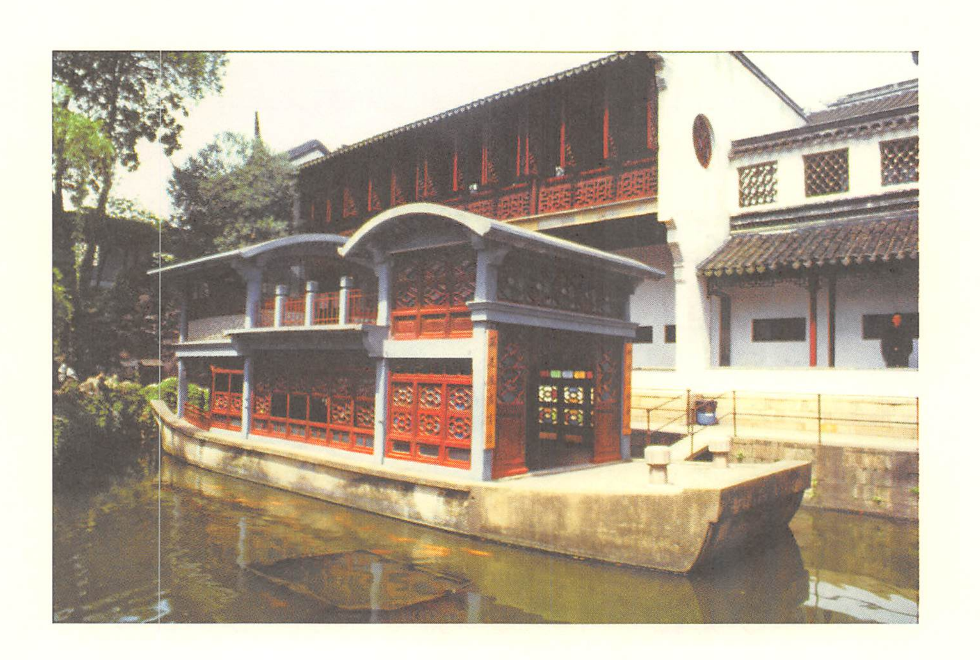


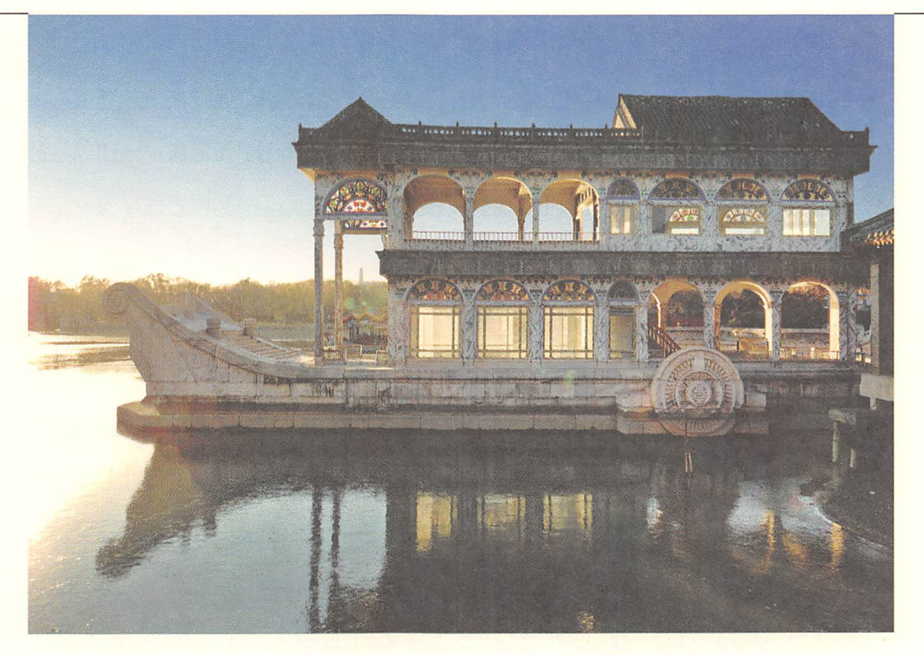
(الأعلى) الصورة 3-20 مرسى عبق اللوتس في حديقة يويوان في سوتشو (تصوير شو مي)

مرسى عبق اللوتس هو القاعة الرئيسة في حديقة يويوان، حيث تنفتح الغرف المزدوجة فيه على الجوانب الأربعة، ويواجه البركة من الناحية الشمالية والباحة من الناحية الجنوبية. تجد على يمينه مياهاً متدفقة مع جسر مبني فوقها، كما تجد على جانبَي المرسى مقصورات واستوديوهات وكهوف، حيث تقود الطرق الممتدة من المرسى إلى كل بقعة جميلة في الحديقة.

(الأسفل) الصورة 3-21 قارب رخامي في حديقة غابة الأسود، سوتشو (تصوير نيه مينغ)

لقد صُمِّم هذا المبنى ليحاكي قارباً حجرياً، حيث توجد كابينة ذات طابقين في آخره، ويقود الطابق الأعلى إلى منصة يستطيع الزوار أن يستمتعوا منها بالمشاهد البعيدة. ومع أن المبنى يبدو وكأنه قارب بالفعل، إلا أنه مبني ليشير إلى رمز القارب كما يفهمه البوذيون؛ أي الإشارة إلى خلاص جميع الموجودات.





الصورة 3-22 القارب الرخامي في القصر الصيفي (تصوير تيك توك 901)

يقع القارب الرخامي على الجهة الغربية من هضبة العمر الطويل في القصر الصيفي، وقد أنشئ في الأصل سنة 1755 حيث نُحِت من صخرة عملاقة، وبلغ طوله 36 متراً. حين غزت القوات البريطانية - الفرنسية المتحالفة بكين، تعرضت الكابينة صينية الطراز للتدمير، لكن الإمبراطورة الأرملة تسي شي أعادت بناءها سنة 1893، ولكن بطراز بناء غربي هذه المرة؛ حيث أعيدت تسمية القارب وصار يدعى: «القارب الصافي المسالم».

مباشرة، بينما إذا كان المبنى يقع في الشمال ويواجه الجنوب فسوف يخطف شعاع الشمس أبصارهم ويعكر صفو استمتاعهم بالمشاهد الطبيعية.

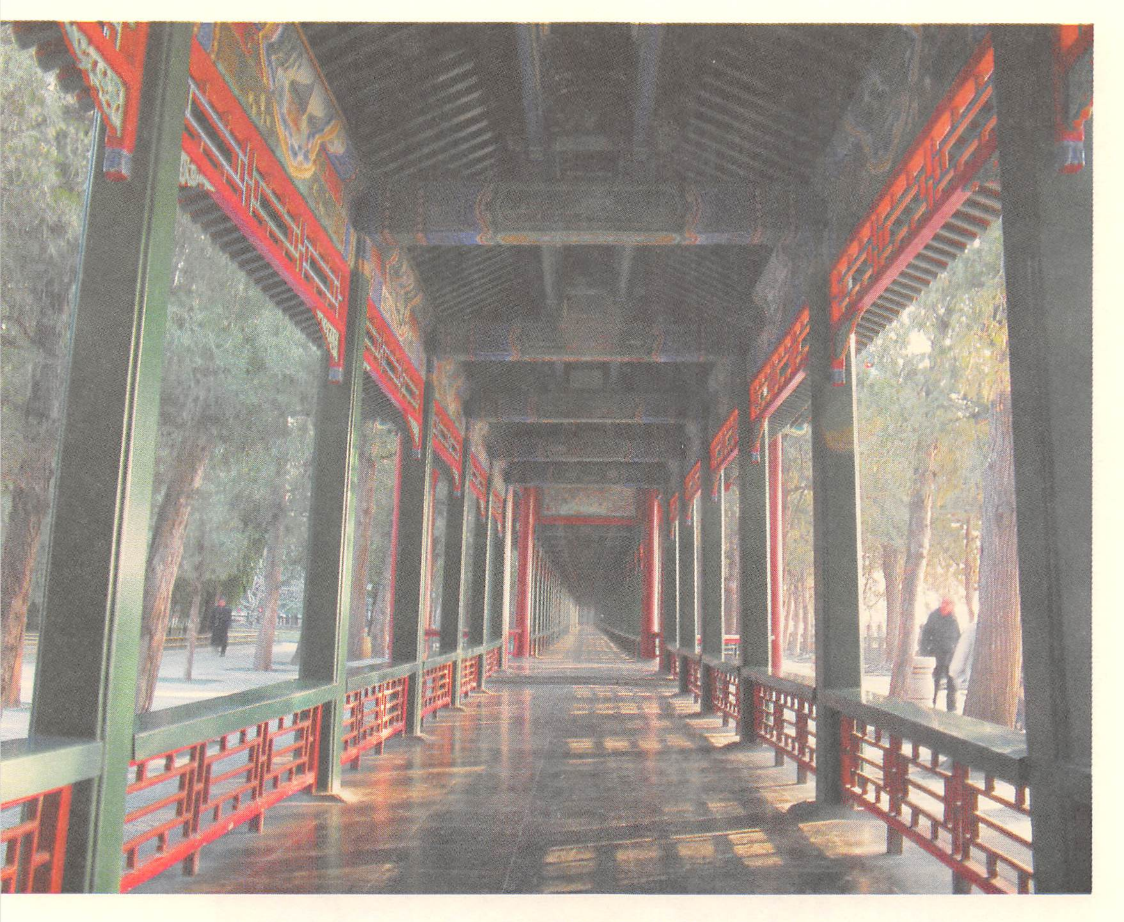
القارب: يدعى كذلك في إشارة إلى المبنى المشابه للقارب بجانب المياه أو حتى داخلها. ينقسم القارب إلى ثلاثة أقسام: الكابينة الأمامية وهي عالية نسبياً، والكابينة المتوسطة وهي منخفضة نسبياً، والكابينة الخلفية وعادة ما تتخذ طابع منزل ذي طابقين، ويتسلقه الناس كي يتمكنوا من النظر إلى المسافات البعيدة. للقارب أهمية خاصة في الحدائق الصينية، فهو يشير إلى أن صاحب الحديقة يفضِّل العيش منعزلاً، ولا نية لديه بأن يبدي أي اهتمام بالسياسة. كما يحمل القارب معاني مختلفة في أماكن ومناسبات مختلفة. ففي حديقة غابة الأسد في سوتشو، يعني القارب «خلاص جميع الموجودات» (الصورة 3-21) وذلك لأن هذه الحديقة هي الحديقة الخلفية لمعبد بوذي، ولا بد لقيم ذلك الدين أن تنعكس

عليها. كذلك كان لدى الصينيين القدامى قول هو: «إن الماء الذي يحمل القارب هو نفسه الذي يقلبه»، ولذا بُنِي القارب الرخامي في القصر الصيفي (الصورة 3-22) حيث لا ينقلب أبداً، ويحمل هذا مغزى سياسياً يرمز إلى سلطة الدولة التي لا يمكن قلبها أبداً.

المقصورة: يمكننا رؤية المقصورات في الكثير من الحدائق الصينية، وهي عبارة عن مبنى ذي سقف تحمله أعمدة ولكن لا توجد فيه جدران. وهو مكان لراحة الناس واستمتاعهم بالمشاهد المفتوحة حولهم، حيث يُبنى عادة في مواقع تبرز لهم أجمل مشاهد الحديقة. من الأمثلة على هذا الصنف من المباني مقصورة نسمات اللوتس في بركة الماء في حديقة الحاكم المتواضع، حيث تحيط مساحة مائية كبيرة بالمقصورة وتجعل منها مركزاً لمشهد ساحر. أما مقصورة تسانغلانغ القابعة على أعلى هضبة اصطناعية فتشكل مركز الحديقة برمتها بمظهرها اللافت.

الشرفة: وهي الممر المستقل المغطى بسقف والذي تحيط به الحواجز في بعض الأحيان. الشرفات كثيرة الاستخدام في الحدائق الصينية لأنها تحجب المطر والثلج عن الناس، كما تمنع أشعة الشمس الحارقة من مضايقتهم، وتُستخدَم «الشرفات المتنقلة» في بعض الأحيان لتحقيق هذه الغاية في الحدائق. أشهر شرفات الصين هي «الممر الطويل» (الصورة 3-23) في القصر الصيفي، ويبلغ طول هذه الشرفة أو الممر 728 متراً، ويحتوي على 273 غرفة؛ حيث يستمتع الناس في كل منها بمشهد طبيعي خلاب يسحر الأعين أول مرة. في سنة 1990، صُنِّف الممر الطويل كأطول ممر تزينه الرسوم في العالم، وذلك نتيجة شكله الفريد وتنوع الرسوم الموجودة فيه.

الجسر: كما أسلفنا، إن الأسطح المائية هي شريان الحديقة الحيوي. ولذلك، إن بناء جسور تربط بين ضفاف الحدائق وتضفي المزيد من الجمال على مناظرها أمر لا مناص منه. تصنع الجسور من الحجارة أو الخيزران أو الخشب، وأشكالها غريبة وأنيقة؛ فتبدو الجسور المقوسة ديناميكية بخطوطها المنثنية، أما جسور المقصورات والشرفات فتختلف في أشكالها وتوفّر للناس الملجأ والمأوى من انهمار المطر واشتداد حرارة أشعة الشمس. يقع جسر حزام الجاد (الصورة 3-24) الشهير

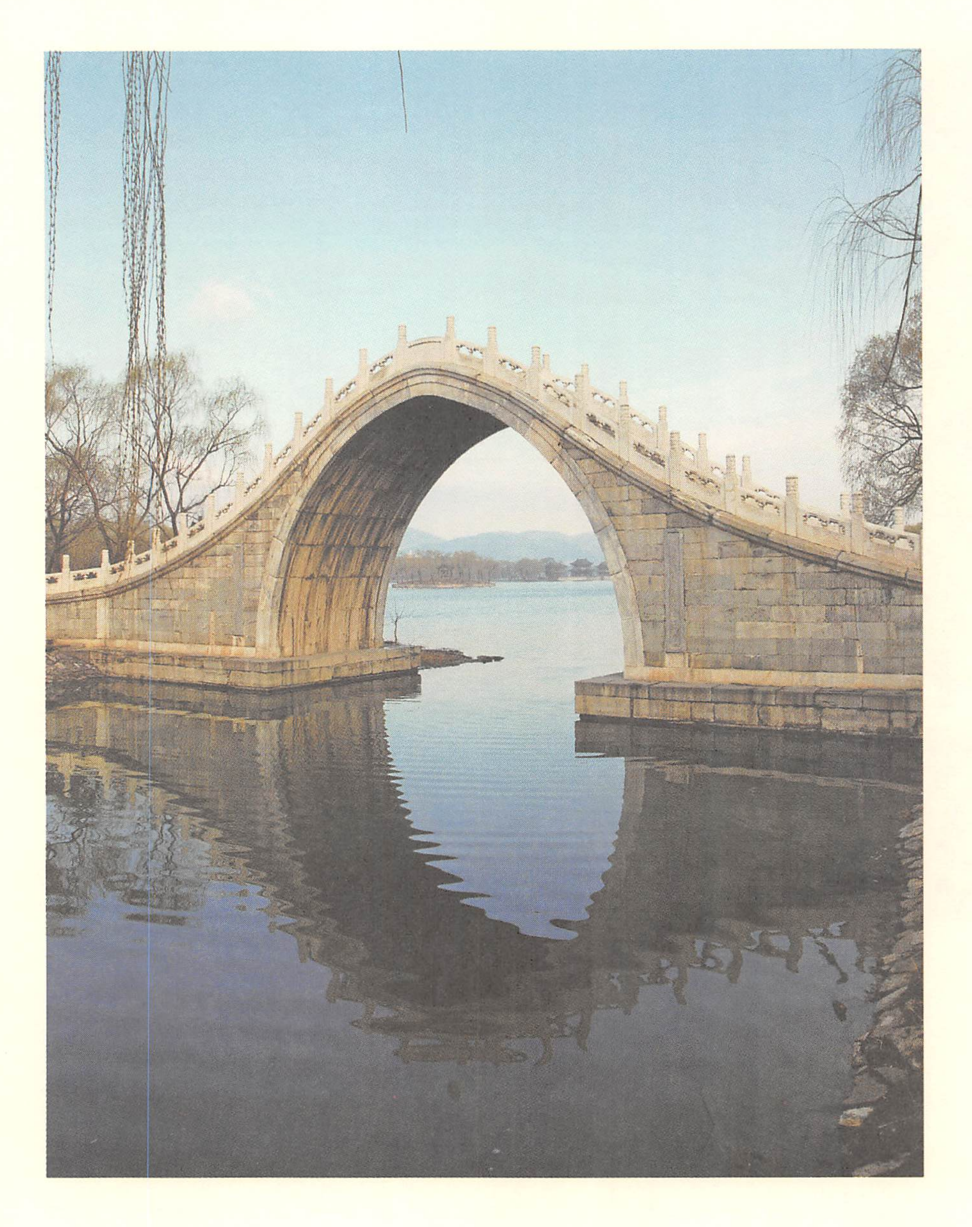


الصورة 3-23 الممر الطويل في القصر الصيفي (تصوير وانغ يوان)

يُصنَّف هذا الممر على أنه شرفة، ويحتوي على 273 غرفة، كما يبلغ إجمالي طوله حوالي 728 متراً، وتوجد رسوم على كل عارضة خشبية فيه، ويبلغ مجموعها أكثر من 14,000 عارضة جميعها مغطاة برسوم رائعة ذات ألوان جميلة ومتناسقة. في سنة 1990، صُنِّف هذا الممر كأطول ممر يحتوي على رسوم في العالم في كتاب غينيس للأرقام القياسية.

في الطريق الفرعي الغربي من بحيرة كونمينغ في القصر الصيفي، وقد شُيِّد هيكله شديد التقوس والمزين بالحواجز من حجارة الرخام الأبيض المائل إلى الاخضرار. وتجعل خطوط الجسر المتعرجة واللون الأبيض المستخدم في بنائه الجسر يبدو وكأنه حزام مصنوع من مادة الجاد، ولذلك أطلق عليه هذا الاسم.

الجدار: جميع الحدائق الصينية محاطة بالجدران التي تبنى على أساس خصائص صينية تميزها عن غيرها، ومن الأمثلة على ذلك جدار التنين (الصورة 3-25)



الصورة 3-24 برج حزام الجاد في الطريق الفرعي الغربي من بحيرة كونمينغ في القصر الصيفي (تقدمة من آكو)

سُمّي الجسر على اسم الشكل الذي يشبهه، وقد شُيّد أثناء عهد الإمبراطور تشيان لونغ في حقبة سلالة تشينغ، ويعود تاريخه إلى قرنين من الزمن. يقال إن الإمبراطور تشيان لونغ كان يعبر هذا الجسر أثناء كل جولة كان يقوم بها إلى الجبل الغربي، وذلك لأنه من الممكن الوصول إلى الجسر من أي جهة من جهات الحديقة، كما أن منظره بديع وأنيق. ولا تزال النقوش التي حفرها الإمبراطور تشيان لونغ موجودة قمة الجسر.

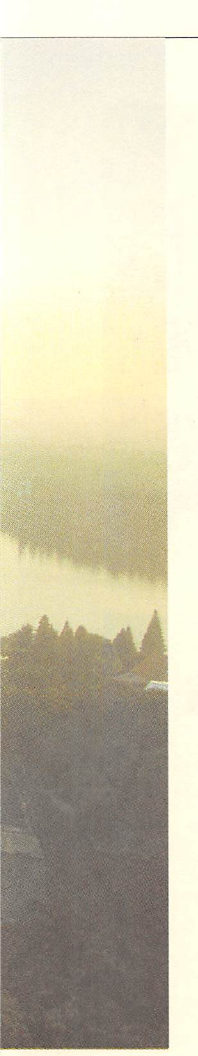


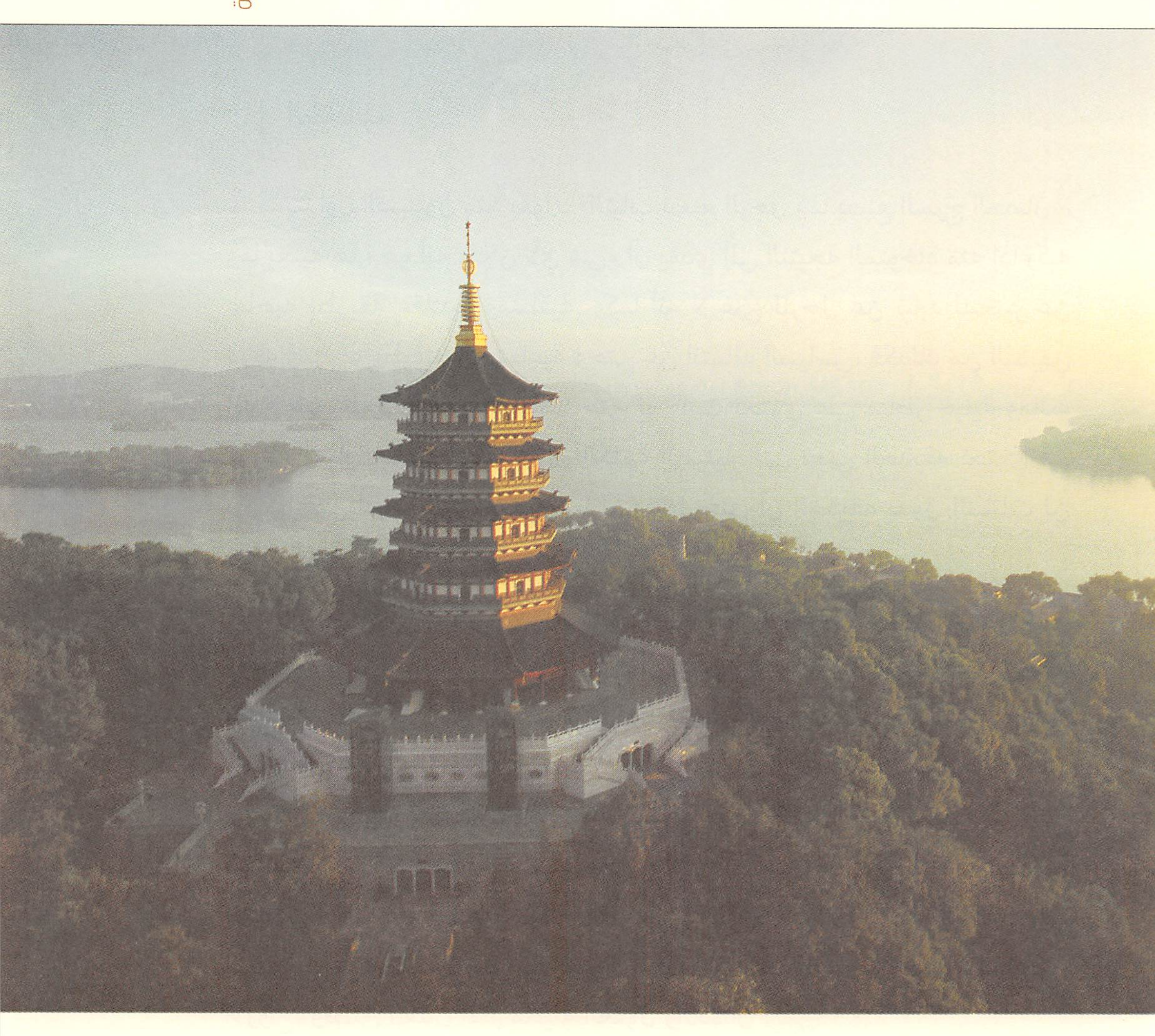
الصورة 3-25 جدار التنين في حديقة يويان، شانغهاي (تصوير نيه مينغ)

يعتلي تمثال منحوت لرأس تنين جدار السياج في حديقة يويوان. وقد نحت الرأس بدقة بما في ذلك حراشف التنين المصنوعة من الآجر، والتي ترمز إلى بقية جسد المخلوق الأسطوري. يبدو أعلى الجدار متموج الشكل، وكأنه صورة حية لظهر تنين. ويقسِم الجدار الحديقة التي تبلغ مساحتها أكثر من 30 مو إلى أكثر من بقعة تتمتع كل منها بمظاهر خاصة بها، ويُستخدَم لحجب كل بقعة عن الأخرى مُظهِراً أبعاد الحديقة الغنية، ومشكّلاً طابعاً خاصاً تتفرد به حديقة يويوان.

المائل والمتعرج في حديقة يويوان في شانغهاي، ويبدو الجدار وكأنه تنين يحيط بالحديقة، ولا شك في أنه قطعة فنية مثيرة للإعجاب.

الباغودا: تلعب الباغودا دوراً في غاية الأهمية في مناظر الحدائق الصينية، وخاصة تلك الموجودة في المعابد. الباغودا في الأصل من الأشكال المهمة للمباني البوذية، وكثيراً ما تستخدم في مشاهد الحدائق لإغناء تركيبة الحديقة المساحية وتزيين مواقعها، وتشتهر بعلوها الشاهق وصورتها المهيبة. تشمل أشهر مباني الباغودا في الحدائق باغودا الإوزة البرية العملاقة (الصورة 3-26) في شيآن، وباغودا لي فينغ (الصورة 3-27) في هانغتشو، وباغودا تلة النمر في سوتشو.





(اليمين) الصورة 3-26 باغودا الإوزة البرية العملاقة في معبد تسي إن في شيآن (تصوير وانغ فين جيوان)

يقف هذا المبنى على منصة حجرية مربعة الشكل يبلغ طولها 48.5 م وعرضها 42.5 م وارتفاعها 4.2 م، ويبدو بارتفاعه الشاهق البالغ 64.517 م وكأنه هرم مربع. يبلغ طول كل جانب من جوانب المبنى 25 م، وقد شُيِّد على نطاق ضخم باستخدام تصميم مهيب وغير معقد يستخدم شكلاً هندسياً بسيطاً ولكنه مستقر، وأبعاداً متناسبة ومتسقة بين أجزائه المختلفة. ولا شك في أنه من تحف عهد سلالة تانغ المعمارية.

الصورة 3-27 باغودا لي فينغ في البحيرة الغربية، هانغتشو (تصوير شيه قوانغ هوي)

لقد انهار مبنى باغودا لي فينغ القديم إثر حريق سنة 1924 قبل أن يعاد بناؤه على موقع الباغودا الأصلي سنة 2002، حيث حوفظ فيه على شكل المقصورة الأصلية متعددة الطوابق. وقد تم بناء المقصورة الجديدة لتشبه نظيرتها القديمة تماماً في أسلوب بنائها وتصميمها ومواصفاتها. أما المقصورة الأصلية فقد تم بناؤها أثناء حقبة سلالة سونغ الجنوبية. وبالإضافة إلى كون المبنى الجديد تقليد تام للقديم، فهو يؤمن الحماية للآثار التاريخية على موقع الباغودا القديم. يبلغ إجمالي طول الباغودا 71.679 متراً.

النباتات

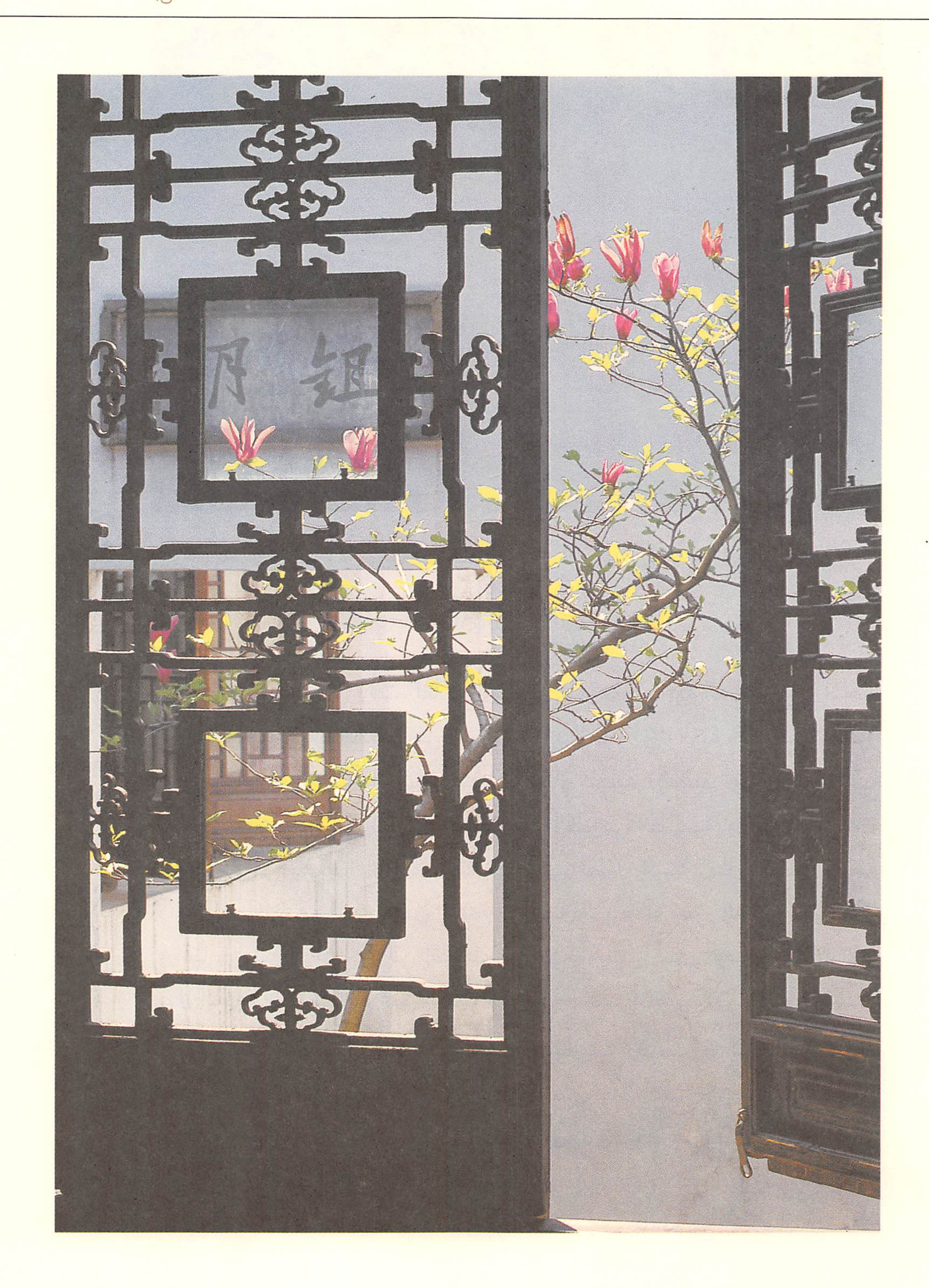
يتداول الصينيون مثلاً يقول: «الثياب تصنع الرجل كما يصنع السرج الحصان»، وما يعنيه هذا هو أنه يمكن لأي شيء أن يؤدّي إلى النتيجة المتوخاة منه إذا ركّبه صاحبه بطريقة عقلانية ومنطقية. وكما أنه لا غنى للرجل عن ثيابه للتعبير عن ذوقه ومزاجه وطبقته الاجتماعية وحتى عن انتمائه السياسي، فكذلك من البديهي أنه لا غنى للحديقة عن النباتات؛ حتى لو كانت تحتوي على مناظر جبلية ومائية جميلة ومبانٍ جميلة أيضاً. بل إن الكلمة الصينية التي تعني الحديقة تحتوي في تركيبها على الجذر الذي يعني النباتات؛ مما يعني أن الحديقة بدون النباتات لن تكون إلا مجرد مساحة ميتة.

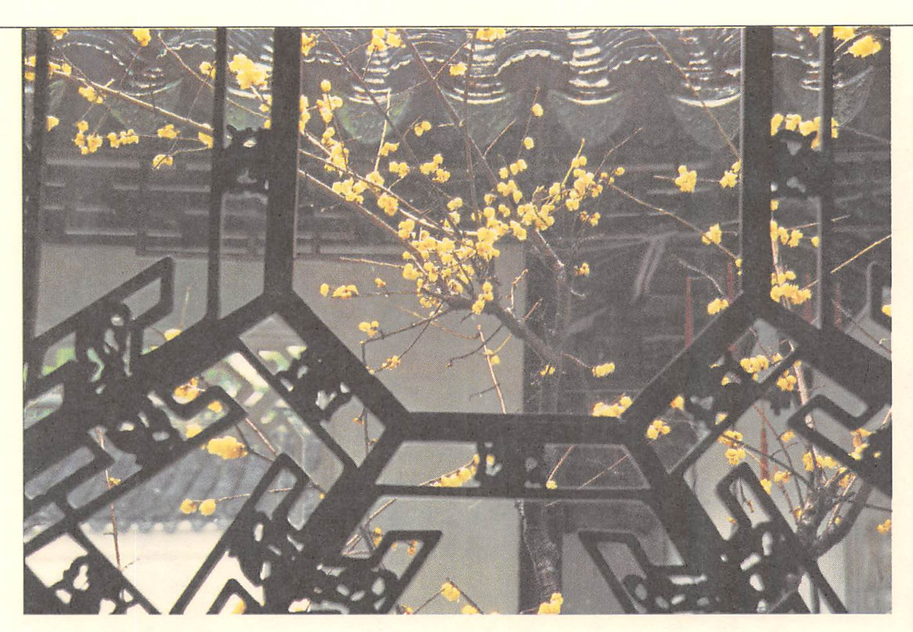
يمكن للنباتات في الحديقة أن تلعب دور المناظر الطبيعية في تناسقها وجمالها، وقد تلعب دور الحد الفاصل الذي يقسم المساحات ضمن الحديقة، وقد تلعب دور الزينة خاصة في المباني والممرات، قد توفر الظل والحماية من المطر، وقد تستخدم لتحسين البيئة وتنظيف الهواء. تستخدم الأشجار والشجيرات والعرائش والأعشاب والزهور ونباتات التغطية والمروج تقليدياً في الحدائق الصينية لصنع المواقع ذات المشاهد الطبيعية. ومن خلال التصميم، واختيار المواد المناسبة للنباتات، والنباتات نفسها بجمالها الطبيعي وأشكالها وألوانها تتحول قطعة الأرض إلى لوحة فنية خلابة تتمتع بها العيون، وتأسر الألباب وترفّه عن النفوس، وتنعش الأرواح، وتطلق العنان أمام مخيلة العقول والأذهان (الصورة 3-28).

بالطبع، تعتمد مناظر الحدائق الصينية التي تسودها النباتات على الأحوال الجوية. ففي الجنوب حيث ترتفع درجات الحرارة كثيراً نجد في الحدائق الكثير من الأشجار دائمة الخضرة التي تلقي بظلالها طوال السنة، والتي يستطيع الناس

الصورة 3-28 زهور المغنوليا خارج النافذة المزخرفة داخل حديقة سيد الشبكات في سوتشو، جيانغسو (تصوير شيه قوانغ هوي)

تشبه زهرة المغنوليا في منظرها زهرة اللوتس، وحين تزهر براعمها سوف تغطي أوراقها الممتدة في جميع الاتجاهات الباحة بلونها الأحمر اللامع؛ ممّا سيبهج أي زائر، كما يفوح من هذه الزهرة عطر ناعم ومنعش. إن المغنوليا بحق زهرة مثالية لتزيين الباحات، ولما كانت براعم هذه الزهرة تنمو إلى ارتفاع عالٍ نسبياً، فهي تبدو وكأنها منتشرة في كامل مساحة الأرض حين تتراقص في الرياح، مشكلة كلاً متكاملاً مع المشاهد الواقعة خلفها.





الصورة 3-29 شجيرة عبق الشتاء خارج نافذة خشبية في قاعة يانيو في حديقة غابة الأسود في سوتشو (تصوير وانغ مين)

تزيد شجيرة عبق الشتاء متفتحة الأزهار من جمال المشهد الكلاسيكي المفعم بالحياة وتحمل أنفاس الربيع.

أن يستظلوا بها في أي وقت. أما في الشمال الذي تحتاج فيه الحدائق إلى أشجار تقي الناس من حرارة الشمس في الصيف شديد الحرارة والرطوبة ولكن تسمح لنور الشمس بالنفاذ في الشتاء البارد فتُزرع أشجار نفضية (تسقط أوراقها مع تقلب الفصول). يستغلّ البستانيون التغيرات في الظواهر الطبيعية وصفات النباتات البيولوجية كي يصنعوا آثاراً مختلفة في شتى فصول السنة؛ مثل الأزهار بهيجة الألوان التي تتفتح براعمها كامل التفتح في فصل الربيع، أو زهور اللوتس التي تبرق أوراقها في أشعة الشمس في الصيف، أو الأشجار التي تُثقَل أغصانها بالثمار في فصل الخريف، أو شجيرة عبق الشتاء التي يفوح عطر أزاهيرها في فصل الشتاء.

إذاً، يتم ترتيب النباتات في الحديقة الصينية بحسب ما تقتضيه الظروف المناخية والجغرافية المحلية. فشجيرة عبق الشتاء مثلاً (الصورة 3-29) إذا زُرِعت أمام جدار من الجص فسوف تلقي بظلالها عليه وكأنّ يد الطبيعة قد ألقت بخطوط شكل الزهرة على لوحة الجدار، أما الانعكاسات الضبابية التي تلقي بها زهور البرقوق (الصورة 3-30) وأشجار الصفصاف على بركة ماء فسوف تتناغم مع انعكاسات الغمائم



الصورة 3-30 زهور الدراق على ضفة البحيرة الغربية النحيلة في يانغتشو، جيانغسو (تصوير وانغ داي وي)

في كلّ ثالث شهر قمري من الربيع، تتفجر البحيرة الغربية النحيلة جمالاً؛ إذ تتفتح أزهار الدراق الحمراء وأشجار الصفصاف على ضفة النهر. وعادة، تنبت أزهار الدراق على أشجار الدراق الأخضر المعمرة، والتي تتفتح في وقت متأخر عن غيرها من أنواع الدراق، ولكن تدوم زهرتها لمدة أطول. تحتوي أزهار الدراق المتفتحة على طبقات متعددة من الأوراق ذات الألوان المختلفة، ويمكن أن تختلف ألوانها حتى ضمن الشجرة الواحدة؛ مما يؤلف مشهداً مدهشاً.

البيضاء في السماء اللازوردية؛ حتى وكأن جمال الأرض قد تزاوج مع جمال السماء في المساحة المائية الصغيرة. ويزداد التدرج المساحي ولون المناظر الجبلية غنىً إذا احتوت منحدرات الجبل على أشجار دائمة خضرة مثل شجرتي السرو والصنوبر، تساندهما أشجار الجنكة والقيقب والخيزران، مع توزّع بعض الشجيرات المزهرة مثل الأزاليا والياسمين بينها. كما تثري النباتات والأشجار المناظر المائية، حيث تُزرَع أشجار الصفصاف والخيزران والقصب بجانب البرك والجداول، وتزين المياه نفسها بنباتات اللوتس والزنبق المائي (الصورة 3-31) والطحالب وغيرها من النباتات المائية. أما الباحة فتزدحم بنباتات عبق الشتاء والتفاح البري الصيني ومغنوليا يولان وموز البلانتين والخيزران والآس وعبقة الأوسمانثوس، وتزرع الوستارية الصينية البنفسجية الزاهية والورود والعنب على جوانب الممرات، بينما تُزرَع أشجار اللبلاب قرب جدران المباني لتنشر خضاراً عمودياً عليها.

وهكذا، نرى أن النباتات إجمالاً تنتظم في الحديقة بحسب خصائصها البيولوجية وأوضاع الحديقة الجغرافية المختلفة.



الصورة 3-31 بركة اللوتس العتيقة في قاعة الأسياد الخمسة التذكارية في هايكو، هاينان (تصوير هوانغ تشيونغ)

أنشئت القاعة التذكارية لإحياء ذكرى مسؤولي الدولة الذين تعرضوا للنفي إلى هذا المكان أثناء سلالتي تانغ وسونغ. في كل شتاء، تمتلئ بركة اللوتس العتيقة بزهور اللوتس الوردية التي يبشر تفتحها باقتراب موسم الربيع، وترمز هذه الزهور إلى الولاء المطلق والشخصية السامية اللذين تمتع بهما الأبطال القدامى؛ مما يفسح المجال أمام الناس كي يفكروا بهذه القيم.

بالإضافة إلى ما أسلفناه، إن رائحة النباتات والأصوات تستخدم بشكل خاص في الحدائق لصنع المشاهد المطلوبة، ومن الأمثلة على الروائح: عطر زهور البرقوق الناعم، وعبق اللوتس اللطيف، وعطر أزهار السحلبية الخافت، وعطر العبقة القوي. يرضي هذا التنوع في الروائح أمزجة معظم الناس. كما يصطف عدد من أشجار موز البلانتين في الحديقة لصنع جو مميز، وحين تهب عليها الرياح أو ترتطم بها قطرات المطر فإن الأصوات التي تنتج عن ذلك تشبه صوت مياه شلال تتساقط على بركة؛ مما يحرك النفوس والأرواح. أما إذا لامس المطر الخفيف أوراق هذه الأشجار فإن صوتها يشبه اللآلئ المتدافعة، مما يلهم المخيلة والمشاعر.

أما أشجار الخيزران المزروعة خارج النوافذ، فإذا حركتها الرياح مصدرة صوت حفيف فيها، فهذا الصوت يشبه الصوت الذي تصدره أسماك تلعب بين هذه



الصورة 3-32 أشجار الصفصاف على ضفة بحيرة دامينغ في مدينة جينان

تحيط ببحيرة دامينغ أشجار صفصاف تتراقص بلطف حين يحركها النسيم، ويتموج فيها الماء بلطف، كما تطفو فيها القوارب؛ حيث يتآلف المشهد ليبث شعوراً بالجمال والسكينة والسلام.

الأوراق؛ مشكلة مشهداً متكاملاً مع الأصوات، له جمال أخاذ لا يكاد يوصف.

أما أغصان الصفصاف (الصورة 3-32) فتتراقص في النسيم العليل، فيُسمَع صوت يبدو وكأنه قطعة موسيقية خفيفة يؤديها عازف متّقد المشاعر، وتشكّل مع محيطها مشهداً خلاباً يحمل في ثناياه انطباعاً باللطف والرقة.

في الأيام الماطرة أو ذات الرياح القوية، يشبه هدير الرياح بالإضافة إلى حفيف أشجار الصنوبر المتمايلة هدير جيش جرار يهاجم أعداءه. أما أشجار السرو فصوت أوراقها لا يمكن لمن سمعه أن ينساه.

جميع هذه الأشجار تترك أصواتها أثراً دائماً لا ينسى على مستمعيها.

يختار الناس في الصين عادة نباتات ذات معانٍ ضمنية في الثقافة الصينية. فعلى سبيل المثال، كانت شجرتا الصنوبر والسرو هما الأكثر استخداماً في الحدائق الإمبراطورية لأن خضارهما الدائم اعتبر رمزاً لطول حياة الإمبراطور وأبدية سلطة الدولة، لذا كثيراً ما نجدها في مصيف تشنغده والقصر الصيفي القديم والقصر الصيفي. كما تُزرَع نباتات نادرة مثل مغنوليا يولان، والتفاح البري الصيني، والياسمين الشتوي، وعود الصليب، والعبقة في الحدائق الإمبراطورية أيضاً لأنها ترمز إلى الغنى والنبل.

ومن بين 72 موقعاً ذا مشاهد متميزة سمّاها الإمبراطوران كانغ شي وتشيانغ لونغ بأسمائها التي نعرفها بها اليوم، يوجد 18 موقعاً أطلق عليه اسم النبتة التي



الصورة 3-33 واحد من 72 موقعاً ذات مشاهد رائعة في مصيف تشنغده، وهو الموقع المدعو: «تنهد الصنوبر من عشرة آلاف وادٍ» (تصوير لاي تسو مينغ)

أُنشئ هذا الموقع سنة 1708، ويعتبر جزءاً من مجموعة المباني الأولى المنشأة في المصيف. تقع مجموعة المباني هذه شمال معبد الصنوبر وبجانب نتوء جبلي، كما توجد بحيرة خلفها. يتميز «قصر تنهد الصنوبر من عشرة آلاف وادٍ» بتصميمه المرن، حيث تتطاول أشجار الصنوبر في السماء بينما تتنهد الرياح بينها.

تميز بها مثل «الصنوبر المتنهد من عشرة آلاف وادٍ» (الصورة 3-33)، و«زهر الدراق المتفتح في ضوء القمر»، و«الجدول المتعرج بعبق اللوتس»، و«استوديو الصنوبر والكركي»، و«عبّارة التقاط الحسك المائي»، و«مقصورة مشاهدة اللوتس»، و«حديقة عشرة آلاف شجرة».

أما بالنسبة إلى اختيار النباتات في الحدائق الخاصة، فالأمر هنا يتعلق بدرجة أكبر بتأثير أسلوب «القدم والتميز والأناقة»، وهو الأسلوب الذي يعتمده الكتاب والشعراء. وبالإضافة إلى شجرة الصنوبر، تمتلك أشجار الخيزران والبرقوق شكلاً يستحق التقدير، كما أنها تتمتع بصفات تستحق أن يُحتَذى بها مثل الشجاعة؛ حيث تُبرز الأشجار أوراقها حتى في برد الشتاء القارس، والثبات والرسوخ اللذين لا يحركهما شيء مع امتلائها بالطاقة الحيوية. جعلت هذه الصفات الناس يطلقون اسم «رفاق الشتاء الثلاثة» على هذه الأشجار (الصورة 3-34) لأن شجرة البرقوق تظل تزهر حتى في أوج الشتاء متحدية برده. أما نبتة السحلبية فتستمر في بثّ عطرها الخافت، في حين أن شجرة الخيزران تظل خضراء طوال السنة، وتحافظ

زهور الأقحوان على أريجها حتى في أيام الصقيع. تعتبر جميع هذه النباتات تجسيداً لقيم الوفاء والسمو، وتُسمّى: «الرجال النبلاء الأربعة».

وكذلك ترمز أشجار السرو إلى طول العمر، أما التفاح البري الصيني فيرمز إلى اللطف والرقة، في حين أن شجر الصفصاف يتميز بتعدد أوضاعه، ولكل وضع رمزه الخاص. أما زهر العبق الصيني فيرمز إلى الشرف والغنى، واللوتس يرمز إلى الانصياع لطلب الآخر، في حين أن شجيرة الفاصولياء الحمراء ترمز إلى الاشتياق، وترمز شجرة الرمان إلى «المزيد من الأبناء والمزيد من البركة»، كما تمثل شجرة الكرز الصينية التناغم الأخوي.

إذاً، بشكل عام، بالإضافة إلى الجانب الجمالي في النباتات المختلفة، إنها تبث مشاعر لطيفة وتضفي المزيد من المشاعر على الحدائق الصينية.

الصورة 3-34 الرفاق الثلاثة في الشتاء، رسم تشاو مينغ جيان (عهد سلالة سونغ)، مجموعة متحف القصر، تايبي، الصين

إن مفهوم اللوحة الذي يجمع بين «رفاق الشتاء الثلاثة»، أي الصنوبر والخيزران وزهرة البرقوق، في رسم واحد يهدف لعرض الصفات الأخلاقية التي ترمز هذه النباتات لها؛ مثل الاستقامة والوفاء. بعد ذلك، أصبح رسم «الرفاق الثلاثة في الشتاء» من المواضيع الثابتة التي يتطرق إليها الفنانون الصينيون في رسومهم للتعبير عن قيم السمو والتعالي.





الحدائق الصينية

الفصل الرابع

وحدة الإنسان والطبيعة
⊠الفكر الفلسفي الذي تعبر
الحدائق الصينية عنه

الكونفوشيوسية والحدائق الصينية

تمثل الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية التيارات الروحية والفلسفية والحضارية الثلاثة التي تؤلف الثقافة الصينية التقليدية. وقد مارس كل منها تأثيره الحضاري المميز في تقدم هذه الثقافة ونضجها؛ لكن العمود الفقري الذي تستند إليه الثقافة الصينية التقليدية هو الكونفوشيوسية؛ ولذلك يُعتبر تأثير هذه الديانة والفلسفة الروحية على شتى نواحي الحياة في الصين- بما في ذلك تصميم الحدائق وبناؤها - لا مثيل له.

ترتكز الفلسفة الكونفوشيوسية على مبدأ يقول بالوحدة بين الإنسان والطبيعة، أو بوجود الإنسان والطبيعة في حالة من التناغم الأصلي الذي يستحيل أن تنفصم عراه. وبناءً على هذا الفهم للوحدة الكامنة خلف تعدد مظاهر الوجود، قام مصممو الحدائق بدمج المباني مع مشاهد الجبال والمياه والنباتات في كلٍّ عضوي يكمل بعضه بعضاً؛ فتتوزع المقصورات والشرفات والقصور والمنصات المائية تحت المشاهد الجبلية أو بجانب الأسطح المائية أو بين الزهور المتفتحة وظلال الأشجار الوارفة لتشكّل معاً قطعة فنية تعكس تناغم الإنسان والطبيعة، ويتجلى فيها التكامل بين البيئة الطبيعية وما تصنعه يد الإنسان، ويتجسد فيها مفهوم «وحدة الإنسان والطبيعة». كتب صاحب مقصورة تسانغلانغ (الصورة 4-1) أبياتاً شعرية قال فيها: «رغم أن النسيم البارد والقمر الساطع كليهما لا يقدران بثمن، إلا أن المياه المجاورة والجبال البعيدة لديها جميعها مشاعرها الخاصة». وقد عبَّر في كلامه هذا عن شعوره بالاندماج مع الطبيعة. إن هذا الشعور بالوحدة مع الطبيعة جعل الصينيين القدامى يدمجون بين مزاجهم الفني والطبيعة، فأصبح «تقدير الطبيعة وتقليدها» من المبادئ الراسخة التي يراعيها مصممو الحدائق دائماً في عملهم؛ فجميع مرافق الحديقة، سواء أكانت صغيرة الحجم أم ضخمة، تحاكي أشياء موجودة في الطبيعة الحقيقية؛ فبركة الماء ترمز إلى بحيرة كبيرة أو إلى بحر، والهضبة الاصطناعية المبنية بالصخور ترمز إلى الجبال الشاهقة الجليلة، فأصغر الحدائق تعكس واقعاً طبيعياً هائلاً يصنع مصمموها من خلال محاكاته مشاهد استثنائية الجمال وفريدة البناء.



الصورة 4-1 مقصورة تسانغلانغ في سوتشو (تصوير تشي في)

يقول بيتا الشعر المنقوشان على مقصورة تسانغلانغ: «الهواء المنعش والقمر الساطع لا يقدران بثمن، والمياه المجاورة والجبال البعيدة لها مشاعرها الخاصة». وقد أخذ البيت الأول من كتاب «مقصورة تسانغلانغ» الذي ألفه أويانغ شيو، أما البيت الثاني فقد جاء من «عبور سوتشو» من تأليف سو شون تشونغ، ورغم أنهما قد استُعيرا من مؤلفين مختلفين إلا أنهما يتفقان تماماً في وزنهما وقافيتهما. إن الموقع الطبيعي الذي يحتوي على رياح نقية صافية وقمر مضيء ساطع أمر لا يقدر بثمن، وقد لا يصل إليه الإنسان إلا صدفة، وليس من خلال البحث والسعي والتدبير، أما المياه الجارية وتضاريس الجبال البعيدة فتتكامل مع بعضها لتبث سحر جمالها في النفوس.

وأثناء تقارب الأقدمين مع الطبيعة واندماجهم معها، سعوا بدورهم إلى تحويل الطبيعة؛ حيث يزداد انتفاع الناس بها. وهذا من التفاسير الإيجابية لمفهوم «الوحدة بين الإنسان والطبيعة». على سبيل المثال، يعود تاريخ إنشاء بيهاي (بحر الشمال) و«تشونغنانهاي» (البحر الأوسط والجنوبي) في بكين إلى 700 سنة، ويمثّل الجهود الرامية إلى تحويل مدينة قديمة إلى حديقة بديعة. ففي عهد سلالة يوان، تحوّل قصر دانينغ - الذي يعود تاريخه إلى حقبة سلالة جين - إلى مركز

لمدينة العاصمة التي كان يزمع بناؤها في ذلك الوقت؛ حيث استجلبت المياه من جبل نبع الجاد إلى بحيرة تاي يه عبر نهر «جينخه». بعد ذلك، وفي عهد سلالة مينغ، أعيد ملء بحيرة تايْيِه بماء استجلب من «جيشويتان» (بركة تجميع المياه)، ثمّ تم توسيع السطح المائي ليتحول تدريجياً إلى البحر الشمالي والبحر الأوسط والجنوبي، ثم شهد إنشاء البحار الثلاثة (الصورة 4-2) المزيد من التحسينات في حقبة سلالة تشينغ، واليوم تحولت إلى حدائق مدنية ضخمة ذات مشاهد رائعة.

بالنسبة إلى الكونفوشيوسيين، يحظى الملك أو الإمبراطور بسلطة تكاد تكون مطلقة، وهو مفهوم كثيراً ما ينعكس بشكل بارز في تصميم الحدائق الإمبرطورية التي تكاد فكرتا سلطة الإمبراطور العليا ورسوخ حكم العائلة المالكة تتفجران من جميع أرجائها، وخاصة في تنظيمها المتسق والمتناظر حيث يمر المحور المركزي الذي يقسم الحديقة إلى نصفين بباحة رئيسة لها مداخل متعددة كما هو الحال في القصر الصيفي؛ إذ يمتد محور مركزي واضح المعالم من الجبل الخلفي لبحيرة

الصورة 4-2 البحر الشمالي، والبحر الأوسط والجنوبي، بكين (تصوير سيدني ديفيد غامبل)

الموقع القريب هو المسمى «تشونغ نان هاي» أو بحرا الوسط والجنوب، أما بعيداً فيوجد بيهاي، أو بحر الشمال الذي يقع ضمن بكين نفسها. ويُسمّى بحرا الوسط والجنوب وبحر الشمال معاً: البحار الثلاثة. كان هذا الموقع يدعى «المزرعة الغربية» أثناء عهد سلالتي مينغ وتشينغ، ويعتبر أحد أقدم وأضخم القصور بديعة التصميم في الصين.



كونمينغ التي تحتوي بدورها على مركز واضح للحديقة هو مقصورة عطر بوذا. وتهيمن هذه المقصورة على كل ما في القصر الصيفي سواء أكان ذلك بفضل طولها أم حجمها أم المساحة التي تحتلها، وهي تطل على جميع مشاهد الحديقة؛ مما يعكس المفهوم القائل: «إن الملك يحكم الآلاف والآلاف من الرعايا».

وكذلك تشدد الكونفوشيوسية على الالتزام بقواعد آداب السلوك، مع العناية الخاصة «بمعايير مختلفة للأدب بحسب مدى شهرة الشخص ومركزه الاجتماعي»، ولذلك ينبغي أن يتّبع ترتيب المباني هذه المعايير بدقة تكاد تقارب الجمود. ومن الأمثلة التي تعكس هذا الجمود المفهومُ القائلُ إن «الشيء الأكثر احتراماً وتبجيلاً ينبغي أن يحتل الموقع المركزي»، وكذلك التشديد على السلطة الإمبراطورية المطلقة التي كان مبالغاً فيها في الأزمنة القديمة. لقد تلاقى هذان المفهومان في تصميم الحدائق كما ذكرنا سابقاً؛ أي في المحور المركزي الذي يقسم الحديقة إلى نصفين والممتد عبر المباني في الحديقة. من الأمثلة على هذا التشديد الكونفوشيوسي على آداب السلوك المحورُ المركزيُّ الذي يمر بمجموعة المباني التي تحيط بقاعة الإحسان والعمر الطويل في القصر الصيفي. كما نجد نظيراً لهذا التقسيم المركزي في مصيف «تشنغده». فمع أن المصيف هو أكبر حدائق الصين الإمبراطورية الواقعة على موقع طبيعي، إلا أن منطقة القصور فيها- وهي المنطقة التي يتولى منها الإمبراطور إدارة شؤون الدولة - قد صُمِّمت بتنظيم متناظر ومتّسق يقوم على محور مركزي يمر عبر باحات لها مداخل متعددة بهدف إظهار سلطة الإمبراطور المطلقة.

وفي الصين القديمة، كان اللون الأصفر الفاقع هو اللون الذي يلاقي أكبر قدر من التبجيل والاحترام، ولذلك كان شرف استخدامه محصوراً بالعائلة الإمبراطورية، ولهذا السبب أيضاً لا تجد هذا اللون في أي حديقة صينية باستثناء الحدائق الإمبراطورية. بالمقابل، كان الأسود والرمادي والأبيض الألوانَ الوحيدة التي يُسمَح باستخدامها في الحدائق الخاصة.

وكان يُتوقَّع من الإمبراطور أن يُظهِر اجتهاداً كبيراً وتيقظاً في حكم البلاد وإدارة شؤون الدولة. وينعكس هذا المفهوم على الأسماء التي أُطلِقت على بعض مواقع

الحدائق الإمبراطورية؛ مثل «قاعة العدل والإشراق»، و«قاعة الحكومة المجتهدة» في القصر الصيفي القديم، وقاعة البساطة والصدق في مصيف تشنغده وغيرها.

يتعامل الكونفوشيوسيون مع الحياة بإيجابية، فيشددون على «الدخول في العالم» وليس الانعزال عنه. وتشجِّع هذه الفلسفة متبعيها على تنمية شخصياتهم، وتنظيم عائلاتهم، وإدارة الدولة بفعالية، وجلب التناغم إلى كل ما هو موجود تحت أديم السماء؛ ومن هذا المنطلق تجد في الأدبيات الكونفوشيوسية مقولات مثل: «إذا كنت تواجه المشاكل فحسِّن من نفسك، وإذا كنت صاحب قيمة في العالم فحسِّن العالم». وحتى لو مرّ الواحد من أتباع هذه الفلسفة بمدة شعر فيها بالحزن نتيجة معاناته من الفشل في حياته المهنية – وهذا ينطبق بشكل خاص على مسؤولي الدولة - فقد كان الواحد منهم ينسحب من الحياة العامة ويعتكف. لم تكن هذه العزلة تعني أن أتباع هذه الفلسفة كانوا نسّاكاً زاهدين في الدنيا، بل على العكس تماماً؛ فقد كانت العزلة هي خيارهم اليائس والأخير، وحتى أثناءها كانوا يحلمون باليوم الذي تُعيد فيه الدولة إليهم اعتبارهم، حيث يتمكنون من تحقيق المثل السياسية التي يسعون إليها. عبّر هؤلاء الأشخاص عن عواطفهم وما يتوقون إليه عبر إسقاط مشاعرهم على الطبيعة من حولهم. فقد أنشأ عدد من رجال الأدب والعلم في الصين القديمة حدائقهم الخاصة في ظروف كهذه؛ كما هو الحال في حديقة سيد الشبكات التي بناها سونغ تسونغ يوان. كان سونغ رئيس الوزراء في بلاط الترفيهات الملكية أثناء حكم الإمبراطور تشيان لونغ في عهد سلالة تشينغ، ولكن سرعان ما شعر سونغ بالإرهاق من الدوائر الرسمية، فاعتكف في مدينته الأم وبنى هذه الحديقة على الموقع الذي كانت «قاعة عشرة آلاف كتاب» تشغله في الأصل، وأصبحت الحديقة تعرف باسم: «معتكف صياد السمك» قبل أن تدعى: «سيد الشبكات». كان هدف سونغ من هذه التسمية هو القول إنه لم يعد صالحاً للقيام بأي عمل إلا صيد السمك.

يمكننا أن نجد إشارات شبيهة بهذه في أسماء حدائق أخرى مثل «حديقة الحاكم المتواضع»، و«حديقة الانعزال والتأمل». كما تشمل حدائق التقاعد والانزواء هذه حديقة شاويوان، وحديقة هويوان، وحديقة جيه تسي يوان، وحديقة تسان لي يوان وغيرها. كان مسؤولو الدولة المتقاعدون هؤلاء يهذبون نفوسهم وينمّون



قدراتهم العقلية من خلال بناء هذه الحدائق الصغيرة والانزواء فيها، حيث كانوا يعيشون حياة بعيدة عن الهموم الدنيوية، فيركزون على التحسين من شخصياتهم وتنظيم شؤونهم الأسرية.

لكن وكما أسلفنا، بالنسبة إلى المثل الكونفوشيوسية التي يحملها مسؤولو الدولة المتقاعدون هؤلاء، إن الانزواء عن العالم لا يعني رفضه ولا التخلي عنه، بل إن المضامين الفلسفية التي تحملها أسماء بعض المباني والمواقع ذات المشاهد المتميزة في الحدائق- مثل قاعة مينغداو (الصورة 4-3)، وأرض ياوهوا (الصورة 4-4)، وغرفة جيانشين للدراسة، ومنزل يينشين الحجري، ومقصورة يانغتسه، ومقصورة تسانغلانغ - تدل على أن أصحاب هذه الحدائق ورغم اعتكافهم كانوا لا يزالون يثمنون طموحاتهم، ولم يتخلوا عن أي من مثلهم العليا.

وكذلك ينعكس المفهوم الكونفوشيوسي حول «مقارنة القيم الأخلاقية» على الأفكار التي يقوم عليها تصميم الحدائق الصينية. وما يعنيه مفهوم «مقارنة القيم الأخلاقية» هو الربط بين الأشياء الجميلة في الطبيعة والقيم الأخلاقية السامية.

الصورة 4-3 قاعة مينغداو (الاستنارة) في مقصورة تسانغلانغ، سوتشو (تصوير شومي)

أُطلِق هذا الاسم على القاعة بناءً على بيت الشعر القائل: «تستنير الطريق حين لا يؤثر فيك ما تراه وتسمعه»، وقد استخدمت هذه القاعة كمركز لاجتماع رجال العلم والأدب خلال حقبة حكم سلالتي مينغ وتشينغ، وهي المبنى الأهم في الحديقة. تحتوي القاعة على ثلاث غرف، وتبدو هادئة ومهيبة بين الهضاب الاصطناعية والأشجار العتيقة المحيطة بها.



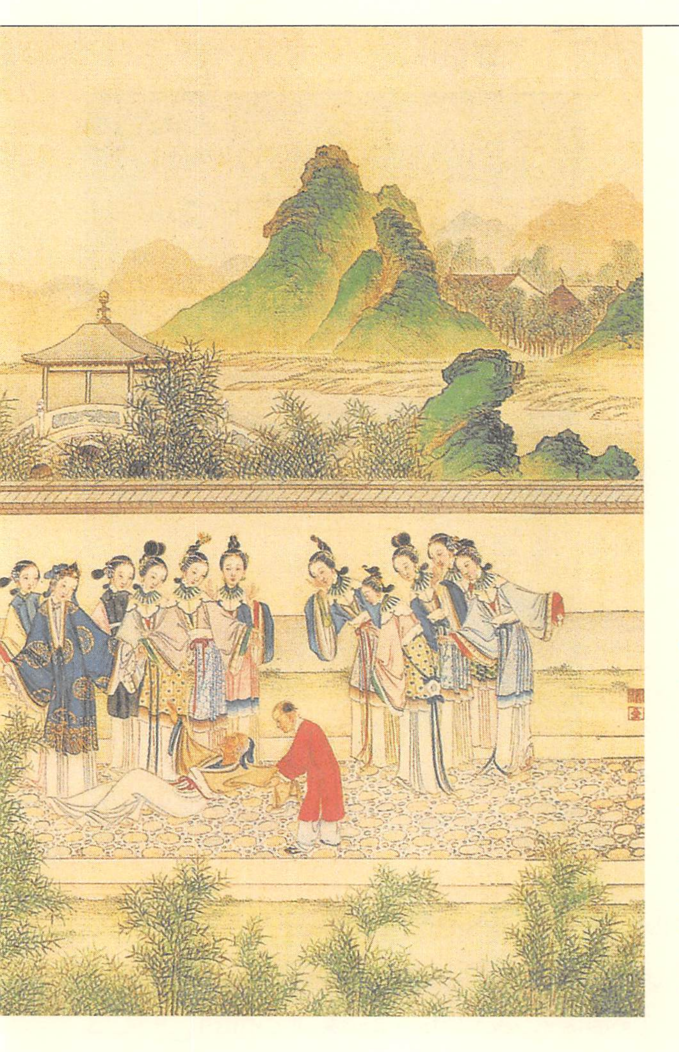


الصورة 4-4 عالم ياوهوا (تصوير تشي في)

إن عالم ياوهوا عبارة عن غرفة صغيرة جنوب قاعة مينغداو في مقصورة تسانغلانغ. لقد سميت الغرفة بهذا الاسم بناءً على البيت القائل: «البرقوق أبيض مثل الجاد، ومثل الزهرة يرمز إلى العالم الطاهر». يشير اسم «ياوهوا» إلى زهرة صينية أسطورية زكية الرائحة تشبه الجاد، ويمكنها أن تطيل عمر من يأكلها. تتميز النقوش في الغرفة بأناقتها وحسن خطها، وتبثّ جواً شاعرياً يبعث على الحنين إلى الماضي.

وقد شدّدت الحدائق الصينية القديمة على هذا الرابط العقلي والعاطفي بين الشعور الذي تبثّه المشاهد الطبيعية الجميلة والفضائل الأخلاقية؛ حتى إن القدامى نسبوا إلى النباتات المختلفة صفات شخصية وأخلاقية بحسب الوضع الذي يتخذه شكل هذه النباتات وطبيعة نموها، معبرين بذلك عن مميزات حضارية محددة ومضامين روحية سامية.

قال كونفوشيوس: «الرجل الحكيم يُسرُّ بالماء، أما الرجل الصالح فيُسرُّ بالجبال». ويرى الكونفوشيوسيون أن الماء يظل يتدفق إلى مسافات بعيدة أو يسري في الأرض، أما الجبل فيظل راسخاً ولا يتحرك أبداً وتحت أي ظرف من الظروف؛ وهذا ما كان على الرجال أصحاب العلم والحكمة والفضيلة الأخلاقية أن يتعلموه منه. ونجد هذا المفهوم شديد الارتباط مع تصميم بناء الهضاب وترتيب الأسطح المائية في الحدائق، وهما كما أسلفنا عنصران من عناصر الحدائق الصينية الأربعة.



الصورة 4-5 مشهد «الجدة ليو تقوم بزيارتها الأولى لنزل الخيزران» في ألبوم رسوم النسخة الكاملة من كتاب «حلم القصور الحمراء» الذي ألّفه سن وِن في عهد سلالة تشينغ

معظم الأشجار التي تحيط بنزل الخيزران أشجار خيزران خضراء، وهي ترمز إلى الشخصية السامية التي لا تخشى لومة لائم. ويرمز الخيزران إلى الشخصية النبيلة الطاهرة والتوجه العلمي الراقي، وتملأه الحيوية بشكل ضمني باطني. وقد كانت لصاحب نزل الخيزران شخصية نبيلة وخلق سام وطبيعي؛ مثل ما يرمز الخيزران إليه.

وكذلك، لطالما ارتبط الخيزران - منذ الأزمنة القديمة - بصفات مثل التواضع وضبط النفس وسمو الهمة وعلو القامة؛ فهذه النبتة لا تخشى برد الشتاء، كما أنها قادرة على التكيف مع الظروف المختلفة، ممّا جعل منها رمزاً لفضائل أخلاقية وروحية كثيرة (الصورة 4-5).

إن أشجار الصنوبر المتينة ودائمة الخضرة، وبرقوق الشتاء المتحدي للصقيع والمنتصر على الثلوج، وزهرة لوتس الصيف المتعالية عن القاذورات جميعها ترمز إلى الصفات الإنسانية المثالية.



إن وجود هذه الروابط بين القيم الأخلاقية السامية والجمال الطبيعي الخلاب هو سبب اختيار الصينيين لزراعة النباتات المرتبطة مع الصفات السامية في حدائقهم؛ مثل أشجار الخيزران الباسقة، وأشجار الصنوبر المتوحدة، وأشجار السرو العتيقة، وسحلبية الربيع، ولوتس الصيف، وأقحوان الخريف، وعبق الشتاء. إن الترتيب الدقيق لهذه النباتات والأزاهير مع الأبيات الشعرية الحاملة لمعاني الحكمة السامية والعميقة المنقوشة على الألواح الأفقية يُلهِم خيال الناس، ويُضفي سحراً إنسانياً وطبيعياً على الحدائق.

الصورة 4-6 الباغودا البيضاء في حديقة بيهاي العامة، بكين (الصورة مقدمة من آكو)

تعتلي هذه الباغودا البالغ طولها 35.9 م جزيرة الجاد، وتقبع على قاعدة معكوسة، وقد بُنيت الباغودا على شكل «داغوبا». وقد أصبح معبد السلام الأبدي هو المحور المركزي لمشاهد جزيرة الجاد. يمتد هذا المحور من بوابة الجبل إلى الباغودا البيضاء، ويمر عبر مبانٍ هائلة الحجم ورائعة الجمال.

في الأزمنة القديمة، كانت الكونفوشيوسية التي اعتنقها علماء الصين وأدباؤها تشدد على وضع الإنسان قبل أي شيء، وعلى الشعور الأخلاقي بدلاً من الجانب الغيبي من الديانات. ومع هذه الخلفية، يسهل علينا إيجاد الأسلوب العملي العقلاني القائم على الأفكار الأخلاقية الإنسانية في تصميم حدائق المعابد في الصين. فهي تعكس جواً عميقاً ومتفائلاً وحتى سعيداً ومستبشراً، وتوفِّر للزوار الفرصة كي يستمتعوا بوقتهم؛ حيث إن المشاهد الجميلة التي تتجاوز في أفقها المفاهيم الدينية المحضة جزء لا يتجزأ من حدائق المعابد في الصين. ففي حدائق الصين الإمبراطورية، تلعب المعابد بالإضافة إلى أدوارها السياسية والدينية دوراً جمالياً مهماً بتركيبة مشاهدها الشاملة لمباني الباغودا والمباني الضخمة الأخرى التي تشكّل جميعها عناصر أساسية من المشاهد.

على سبيل المثال، صُمِّمت مقصورة عطر بوذا في القصر الصيفي والباغودا البيضاء (الصورة 4-6) على جزيرة تشيونغهوا في حديقة بيهاي العامة، وشُيِّدتا بدقة وعناية فائقتين حيث تظلان جزءاً من ترتيب الأرض والمشهد العام. وهكذا، نرى أن حدائق المعابد في الصين وتحت تأثير الفكر الكونفوشيوسي اندمجت بسهولة مع حياة عامة الناس، بالإضافة إلى مضامينها الروحية والفلسفية.

الطاوية والحدائق الصينية

تمتاز الحدائق الصينية التي تركز على المشاهد الطبيعية عن جميع أنظمة تصميم الحدائق الكبرى في العالم بتركيزها على المفهوم الطاوي القائل باتباع نموذج الطبيعة ومحاكاتها. وفي فن تصميم الحدائق، ينطوي هذا المفهوم الطاوي على جانبين: الأول هو أنه يجب على تنظيم الحديقة الإجمالي واجتماع عناصرها أن يتفقا مع الطبيعة؛ وقد برزت هذه الطريقة في التفكير أثناء عهد مملكة وي وسلالتي جين الشمالية والجنوبية، إذ كان العيش في عزلة بعيداً عن الدنيا هو الغالب على فكر الناس الروحي، بعد أن أدت الحروب الدائمة وتزعزع الوضع السياسي وقيام نظام إقطاعي توارثت فيه العائلات البارزة السلطة والنفوذ في أطراف البلاد إلى انحلال السلطة المركزية وفقدان الناس لثقتهم بها. وقد وجد العلماء والأدباء الذين عاشوا في تلك العصور المظلمة أنه من الصعب عليهم أن يتميزوا بأي فعل في إطار الدولة، أو أن يعيشوا بحسب المبادئ الكونفوشيوسية القائلة بالدخول في الدنيا والتعامل معها، فلجأوا إلى الفلسفة الطاوية الأكثر انعزالاً وتركيزاً على الجانب الروحي من الإنسان، والداعية إلى مبادئ مثل «محاكاة الطبيعة» و«الحكم من خلال عدم العمل» والتعبد في حياة العزلة والسعي إلى الخلاص الروحي بين الجبال الشاهقة وعلى ضفاف الأنهار الشهيرة. سعى أولئك العلماء والأدباء إلى «الاستماع إلى أصوات الرياح والأمطار، والاستمتاع بالظلال التي تلقيها الشمس والقمر، والتعبير عن مشاعرهم في القصائد التي يكتبونها بينما كانوا يتلذذون بشرب النبيذ، وأن يكون لديهم شركاء لحياتهم حين تقلقهم الوحدة أو الملل». كما آثر عامة الناس البعد عن مشاق العيش قدر الإمكان، والاستمتاع ورؤية المشاهد الطبيعية في الجبال وبجانب الأنهار.

لكن لم يكن بمقدور الكثير من الناس التجول في طول البلاد وعرضها لرؤية هذه المشاهد المشهورة؛ ولذلك بدأ بناء التلال الاصطناعية، وشق الأسطح المائية، وترتيب النباتات في بيوت الناس. وقد شهد هذا العصر تفجراً كبيراً في بناء الحدائق القائمة على المشاهد الطبيعية، حيث حاول أهل العلم والأدب بشكل خاص استجلاب الطبيعة إلى بيوتهم ليستمتعوا بها طوال الوقت. ومع أن حجم



الصورة 4-7 صورة تظهر حديقة الوادي الذهبي التي بناها شي تشونغ أثناء حقبة سلالة جين (تصوير نيه مينغ)

كانت حديقة الوادي الذهبي هي منزل شي تشونغ الخاص؛ وهو شخص ثري ذو نفوذ عاش أثناء حقبة سلالة جين الجنوبية. وقد شُيِّدت الحديقة على نطاق ضخم، واشتملت على مقصورات وشرفات وأبراج تتخللها الأمواج الزرقاء التي تثيرها الرياح في البحيرات والبرك، كما ملأ تشونغ حديقته بجميع أنواع الزهور المعروفة في ذلك الوقت، جاعلاً منها أرض أحلام. ويعتبر «اليوم الجميل في الربيع في الوادي الذهبي»- والمشير إلى جمال المشاهد في الربيع في هذه الحديقة - أحد المشاهد الثمانية المشهورة في لوه يانغ.

هذه الحدائق كان صغيراً، إلا أن تنظيمها كان في غاية الإبداع والمهارة، حيث يكاد يشبه كتابة قصيدة أو رسم لوحة فنية.

وكانت النتيجة هي المشاهد الخلابة والساحرة التي صنعها أولئك العلماء والأدباء لمحاكاة المشاهد الطبيعية، وبهدف الانعزال عن عامة الناس ومشاكل العصر. اشتهرت بعض هذه الحدائق بصخورها؛ حيث يشعر من يراها وكأنه يعيش في وادٍ عميق، وتميّز بعضها الآخر بأسطحه المائية؛ حيث يكاد الزائر يشعر بأنه يعيش على ضفة نهر أو بحيرة، كما اشتهرت أخرى بنباتها وأشجارها حيث يشعر

من فيها وكأنه قد غاص في أعماق غابة أو حوصر ببحر من الأزهار (الصورة 4-7).

كان لتأثير الفلسفة الطاوية ومفهومها حول محاكاة الطبيعة واتباع نموذجها أن جعل مصممي الحدائق الصينية - بالإضافة إلى مراعاتهم الجانب الجمالي في البيئة المحيطة بها - يحاولون إيجاد روابط أوسع وأعمق بين المباني والطبيعة؛ مُشدِّدين على مفهوم «وحدة الإنسان والطبيعة» الذي كانت الطاوية تركز عليه على مستوى روحي ووجودي أعمق من المستويات الأخلاقية والسلوكية التي ركزت عليها الكونفوشيوسية. لذلك، وبناء على المبدأ القائل إنه على المباني التي يصنعها الإنسان أن تتناغم مع الطبيعة، كان على المعابد القديمة أن تكون مخبأة في أعماق الجبال، حيث لا تكاد تبدو للعيان؛ بعكس الممارسة الأوروبية التي كانت القلاع والأديرة تظهر فيها من مسافات بعيدة.

وجد هذا التفكير القائم على الوحدة والتناغم التعبير الأكبر عنه في الحدائق الصينية. فقد كان بناء هذه الحدائق يواجه عوائق متعددة؛ مثل الحجم المتاح لبناء الحديقة، والبيئة المحيطة بها وغير ذلك. وبالطبع، كان من المستحيل على مصممي الحدائق أن يغيروا من محيطها الطبيعي، ولذلك كان عليهم أن يأخذوا بعين الحسبان التناغم بين المبنى ومحيطه، واتباع المبدأ الطاوي القائل بوجوب محاكاة الطبيعة واتباع نموذجها.

لنأخذ على سبيل المثال حديقة الحاكم المتواضع؛ لقد أنشئت هذه الحديقة في أسفل جبل، وكان على صاحبها أن يشق سطحاً مائياً اصطناعياً فيها نظراً لعدم وجود سطح مائي طبيعي في الجوار، وبعد ذلك تم تزيين ضفاف السطح المائي الملتوية بالهضاب الاصطناعية والصخور، وقد زاد كل ذلك من تكامل المشهد العام وسحره القائم على الدمج بين العناصر الطبيعية واللمسة الإنسانية المتممة لها.

ومن الأمثلة الأخرى على هذه الحدائق حديقة إيواء المشاعر الواسعة (الصورة 4-8) في ووشي. تقع هذه الحديقة بجوار جبل هويشان من الجهة الغربية وجبل شيشان من الجهة الجنوبية الشرقية. استخدمت مزية موقع الحديقة الطبيعي خير استخدام في تصميم الحديقة وترتيبها، فاستخدمت مياه النبع المتدفقة من جبل هويشان في رفد بركة الحديقة بالمياه، كما استجلبت الصخور من ذلك الجبل



الصورة 4-8 حديقة إيواء المشاعر المتسعة في ووشي (تصوير نيه مينغ)

تنتمي الحديقة إلى نوع المنازل الخاصة المنعزلة الواقعة أسفل جبل. وقد اتبع تصميمُ الحديقة البديعُ المنظرَ الطبيعي من حولها، حيث تتكامل معه وتعكس سحر البرية؛ سواء أكان ذلك في جبالها المنعزلة المغطاة بالغابات، أو الحدائق الساحرة البعيدة غير المزينة والتي تحتوي على الكثير من النباتات متناسقة الألوان. يستطيع الزوار أن يشاهدوا جبلي شي شان وهوي شان من مكان مرتفع من الحديقة، حيث تبدو القمم وكأنها تتصاعد واحدة فوق الأخرى في مشهد يتكامل مع بحيرات الحديقة، وظل الباغودا في الأفق البعيد. وقد تمّ التعبير عن هذا التصميم الذي يعكس وحدة الإنساني والطبيعي بمقولة مشهورة وهي: «مع أن الصانع إنسان، إلا أن الصنعة متقنة للغاية». وقد أصبحت هذه الحديقة مثالاً كلاسيكياً على بناء الهضاب الطبيعية وتنظيم الأسطح المائية في حدائق جيانغنان.

لصنع الهضاب الطبيعية شمال الحديقة وغربها حتى أصبحت وكأنها امتداد طبيعي للجبل، ويمكن للمتفرج من ناحية جبل هويشان أن يرى مشهداً جميلاً لباغودا لونغ قوانغ الواقعة إلى الجنوب الشرقي في جبل شيشان. ورغم صغر حجم الحديقة إلا أنها تتناغم تماماً مع محيطها الطبيعي، وتصنع أثراً وصف بأنه «الجبل الأبعد من الجبل، والقصر الأبعد من القصر».

وكذلك كان من تأثير الفلسفة الطاوية أن سعى مصممو الحدائق إلى التحرر من قيود القواعد السلوكية التقليدية في تصميمهم لحدائقهم الخاصة. فالفلسفة الطاوية تركز على «العودة إلى الطبيعة» وليس على هرميات آداب السلوك الإمبراطورية؛ وبناء على هذه العودة، بُذِلت الجهود للوصول إلى دمج الجمال الاصطناعي مع الجمال الطبيعي حيث يُتممان بعضهما بعضاً. كما تخلى المصممون المتبعون لهذه الفلسفة عن مبدأ التنظيم المحوري المتناظر والمتسق الذي تتّبعه الحدائق الإمبراطورية، حتى إنهم لم يتّبعوا أي مبدأ ثابت في تصاميمهم إلا متابعة الطبيعة. فعادة، تحاط الجبال أو الهضاب الاصطناعية بسطح مائي متعرج، وتزرع الأشجار والشجيرات والأعشاب والأزهار بحسب ترتيبها وموقعها في الطبيعة، أما المباني فتنشأ حيث تتوافق عضوياً مع المنظر الطبيعي والنباتات المزروعة.

كان هدف هذه المساعي هو الوصول إلى مثال أعلى تعبِّر عنه عبارة: «مع أن الصانع إنسان، إلا أن الصنعة متقنة للغاية»؛ وللوصول إلى تأثير يلهم المشاعر كي تتفاعل معه فتحس بذلك المبدأ، كان يعاد ترتيب الهضاب والأسطح المائية الطبيعية بحسب ظروف موقع الحديقة بدلاً من استنساخ الترتيب الأصلي مباشرة. وقد أدى هذا الفهم العميق لفن ترتيب الحدائق إلى نضج تصميم تحول مساحات الحديقة بين الطبيعي والاصطناعي، وفن وضع مشاهد لا تتناهى في مساحة الحديقة المحدودة.

تحفل جميع العناصر المؤلفة للحدائق الصينية القديمة بهذا التحول من الطبيعي إلى المصطنع بحسب الرموز التي يقصد المصمم إيصال معانيها إلى المشاهد؛ فالجبال ترمز إلى الصلابة، بينما ترمز المياه إلى الفراغ، في حين تقف الشرفات والاستوديوهات المفتوحة والمقصورات على الحد الفاصل بين الطبيعي والمصطنع، أما برج الانعكاس ومقصورة «انعكاس الباغودا» فقد كانا مصممين بعناية حيث يحتويان على مناظر خلابة في حديقة الحاكم المتواضع. تتألف مقصورة انعكاس باغودا من ثمانية طوابق لونها برتقالي مائل إلى الاحمرار، وقد شُيِّدت في وسط البركة، ويبدو انعكاسها على ماء البركة وكأنه باغودا بالفعل! تندمج السماء اللازوردية مع أشعة الشمس الساطعة، ومع الأمواج الهادئة على سطح المياه الزرقاء، والزهور الطافية كي تجمع جمال الطبيعة بأسره على سطح الماء؛ فيتكامل الحقيقي



الصورة 4-9 بحيرة قويهو في مدينة شيندو، سيشوان (تصوير ليو شياو لين)

تعتبر بحيرة قويهو «أفضل بحيرة في مخازن الطبيعة»، ويركز تصميمها الإجمالي على موضوعين: «نباتات العبق» و«الزهور». تتماهى الحديقة مع بحيرة قويهو في شينغان من حيث تنظيمها المعماري ومواضع النقاط ذات المشاهد الأجمل، وقد استُخدم في بنائها أسلوب يميّز بين الواقعي والاصطناعي، وبين الازدحام والسعة؛ مما يؤلف ترتيباً فريداً من نوعه في تصميم الحدائق.

مع الاصطناعي، ويُثري تدرج الحديقة معطياً المُشاهد شعوراً بالفسحة والاتساع.

إذاً، الطبيعي يولّد الاصطناعي، كما يولّد الاصطناعي الطبيعي. وهذا التوالد المتبادل بينهما من المزايا الأخرى للحدائق الصينية، حيث تكون النتيجة وجود مشاهد لا تتناهى ضمن مساحة محدودة. أما من ناحية التعامل مع المساحات، فقد استُخدِم عدد من الأساليب للتأثير في رؤية المتفرجين للمكان وشعورهم بالزمن فيه، والغاية من وراء هذه الأساليب هي جعل المتفرجين يستغرقون في مشهد أبعد من المشهد، وفي حديقة أبعد من الحديقة؛ أي أن يستمتعوا بمشاهدة



الصورة 4-10 حديقة الزهور السحلبية، قوانغتشو (تصوير جين شيان)

تختص حديقة الزهور السحلبية بزراعة الزهرة التي تحمل اسمها، وتعتبر بمثابة واحة وسط الشوراع المزدحمة التي تحيط بها. ومع أن الحديقة صغيرة الحجم إلا أنها هادئة وبديعة الجمال، وتستحق زيارة مطولة.

ما لا نهاية له في مساحة الحديقة المتناهية.

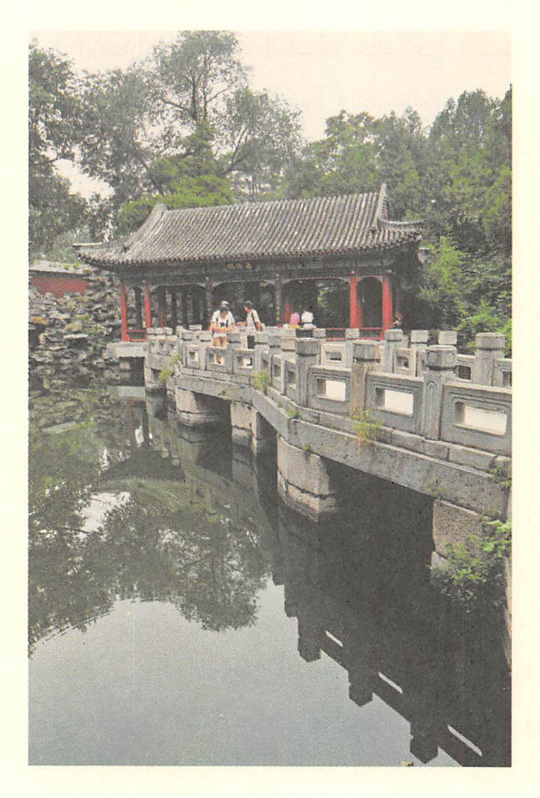
اشتهرت حديقة قويهو (الصورة 4-9) في شيندو، مقاطعة سيشوان، بأنها «أفضل بحيرة في مخزن الطبيعة»، وقد كانت مكان إقامة يانغ شِن؛ وهو أحد المشاهير أثناء حقبة سلالة مينغ. أطلق على البحيرة هذا الاسم بسبب أزهار العبقة (فما يعنيه لفظ «قويهو» حرفياً هو: بحيرة العبقة) المزروعة على ضفتي البحيرة. لا تغطي الحديقة مساحة كبيرة، وتكاد تكون مغلقة من جميع جوانبها، وقد شُقَّت فيها مساحة طويلة وضيقة لتشكل بحيرة اصطناعية تزرع فيها زهور اللوتس بجانب الضفاف الحاملة لنباتات العبقة. ورغم ضيق المساحة، إلا أن منظر أوراق اللوتس على سطح الماء الرقراق مع عطر العبق في الهواء يجعلان الزوار يشعرون وكأنهم في مساحات ريفية مفتوحة بدلاً من تواجدهم في حديقة صغيرة.

ومن الأمثلة الأخرى حديقة الزهور السحلبية (الصورة 4-10) في قوانغتشو، والتي بالرغم من صغرها تحتوي على تنوع كبير من النباتات التي يتراوح حجمها

بين الأشجار القديمة الباسقة عالياً في السماء وشجر الوستيريا بلونه الأرجواني الخلاب والشجيرات الصغيرة والحشائش. وحين يتمشى الزائر في الحديقة، يشعر وكأنه ذهب في جولة في الريف، وكأن المسافات التي يقطعها أكبر من مساحة الحديقة الحقيقية بكثير.

بالإضافة إلى محاكاة الطبيعة والتوالد المتبادل بين الواقعي والخيالي، وجد المبدأ الطاوي الذي يشدد على أهمية الانعزال عن العالم أرضية خصبة له في تصميم الحدائق الصينية. وقد أشارت قصتان ذواتا إشارات فلسفية عميقة حفظتهما الكتب الصينية القديمة لنا إلى معاني وحدة الإنسان مع الطبيعة من ناحية، وأهمية انعزاله عن العالم عموماً والحياة السياسية خصوصاً. وكلتا القصتين تتعلقان بتشوانغ تسي؛ الفيلسوف الطاوي الكبير. في القصة الأولى، يُروى أن تشوانغ تسي زار نهر هاوشوي في مقاطعة فينغيانغ مع صديقه هوي تسي، وحين توقف الرجلان على ضفة النهر سأل تشوانغ تسي صديقه وهو يشير إلى السمك السابح في الماء: «إن الأسماك تستمتع بوقتها وهي تسبح بسعادة في الماء!» فأجابه هوي تسي: «أنت لست سمكة، فكيف يمكنك أن تعرف إن كانت الأسماك تستمتع بوقتها؟» فأجابه تشوانغ تسي: «أنت لست أنا. فكيف يمكنك أن تعرف أنني لا أعرف أن الأسماك تستمتع بوقتها؟».

أما القصة الثانية، فتذكر أنه وبينما كان تشوانغ تسي يصطاد السمك في نهر بوشوي بين شاندونغ وخهنان، زاره اثنان من كبار رجال الدولة أرسلهما إليه ملك مملكة تشو ليخبراه أنه يريد أن يستأمنه على تولي شؤون الدولة. لم يقم تشوانغ تسي حتى بالالتفات إلى الرجلين، بل استمر في شد صنارة الصيد بيده قائلاً: «لقد سمعت مرة أنه توجد سلحفاة مقدسة في دولة تشو، ومع أنها ماتت قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة إلا أنها لا تزال مكفنة بالحرير، وموضوعة داخل صندوق محفوظ داخل معبد. لكن، دعاني أسألكما: أي من الخيارين كانت السلحفاة المقدسة نفسها ستختار؛ أن تكون محنطة بكل هذه الزخارف بعد وفاتها، أو أن تتمرغ في الوحل وهي لا تزال على قيد الحياة؟». أجاب الرجلان بأن السلحفاة كانت ستفضل أن تظل حية وأن تعيش في الوحل، فأجاب تشوانغ تسي: «إذاً، إليكما عني! أنا أستمتع بوقتي في الوحل!».



الصورة 4-11 مقصورة هاوبو في حديقة بيهاي العامة في بكين (تم توفير الصورة من قبل آكو)

أُطلق هذا الاسم على المقصورة بناءً على القصص المروية عن تشوانغ تسي حين راقب السمك في نهر هاوشي واصطاده في نهر بوشوي. تقع مقصورة هاوبو في شمال مرتفع صغير في الضفة الغربية من حديقة بيهاي العامة، وهي «حديقة ضمن الحديقة» في بيهاي، وتحيط بها أشجار الصنوبر القديمة التي توفر الحماية من أشعة الشمس. تحتوي المقصورة على جسر ملتوٍ وبركة ماء وصخور على هيئة تلال وشرفات تتعرج ضمن مساحتها الصغيرة، وتتميز بمناظرها الهادئة والمتناغمة.

وهكذا، نرى أن القصة الأولى تعبر عن وحدة الإنسان مع الطبيعة، بينما تعبر القصة الثانية عن راحة الإنسان النفسية في العزلة بعيداً عن اضطرابات السياسة وشؤون الدولة. وقد وجدت المثل والأفكار التي تعبر عنها هاتان القصتان وغيرها سبيلها إلى مشاعر مصممي الحدائق وعقولهم، حيث صمموا على أساسها مواقع مثل «مقصورة السمكة العارفة» في حديقة إيواء المشاعر الواسعة، ومقصورة هاوبو في حديقة التريث في سوتشو؛ بل وقد صار من الممكن أن نجد مشاهد ذات مناظر جميلة قائمة على العزلة حتى في الحدائق الإمبراطورية في شمال الصين؛ مثل «السمكة القافزة والعصفور الطائر» في القصر الصيفي القديم، ومقصورة هاوبو في حديقة بيهاي العامة (الصورة 4-11)، و«الحلم الريفي فوق الماء» و«مراقبة السمك فوق الحجارة» في مصيف تشنغده.

| البوذية والحدائق الصينية

أثّرت الفلسفة البوذية على الحدائق الصينية من ناحيتين: تشكيل نوع جديد من الحدائق وهو حدائق المعابد من ناحية، وإثراء فن تصميم الحدائق بمبادئ طائفة تشان (المعروفة في اليابان والغرب باسم: «زِن») وهي المدرسة الكبرى بين المدارس البوذية المختلفة من ناحية أخرى؛ وهذا أكثر أهمية.

يقوم مبدأ مدرسة تشان البوذية الأساسي على استبدال الطقوس الدينية التقليدية بمجموعة من الممارسات الشخصية الروحية مثل التأمل وغيره لتحرير الذهن من أثقاله، وعلى أساس إيقاظ الذهن نفسه بنفسه ليتوصل إلى معرفة الحقيقة؛ أو بكلمات أخرى أن يكون الإنسان قادراً على اكتشاف الوحدة بينه وبين الحقيقة المطلقة، أو على دمج جميع الأشياء في نفسه، أو على أن يصبح مستنيراً (وهو ما تعنيه كلمة بوذا) من خلال مراقبته نفسه ومحيطه مراقبة دقيقة، والتأمل المستمر، والاستنارة المفاجئة. وكذلك تدعو طائفة تشان إلى فلسفة تقوم على حياة معتدلة سعيدة تركز على السعي إلى الخلاص الروحي مع تهذيب ذوق الإنسان للجمال في الأشياء، ودون الالتفات إلى الأغراض الدنيوية أو الاهتمام بها؛ فكان لهذه الفلسفة أن جعلت أتباعها يسعون إلى الوصول إلى السلام الداخلي الكامل عقلاً وروحاً من ناحية، ولكن مع التعامل مع الأمور من حيث واقعها من ناحية أخرى على أساس المعتقد القائل إن «العقل هو بوذا». قد يبدو هذان الاتجاهان متناقضين، لذا كان الأسلوب الذي اتبعه المنتمون إلى هذه الطائفة هو السعي إلى الجمال والكمال في الأشياء، وذلك من خلال مشاهدة المناظر الجميلة أو زراعة الزهور أو إنشاء الحدائق سعياً وراء فهم روحي مباشر لحقيقة معنى الحياة. وقد وفّرت الحدائق لأتباع هذه الفلسفة مكاناً للتأمل الروحي، حيث كان بإمكانهم الشعور بالأزلية تتجلى في الهضاب والتيارات المائية والزهور والأعشاب، فلطالما قال أساتذة طائفة تشان البوذية إن الحياة في وسط الحديقة تساعد على الانعتاق الروحي والوصول إلى الاتحاد مع بوذا.

تحت تأثير الفكر البوذي هذا، اختيرت لحدائق المعابد مواقع ذات مناظر طبيعية في غاية الروعة والجمال. وتلخص المقولة: «لقد سيطر الرهبان على الجبال



الصورة 4-12 جدار حاجب في معبد لينغيين في هانغتشو، تشه جيانغ (تصوير وانغ تشيونغ)

يقع الجدار الحاجب على الطريق الفاصل بين معبد لينغيين ومعبد تيانتشو، وهو حائط بدائي مطلي باللون الأصفر تعلوه قطع قرميد سوداء تتخذ شكلاً مقوساً. اللون الأصفر الأنيق هو اللون الأساسي في الجدار، والكتابات عليه تعني: «لا توجد إلا خطوة واحدة إلى الجنة الغربية»!

الشهيرة منذ الأزمنة الغابرة» القانون الذي اتبعه الرهبان في اختيار مواقع حدائق معابدهم. ولم يكن هذا الاختيار لمجرد اختيار السلام والسكينة والبعد عن مشاغل العالم، بل سعياً وراء فلسفتهم الداعية إلى حياة متزنة تتناغم مع الفطرة أيضاً، أو «عقل بوذا الأصلي» كما سمّاها أولئك الرهبان؛ ولا شي يطهّر العقل الإنساني من هموم العالم وتقلباته وشرور الناس ومشاكلهم ويساعده على الوصول إلى حالة نقية مثل الجلوس في أحضان الطبيعة بين الهواء المنعش والسحب البيضاء والجبال الخضراء والمياه الزرقاء.

وكان من تأثير الفكر البوذي أيضاً جعل حدائق المعابد تبنى بألوان أكثر أناقة وهدوءاً وخفوتاً (الصورة 4-12) بدلاً من الألوان الزاهية والمذهلة؛ وخاصة مع الأفكار



الصورة 4-13 الجدار الحاجز أمام بوابة معبد هانشان، سوتشو (تصوير مينغ جيا لين)

يبدو الجدار القائم أمام البوابة الجبلية وكأنه حاجز حماية، وهو يواجه النهر من جهته الغربية. ويبدو آية في الإبداع بنتوءاته التي تبدو على شكل تنين ملتوٍ، وقد تم وضع ثلاثة حجارة عملاقة على الجدار الأصفر كُتِب عليها «معبد هانشان» (أي معبد الجبل البارد)؛ وهي عبارة تلفت الانتباه إلى المعبد، كما أنها أول مشهد مثير يواجه الأبصار.

القديمة القائلة إن الألوان القوية تدعو المتفرج عليها إلى الطيش والجشع، بينما تخفف الألوان الخافتة والأنيقة من رغبات الناس؛ وهو الجو المناسب أكثر للعقول التي تستهويها فلسفة بوذية تشان.

حافظ منشئو حدائق المعابد هذه على كون المشهد الطبيعي والمباني والنباتات غير مزينة بالألوان؛ سواء أكانت الجدران المبيَّضة، أو أشجار الخيزران الخضراء، أو الطحالب الخضراء، أو اللوتس الأبيض. وكما نلاحظ، جميع هذه الألوان أنيقة ومثالية؛ وهي مستخدمة أكثر من غيرها.



ومن الأمثلة على ما ذكرناه المشهد المحيط بمعبد الجبل البارد في سوتشو، حيث يوجد جدار حاجب (الصورة 4-13) أمام بوابة المعبد تحمل نقشاً مفاده: «معبد الجبل البارد»، كما يوجد مقابل بوابة القمر برج الجرس (الصورة 4-14) غير المزين والمتميز بجدرانه الصفراء وقرميده الرمادي، وتتوزع من حوله أشجار القيقب ذات الأوراق الحمراء، بالإضافة إلى أشجار أخرى خضراء تزين الموقع. تغلب الألوان: البني والأسود والأخضر الداكن على بنى البيوت الخشبية التي تترك عند اجتماعها مع الجدران البيضاء والصفراء والقرميد الرمادي أثراً من البساطة والبعد عن الزخرفة، وتبث شعوراً بالأناقة والسكينة يتكامل مع المحيط الطبيعي من هضاب ومياه وأشجار.

كان للحدائق الخاصة التي بناها الأدباء ومسؤولو الدولة العلماء المتأثرون بالفلسفة البوذية أثر عميق في أسلوب تصميم الحدائق في جيانغنان، وفي الأسس الفنية التي شُيّدت هذه الحدائق على أساسها. فطائفة تشان البوذية تركز أيضاً على أهمية تجربة الإنسان للشعور بالوجود اللامتناهي غير المحدود في المساحات المقيدة المتناهية؛ وهي تجربة تحطم الحدود بين البيئة المصطنعة في الحدائق الصغيرة والطبيعة الحقيقية هائلة الحجم، وتقدم إمكانيات لا نهاية لها لتجربة جمال المشاهد؛ حتى ضمن مساحات الحدائق المحدودة. أثّرت روحية فلسفة تشان على مفاهيم رجال العلم والأدب المذكورين، ويمكننا أن نجد أثرها في كل مكان في الحدائق الخاصة في جيانغنان. وبخلاف الحدائق الإمبراطورية في شمال الصين ذات الحجم الهائل والتصميم المهيب المتناظر والمتسق، ركزت هذه الحدائق الخاصة على صغر الحجم، وكان المثال الذي تسعى إليه هو تقديم مشاهد لا متناهية ضمن مساحة صغيرة متناهية. لم ينعكس التركيز على الصغر على حجم الحديقة فحسب، بل على تقسيم هذه المساحات والمواضيع المختارة

الصورة 4-14 برج الجرس في معبد هانشان في سوتشو (تصوير لانغ تشي)

يغطي سقف مزدوج البرج في مقصورة مسدسة الشكل، ويتميز ببنية بسيطة وأنيقة. يُعرف البرج بسيط المبنى وذو الجدران غير المزينة باسم «صوت الجرس الذي يدق عند منتصف الليل».



الصورة 4-15 نافذة الزهور في حديقة التريث، سوتشو (تصوير وو دي في)

بالإضافة إلى المشاهد الطبيعية الخلابة التي يحق لحديقة التريث أن تفخر بها، والتي تتألف من الصخور والنباتات، فإن مساحاتها الصغيرة والكبيرة مقسمة إما ببناء أو بمجموعة من الأبنية أو بمشهد طبيعي مصغر مثل الباحة أو الحديقة. تُصنَّف حديقة التريث كإحدى أفضل الحدائق الخاصة من حيث الأشكال الغنية التي تقدمها مساحاتها.

لكل قسم، وتصميم كل قسم الذي عليه كما أسلفنا أن يعكس تجلي اللامتناهي في المساحة البديعة الصغيرة لكل مشهد.

تشمل الحدائق صغيرة الحجم وبديعة التصميم التي تجسد هذه المبادئ حديقة ييمويوان، وحديقة شاويوان، وحديقة بانمويان، وحديقة هويوان. يعتبر مثلاً التصميم المساحي لحديقة التريث (الصورة 4-15) لا مثيل له في الصين. وباستطاعة الزوار أن يدخلوا الحديقة من «منزل طائر الكركي» ويصلوا إلى بركة الماء في مركزها عبر قاعة القمم الخمس السماوية، وقاعة النسيم المنعش، ومنزل تشيوي تشيان. كما يمكنهم دخول الحديقة عبر بوابة الحديقة، وعندها يتبعون طريقاً ملتوياً يصل بهم إلى القسم الشرقي من الحديقة عبر منزل تشيوي تشيان وقاعة القمم الخمس السماوية. تشتمل هذه المساحة على مشاهد يتم فيها التركيز على التباين بين الصغير والكبير من حيث الحجم، وبين السطوع والظلام من حيث الإنارة، وبين الانفتاح والانغلاق من حيث تصميم المساحات، وتشكل كلها نمطاً مساحياً يسوده إيقاع متقلب بين الارتفاع والانخفاض. بعد الاستمتاع بمشاهد الهضبة والبركة، يصل الزائر إلى شرفة في القسم الخلفي، حيث يبدو له الأمر وكأنه لم يعد لديه أي مشهد ليراه. ولكن باتجاه الشمال، يوجد باب نُقشَت عليه أحرف تعني: «قرية أخرى»، وحين يفتحه يجد عالماً آخر ينتظره وراءه. يصنع هذا التصميم أثراً فنياً يُسمّى: «عميقاً وعميقاً! وإلى أي عمق أكثر بعد تقع الباحة».

إذا عدنا لنلقي نظرة أخرى على حديقة سيد الشبكات، والتي تقع على مساحة لا تتجاوز 9 مو، فإن تصميمها العام يقسمها إلى جزءين مترابطين: مكان الإقامة الشرقي والحديقة الغربية، ويشكل هذا التقسيم كلاً متكاملاً. توجد بركة ماء صغيرة في وسط الحديقة، ويحيط بها من جانبيها كل من «مقصورة القمر يأتي مع النسيم» (الصورة 4-16)، وممر رماية البط، ومبنى الخيزران خارج المنزل، ومقصورة غسل شريطة القلنسوة وغيرها. ورغم صغر حجم هذه المباني إلا أنها بديعة التصميم، ومتناسقة مع حجم البركة، وفسيحة الغرف، وحسنة التهوية. أما المباني أو القاعات العالية الأكبر حجماً فتخبئها الأشجار والحجارة والمقصورات؛ مما يُولِّد شعوراً بالعمق والتدرج في مشاهد الحديقة، ويحول أيضاً دون هيمنة



الصورة 4-16 مقصورة «القمر يأتي مع النسيم» في حديقة سيد الشبكات في سوتشو، جيانغسو (تصوير هوي يان)

تقع مقصورة «القمر يأتي مع النسيم» غرب بركة السحب الزهرية في حديقة سيد الشبكات، وتشتهر بمواضعها ذات المشاهد الجميلة في وسط الحديقة. حصلت المقصورة على اسمها من بيت الشعر الذي كتبه شاو يونغ- الذي عاش في حقبة سلالة سونغ - القائل: «يمر النسيم على الماء حين يتحرك القمر إلى كبد السماء». لقد أُنشِئت المقصورة على حافة مائية عند ضفة البركة الغربية، ويحيط بها الماء من ثلاثة جوانب. عُلِّقت مرآة ضخمة في وسط المقصورة، وحين يطلع القمر يستطيع الزوار أن يشاهدوا منظراً ساحراً يتألف من ثلاثة أقمار: القمر في السماء، والقمر المنعكس من الماء، والقمر المنعكس من المرآة.

المباني على المشاهد المنعكسة من البركة. باختصار، إن بركة سيد الشبكات - رغم صغرها - جوهرة تاج الحدائق الخاصة في سوتشو.

عبَّر الأدباء والعلماء عن تأثرهم بالحرية ومحبة الطبيعة التي تدعو إليها طائفة تشان البوذية في حدائقهم الخاصة في جيانغنان، حيث أضفوا لمسات فكر هذه الطائفة على المشاهد الطبيعية، ودمجوا أجواءها الروحية مع المحيط الطبيعي والمشاهد التي تظهر في الحدائق؛ فكانت النتيجة أن أتاحت هذه الحدائق المجال أمامهم كي يعيشوا في جو الحرية النفسية والتعالي الروحي اللذين تدعو إليهما الفلسفة التي يتبعونها. منذ أن برزت طائفة تشان، وجدت أفكارها طريقَها بسرعة إلى تصميم الحدائق التقليدية في جيانغنان. فحيث تجد ظلاً تجد جداراً من الجص، وحيث تجد رياحاً تجد تنهداً لها بين أشجار الصنوبر، وحيث تجد مطراً تجد موز البلانتين، وحيث يوجد شعاع للقمر ستجد بركة لزهرة اللوتس. كما أن صنع خيال مثالي من العالم الحقيقي دفع أصحاب الحدائق إلى بناء المقصورات والباغودا، ومراكمة التلال الصناعية، وشق السبل المائية، وزراعة الزهور والأشجار النادرة. وهكذا، ظلت مفاهيم بوذية تشان في غاية القرب من المشاهد الطبيعية، ومكّنت الناس من الشعور بالحرية الروحية وعدم التقيد بمحيطهم المادي.

بطبيعة الحال، لا يمكننا القول إن التيارات الفكرية والفلسفية والروحية النابعة من المدارس الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية كانت مستقلة ومنفصلة عن بعضها بعضاً في ممارسة تأثيرها على الحدائق الصينية، بل رفدت بعضها، وامتزجت أثناء تطورها الطويل في أحقاب التاريخ الصيني. وكان لهذا التزاوج والتلاقح الروحيين أن أنتجا مضامين أغنى وأعمق في الحدائق الصينية أوصلت هذه التيارات الثقافية المختلفة إلى الاندماج في ما بينها وإلى أن يُتمِّم بعضها بعضاً.



الفصل الخامس

التعبير عن الافتتان
– تقدير جمال الحدائق الصينية

المضامين الجمالية في أسماء الحدائق والأبيات المزدوجة المقفاة

تعتبر الحدائق الصينية وحدة عضوية يتكامل فيها الجمال الطبيعي مع الجمال المعماري مع الجمال الفني؛ فقد تمكَّن منشئو هذه الحدائق القدماء بفضل حكمتهم ومواهبهم ومن خلال التهذيب الفني والترتيب المبدع من صنع مشاهد كثيرة التنوع في مساحات الحدائق المتفاوتة بين الأراضي الشاسعة التي تغطيها الحدائق الإمبراطورية، ومساحات الحدائق الطبيعية الضيقة، وصولاً إلى المشاهد الطبيعية العريقة التي تطل عليها حدائق المعابد. وتشهد المقصورات والشرفات والقصور والمباني المجاورة للمياه والباحات والهضاب الطبيعية المصنوعة من الصخور وبرك اللوتس والقوارب المطلية على دقة مصممي الحديقة، وبراعتهم في صنع المشاهد فيها؛ حيث قدّموا للتاريخ رسوماً فنية على ألواح هذه الأراضي، ومكّنوا زوار الحدائق من الاستمتاع بجمال الغابات الخضراء وجلال الجبال الشاهقة؛ بدون أن يضطروا إلى مغادرة المدينة.

وكما هو الحال في الرسوم الصينية، ارتبط بناء الحدائق الصينية بشكل وثيق مع الاسم الذي يُطلَق على الحدائق، والكلمات المنقوشة في أطرافها التي عليها أن تندمج مع المشهد المحيط بها وتتمّمه. تعتبر تسمية الحدائق أو المواقع فيها جزءاً عضوياً من فن تصميم الحدائق، وتُرسَم هذه الأسماء عادة أو تُحفَر على عتبات الأبواب، أو على ألواح خشبية أفقية معلقة فوق البوابات، أو على الأحجار، وتزيد من سحر الحديقة وتضفي عليها المزيد من الحياة من خلال توضيح الموضوع الذي يدور حوله تصميم الحديقة أو المشهد، والتعبير عن مشاعر مصمم الحديقة وطموحاته. وتحفل هذه العناوين بالمفاهيم الفلسفية المعقدة، أو السحر الريفي البسيط، أو المعاني الخفية التي تنم عن الذوق الرفيع وتلعب دور «اللمسة الفنية الأخيرة» على المشاهد الموجودة في الحدائق؛ لتلهم المتفرج الحكمة، وتزيد من اهتمامه بمشاهدة المناظر، وتوصل اللذة الجمالية التي يسعى مصمم الحديقة إلى التعبير عنها.

كانت أسماء الحدائق في الأصل مجرد رموز موجَّهة إلى المتفرج، وكانت الحدائق كثيراً ما تُسمّى على أسماء أماكن أو أشخاص، مثل حديقة الوادي الذهبي

التي بناها شي تشونغ أثناء عهد سلالة جين الغربية، وقد سُمِّيت على اسم المكان الذي تقع فيه، أي الوادي الذهبي في خهنان. وكذلك وانغتشوان بيه يه الذي يَنسب اسمه إلى وانغ وي، والكوخ المسقوف بالقش المُسمى على اسم باي جيوي يي (وللملاحظة، إن وانغ وي وباي جيوي يي كانا شاعرين مشهورين عاشا أثناء حقبة سلالة تانغ). وكذلك سُمِّيت بعض الحدائق على أسماء عائلات أصحاب الحدائق، أو وفق الألقاب الرسمية التي مُنِحوا إياها؛ مثل حديقة دونغ الشرقية أو حديقة الوزير شِن. كذلك وبالمقابل، أُطلِقت على بعض الحدائق أسماء معاني كلمات معينة؛ كما فعل سي ما قوانغ في عهد سلالة سونغ، حيث سمّى الحديقة الواقعة في لوه يانغ: «دو له» (أي السعادة المنفردة)، وهو اسم يقترح أهمية حفاظ المرء على نزاهته الشخصية من خلال الاستمتاع بالعزلة.

لاحقاً، اشتُقّت أسماء الحدائق الصينية إما من الكتابات القديمة أو من قصائد المثقفين؛ تعبيراً عن إعجاب صاحب الحديقة بالمشاهير من السلالات السابقة، أو لطموحاته أثناء خلوته بنفسه. وتوضِّح هذه الأسماء المواضيع الأساسية التي يقوم عليها تصميم الحدائق، وتُرشِد الزوار إلى المضامين العميقة الكامنة خلف مشاهدها.

على سبيل المثال، كان «رن لان شينغ» هو من بنى حديقة العزلة والتأمل (الصورة 5-1) في محافظة تونغ لي في مقاطعة جيانغسو، وهو من مسؤولي الدفاع العسكريين أثناء أواخر عهد سلالة تشينغ، ولكنه أقيل من منصبه وعاد إلى مسقط رأسه.



الصورة 5-1 حديقة العزلة والتأمل (تصوير ما ياو جيون)

كان صاحب الحديقة رن لان شنغ يعمل في سلك الدفاع العسكري أثناء عهد سلالة تشينغ، ولكنه أقيل من منصبه بعد أن اختلس بعض المال. وبعد طرده، عاد إلى مسقط رأسه، وأنفق مئة ألف ليانغ من الفضة في بناء الحديقة. وقد أخذت الحديقة اسمها من سطر في كتاب «شرح تسوه على تشونتشيو» ذُكِر فيه: «حين تخدم في البلاط الملكي، قدِّم حياتك في سبيل بلادك. وحين تعتكف في مسقط رأسك، فكِّر في أخطائك».

اشتق شينغ اسم حديقته من سطر في كتاب «سجلات تسوه»، ويشير إلى أهمية تفكّر الإنسان في أخطائه.

وكذلك حديقة الحاكم المتواضع في سوتشو بناها وانغ شيان تشن الذي كان يعمل كمراقب في الدولة أثناء عهد الإمبراطور جيا جينغ من سلالة مينغ، ولكن عمله في الدولة واجه مشاكل كبيرة، فبنى هذه الحديقة واشتق لها اسمها من سطر من «القصيدة النثرية حول الحياة السعيدة» التي ألفها بان يويه - وهو من أدباء عهد سلالة جين الغربية - والتي قال فيها إن سقاية الحديقة وزرع الخضروات هي الشؤون السياسية التي تهم الرجل المتواضع (طبعاً في إشارة من صاحب الحديقة إلى نفسه).

أما حديقة شه يوان، فقد أعاد بناءها شن بينغ تشنغ، حاكم آنهوي أثناء أواخر عهد سلالة تشينغ. وكان تشنغ ينحدر من عائلة فقيرة، وقد بنى حديقته بعد أن أقيل من منصبه أيضاً، وقد أعاد تسمية الحديقة إلى «أو يوان»، وكلمة أو تعني «الزوجان»، فكأنه يشير إلى حياة العزلة التي ينوي هو وزوجته أن يعيشاها في الحديقة.

في الأصل، كانت حديقة سوي يوان في نانجينغ تخضع لملكية سوي خه ده؛ المشرف على تجارة الحرير الإمبراطورية في جيانغنينغ (نانجينغ اليوم)، ولذلك أعطيت اسمها الذي يعني: حديقة سوي. بعد ذلك، وبينما كان الشاعر يوان مي (من عهد سلالة تشينغ) يشغل منصب قاضي محافظة جيانغنينغ اشترى الحديقة، ومع أنه حافظ على اسمها كما هو إلا أن هدفه من التسمية كان مختلفاً، إذ كان يشير إلى تنظيم الحديقة، وإلى تعامل صاحبها الجديد الاجتماعي. وبالنسبة إلى تنظيم بناء الحديقة، فقد صُمِّمت بحسب الظروف المحلية. أما في ما يتعلق بتعامل صاحبها الاجتماعي فلم يكن شاعرنا يحفل بالشهرة أو المكسب المادي، بل كان يتكيف مع كل وضع تفرضه عليه الحياة برضى وسعادة؛ فأصبح للفظ «سوي» معنى أعمق يقدم الكثير من المادة الفكرية التي يمكن للعقل أن يغوص فيها.

يعكس اسم الحديقة إرادة صاحبها الشخصية، وأسلوبه في كامل مشاهد الحديقة؛ لكن المشاهد المحددة في الحديقة تسمى عادة باسم الميزة الطاغية ضمن المشهد. فعلى سبيل المثال، إذا تجوّلنا في حديقة التريث في سوتشو يمكننا أن نستمتع بالجبل الأخضر والمياه في فيلا جبل هانبي، أو أن نشم عطر زهور



الصورة 5-2 قلعة ربيع التفاح البري في حديقة الحاكم المتواضع، سوتشو (تصوير وو دي في)

تغطّي قطع قرميد بديعة الجدار الجنوبي من الحديقة، وقد قيل عن شجرتَي التفاح البري عندما تتفتح زهورهما كامل التفتح في الربيع إنهما «خجولتان مثل فتاة جميلة». تغطي الباحةَ حجارةٌ مرصوفةٌ رماديةٌ وحمراء وبيضاء تشكّل نمطاً يناظر نمط التفاح البري الصيني، ورغم صغر حجم الباحة، إلا أنها هادئة وأنيقة وتشكل مكاناً مثالياً للقراءة والتفكر.

العبقة في مقصورة أريج العبق، أو أن نستمتع بالنسيم في «مقصورة النسيم المنعش» بجانب البحيرة، أو أن نشاهد الطيور والوحوش في مقصورة هاوبو. ومع التغير الذي تشهده كل خطوة في الحديقة، تظهر أمامنا المشاهد الواحد تلو الآخر. وبالطبع، إن الترتيب المتناغم والمتسق للمشاهد يزيد من جمال الحديقة بأسرها.

ومن الأمثلة الأخرى حديقة الحاكم المتواضع، حيث نجد قاعة المغنوليا المشيدة للاستمتاع بزهور المغنوليا في أوائل الربيع، وقلعة التفاح البري (الصورة 5-2) المبنية لمشاهدة التفاح البري الصيني وهو يزهر في منتصف الربيع، ومقصورة زهر عود الصليب حيث يستطيع الزوار الاستمتاع بهذه الزهور في أواخر الربيع. تعكس هذه الأسماء بدقة المشهد الذي تشير إليه، وتمزج المشهد والاسم مع

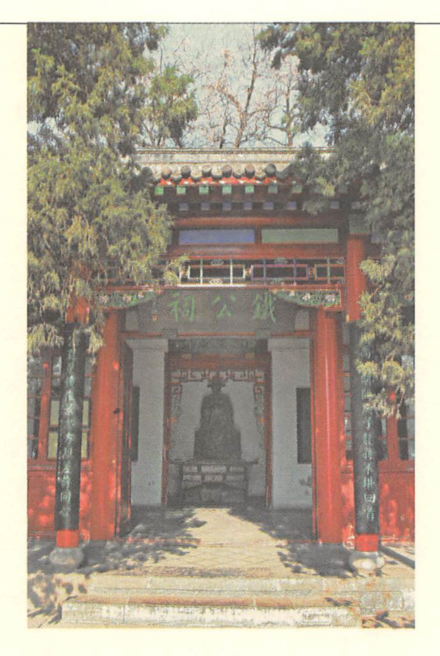
مشاعر الزائر. أهم وظيفة تلعبها تسمية الحدائق الصينية ومواقعها المختلفة هي أنها ترشد الزوار إلى هدف مصمم الحديقة أو المشهد كي يستمتعوا بجماله وتناسقه الظاهرين، ولتتيقظ مخيلاتهم في محاولة المطابقة بين هدف المصمم وما صنعه بالفعل.

تحرك أسماء مثل «قاعة النسيم المنساب» ومقصورة هاوبو وأخدود الزهور الكوبية (السيلفيوم) مشاعر الناس، وتذكرهم بأعمال كلاسيكية مثل قصيدة «أغنية إلى زهرة اللوتس» التي ألفها تشو دون يي، وقصة السمك الممتعة التي ذكرها تشوانغ تسي، ولذة الاجتماع في مقصورة الزهرة السحلبية. كما تهدف أسماء أخرى مثل «الطريق المتعرج الموصل إلى المنطقة المنعزلة»، و«المشاهد المتزايدة في الجاذبية»، و«عالم آخر من الكهوف» (ومعنى «العالم الآخر» هنا هو عالم من الجمال والجاذبية) إلى إثارة اهتمام الناس الباحثين عن المناطق المنعزلة ذات الجمال الخلاب.

بالإجمال، إن هذه الأسماء المختصرة بمضامينها البليغة تلخِّص المعاني العميقة التي تحملها مشاهد الحدائق وتوصلها إلى الزائر؛ حيث يتمكن من الاستمتاع بالمشاهد الفنية التي صنعتها جهود مصممي الحدائق الشاقة، وحيث يصل إلى الشعور الجمالي الذي يسعى أولئك المصممون إلى بثه فيه.

إن فن كتابة الأبيات الشعرية المزدوجة والمقفاة (أو ما يسمى بالعربية: الدوبيت) من الفنون الأدبية العريقة في الصين، ويُستخدَم بشكل واسع في الحدائق التقليدية لصنع جو من البساطة والأناقة من ناحية، ولتوضيح موضوع الحديقة أو المشهد أكثر؛ بهدف إضفاء جو يستثير الفكر بالإضافة لكونه يسرّ الحواس، ويدفع الزوار إلى فهم غرض مصمم الحديقة وتقديره. ولا شك في أن جمال معنى الأبيات، بالإضافة لإبداع الخطاطين الذين كتبوا هذه الأبيات منحا الحدائق لمسة إضافية من الجمال.

على سبيل المثال، تحيط بجانبي بوابة شي يوان عند معبد تيه قونغ للأسلاف في بحيرة دامينغ في مدينة جينان أعمدةٌ نُقِش عليها بيتا الشعر المشهوران: «بوجود زهور اللوتس عند بحيرة دامينغ، وإحاطة أشجار الصفصاف بها من ثلاثة جوانب،



الصورة 3-5 معبد تيه قونغ للأسلاف عند بحيرة دامينغ في جينان (تصوير وانغ داي وي)

على كل من جانبي بوابة شي يوان على مدخل معبد تيه قونغ للأسلاف نجد «دوبيت» يقول: «بوجود زهور اللوتس عند بحيرة دامينغ، وإحاطة أشجار الصفصاف بها من ثلاثة جوانب، فإنها تزين نصف مدينة جينان وتُظهِر مشاهد الجبال». ولعل هذا أشهرُ دوبيت في جينان بأسرها؛ إذ يفتخر سكان المنطقة به، وبوصفه الدقيق لجمال جينان وبحيرتها الشهيرة.

فإنها تزيّن نصف مدينة جينان وتُظهِر مشاهد الجبال» (الصورة 3-5). ألف هذا الدوبيت ليو فنغ قاو، وهو شاعر من عهد سلالة تشينغ، وقد رسمها تيه باو على الأعمدة؛ وهو خطاط شهير. لطالما اشتهرت بحيرة دامينغ بازدحام أزهار اللوتس فيها، وأغصان الصفصاف المتدلية على ضفافها، وتندمج هذه العناصر معاً لتصنع مشهداً خلاباً لا ينسى. يصف الدوبيت المشهد في البحيرة خير وصف، وقد تداولته ألسن الناس منذ أن كتبه مؤلفه؛ وذلك لبساطته وتناغم وزنه وقافيته.

في حديقة التريث في سوتشو تقبع مقصورة أريج زهر العبق على هضبة اصطناعية مشيدة بحجارة يميل لونها إلى الأصفر. تغطي زهور العبق الهضبة، وتبث أريجها في كل مكان حولها في الأشهر القمرية عند منتصف الخريف، ولذلك حصل هذا الجزء من الحديقة على اسمه هذا. نجد في هذه المقصورة الدوبيت التالي: «تُبرِز بشاعة الصخور بهاء الهضبة، بينما يسري أريج زهور العبق في الهضاب أثناء الخريف»، ويعكس هذا الشعر المشهد العجيب الذي تتجمع فيه صخور بشعة لتصنع هضبة بديعة وبهية يتخللها أريج زهور العبق.

في الواقع، إن جبل جياوشان في مدينة تشنجيانغ جزيرة صغيرة تقع في نهر يانغتسه. وفي وسط الجبل يقع دير بيه فينغ آن للراهبات؛ وهو مبنى جميل تحيط به الأشجار الخضراء والخيزران، وتتّصف أجواؤه بالهدوء والسكينة. يحتوي دير الراهبات على غرفتين للدراسة كان يدرس فيهما في ذات يوم تشينغ بان تشياو، الخطاط الشهير الذي عاش في عهد سلالة تشينغ. وقد علّق على الباب «دوبيت» يقول فيه: «إن الغرفة البهيجة ليست بالضرورة كبيرة، وأريج الزهرة ليس بالضرورة



الصورة 5-4 دوبيت مكتوب داخل مقصورة يي فينغ في حديقة التريث في سوتشو (تصوير هوانغ يوان) الصفحة 149

كان تشينغ بان تشياو- الرسام والخطاط الذي عاش أثناء حقبة سلالة تشينغ - هو الذي رسم هذا الدوبيت، وما يعنيه هو أن الفراشة تفكر في حماية طلع الزهرة حتى وهي تمتص رحيقها، وأن الطير الصافر مع أنه خجول إلا أنه يغني بأعلى صوته في اللحظة التي يتعلم فيها الغناء. يعبر الدوبيت إجمالاً عن محبة الأشياء الجديدة والعناية بها.

ذا قوة». ما أراد تشينغ أن يقوله هنا هو أن بيئة الحياة الطيبة لا تحددها بالضرورة ضخامة المساحة، بل يجب أن تتسم بأجواء شاعرية، وبهذه الطريقة تتغلب البهجة على كبر الحجم، ويمكن للأقل أن يتغلب على المزيد - وعلينا أن نتذكر هنا أن «الأقل البهيج» هو السمة المميزة لحدائق الأدباء والعلماء الخاصة.

مع أن الأبيات المزدوجة أو الدوبيت (الصورة 5-4) المنقوشة والمرسومة في الحدائق ليست إلا مجرد كلمات قليلة، إلا أنها تحفل بالمعاني المعبرة، وتلعب دور اللمسة الأخيرة على مشهد الحديقة. بعض هذه الأشعار فلسفي يستفز الذهن للتفكير، وبعضها الآخر يستفز المشاعر بالجو الذي يثيره، وبعضها الآخر ينير الطريق أمام قارئها؛ إذ يوضِّح مقصده مباشرة. لا غنى لفن زراعة الحدائق الصينية عن الأشعار، وقد أصبحت هذه الأشعار جزءاً لا يتجزأ من هذه الحدائق.

التصور الفني للحدائق الصينية

قال أحد الفلاسفة: «الشيء الوحيد الأوسع من البحر هو السماء، والشيء الوحيد الأوسع من السماء هو قلب الإنسان». لا يمتلك عقلنا البشري إلا هذه المظاهر الحسية المحدودة التي تتعلق بها مداركنا لينطلق منها، ولكنه قادر على بسط جناحيه ليسمو فوق قيود الزمان والمكان، وهذا السمو هو الأساس الذي يقوم عليه أي تصور فني يتولد منه الإبداع والجمال.

إن توفر هذا التصور الفني هو السمة البارزة في تقدير جمال الفن الصيني. وإذا أخذنا الفن الذي نبحث فيه في عملنا هذا - أي فن الحدائق الصينية - فقد رأينا أن هذه الحدائق تحفل بالمضامين الفلسفية والعاطفية والأساليب والسمات التقليدية. فما هو «التصور الفني» إذاً؟

بأبسط عبارة، التصور الفني عالمٌ من الجمال يتألف من مفاهيم ترتبط مع صور، وصور ترتبط مع مفاهيم، وجميعها يقع ضمن المدى الذي يعرِّفه الحس الجمالي الموجود في الفن الصيني التقليدي. يشير المفهوم إلى عقول الناس ومشاعرهم، ويقع ضمن المدى الذاتي (subjective) للفن، أما الصورة فتشير إلى البيئة الحقيقية، أي إلى المدى الموضوعي (objective) للفن. ويمثِّل التصور الفني أعلى درجة من الوحدة بين الذاتي والموضوعي، وتنتج عنه صورة أبعد من الصورة الظاهرة، ومشهدٌ أعمق من المظهر البادي للعيان؛ فالتصور الفني مزيج من المشاعر الباطنة والمحيط الطبيعي الظاهر من ناحية، وعالم فني تندمج فيه الروح والمظاهر والمشاعر والعقول في وحدة متناغمة تصنع الحسن والجمال، ويستطيع الناس أن يستمتعوا بها ويقدروها.

تشمل خصائص التصور الفني: التعبير عن اللامحسوس بالأشياء المحسوسة، والتعبير عن المطلق اللامتناهي بالمقيد المحدود، والتعبير عن الروحي المعنوي بالحسي المادي، أو التعبير عن أرض الخيال بالمشاهد الموجودة في أرض الواقع؛ حيث يستخدم العالم الظاهر الحسي كرمز يشير إلى العالم المعنوي. تشبه الحدائق الصينية القصائد والرسوم الصينية في تعاملها مع الزمان والمكان؛ إذ يسعى كل من المشاهد التي يصممها البستاني في حدائقه، والصور التي يبنيها الشاعر في قصائده، أو يرسمها الفنان على لوحاته إلى صنع أثر فني محدد؛ وذلك من خلال

صنع جو من هذه الصور والمشاهد؛ وعلى أساس المبدأ الفني الخلاق القائل إنه على الفنان أن يصف اللانهائي ضمن المساحة المتناهية المتاحة له في وسيلة تعبيره؛ سواء أكانت حديقة أم لوحة أم قصيدة.

في الحدائق الصينية، وخاصة الحدائق الخاصة الواقعة في جيانغنان، يستخدم البستاني كل ما هو متوفر له: كالرمال والحجارة والمياه والتربة والنباتات وحتى الحيوانات لصنع الآثار الفنية اللامتناهية في محيط الحديقة الطبيعي.

وما يحدد التصور الفني الذي تقوم عليه الحديقة والسمات المميزة لهذا التصور هو مدى تحصيل البستاني العلمي والثقافي. ولهذا، نجد أن أدباء وفنانين هم الذين صمموا الكثير من الحدائق المشهورة. عادة، يكون البستانيون المشهورون ضليعين بفنون الرسم وكتابة الشعر والمقولات القصيرة وعميقة المغزى، وعادة يلعب الاستخدام المعتدل للرسوم والأشعار والمقولات الفلسفية دوراً في غاية الأهمية في بناء الحدائق.

إذاً، يرتبط فن بناء الحدائق ارتباطاً وثيقاً مع رسم المناظر الطبيعية وكتابة الأشعار، ولطالما استعار مصممو الحدائق نظريات رسم المناظر الطبيعية في تنظيمهم لمناظر الجبال والأسطح المائية، وترتيبهم المباني والقطع المعمارية التزيينية، وزراعة النباتات؛ ولطالما كان المشهد الطبيعي الأصلي الذي قامت عليه الحديقة هو الباعث الملهم لتصوّر موضوعها العام والأشعار المكتوبة على ألواحها. إن هذه الروابط ما بين الفن والطبيعة ونفس الفنان هي ما يضفي هالة الجمال الهادئ الذي تتميز به الحدائق الصينية.

مثلاً، في حديقة سيد الشبكات تقع مقصورة «القمر يأتي مع النسيم» قرب الماء، وتربط المقصورة بين زائرها والقمر والرياح والماء. وإذا كان الزائر ذا خيال شاعري خصب فسوف يجعله هذا المحيط يشعر أنه جزء من بحر الحياة الزاخر واللانهائي.

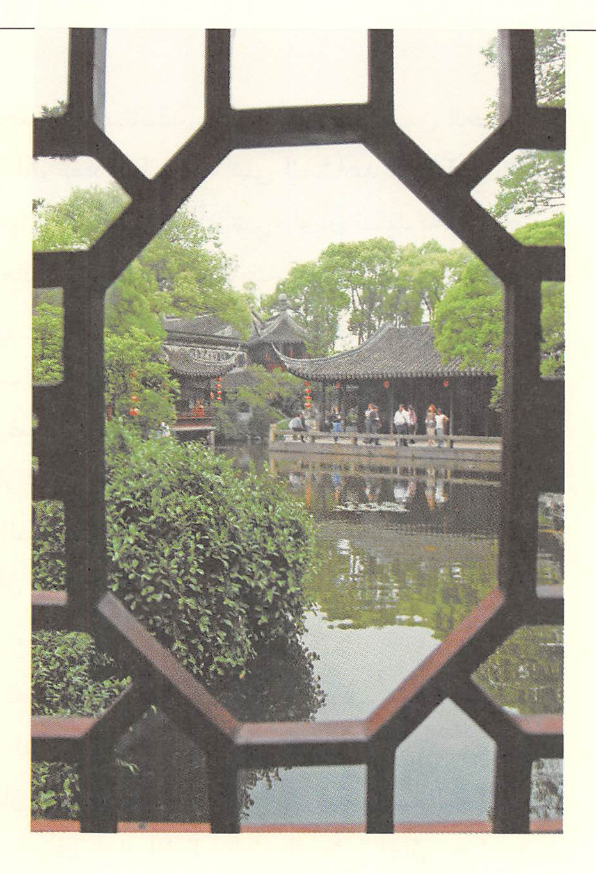
من الأمثلة الأخرى: «البرك الثلاث تعكس القمر» (الصورة 5-5) في البحيرة الغربية في هانغتشو. ففي الليالي التي يُنيرها ضوء القمر، يتآزر ضوء المصباح مع نور القمر الساطع كي يبرزا جمال بعضهما بعضاً، ويندمج انعكاس نور القمر على سطح المياه مع انعكاس الباغودا والسحب في كل متكامل يحمل في ثناياه جواً شاعرياً تشحنه عواطف أعمق من أن يعبر عنها.

الصورة 5-5 مشهد الغسق في «البرك الثلاث تعكس القمر» في البحيرة الغربية في هانغتشو (تصوير شيه قوانغ هوي)

يطلق هذا الاسم على الجزيرة الكبرى بين الجزر الثلاث في البحيرة الغربية، ويحيط بالجزيرة سد على شكل حلقة. توجد بركة داخل الجزيرة، تحيط بها مبانٍ بديعة، كما تزين زهور مختلفة تتفتح طوال السنة أرجاء الجزيرة؛ حتى إنه قيل عنها إنها أرض أساطير على الماء. تحتوي الجزيرة أيضاً على ثلاثة مباني باغودا يبلغ ارتفاع الواحدة منها مترين.

لهذا، اشتُهرت الحديقة الصينية بأنها «قصيدة متجسدة ورسم ثلاثي الأبعاد». لكن التصور الفني الذي تقوم عليه الحدائق يختلف عن نظيره في القصائد والرسوم؛ فالتصور الفني في القصائد يقوم على الكلمات، أما في الرسوم فيقوم على الخطوط والألوان، في حين أنه في الحدائق يقوم على المشاهد الحقيقية والمساحات الواقعية.

لقد شيد المصممون والبناؤون عبر سلالات العائلات الإمبراطورية الصينية المتعاقبة الكثير من الحدائق؛ بحسب الظروف الجغرافية المحلية والأساليب التي



الصورة 5-6 مشهد جميل عبر نافذة متشابكة في حديقة العزلة والتأمل (تصوير كه قان لين)

إن حديقة العزلة والتأمل صغيرة الحجم وبديعة الجمال، وقد توزعت جميع مقصوراتها وشرفاتها وأبراجها بشكل جذاب في أرجاء مساحة الحديقة. إن مقصورة التفرج على المشاهد متعددة الطوابق ذات شكل غير منتظم. ويطل الزوار هنا على كامل الحديقة، بل وعلى جمال البحيرات والجبال في الأفق البعيد، ويمكنهم أن يستمتعوا بكل المشاهد الجذابة من دون أن يغادروا المنزل؛ بل بمجرد النظر من النافذة المفتوحة!

تفرد بها كل واحد. ولكن، رغم تنوع مناظر الحدائق إلا أنها جميعها تشترك في سمة مميزة واحدة؛ إذ أينما يقف الزائر في الحديقة فسوف يجد أمامه صورة مثالية من الجمال. وكان صنع هذه المشاهد الريفية الهادئة هو سبب إعطاء ترتيب المشاهد القريبة والبعيدة هذه الأهمية الكبرى، حيث يكون تنظيم المقصورات والشرفات والغرف والمقصورات المائية، وصنع الهضاب الاصطناعية والبرك والنباتات كالمحيط الذي تتولد منه المشاهد الرئيسة في الحديقة (الصورة 5-6).

يتطلب الفهم الكامل للصور الشعرية والفنية التي تسعى الحديقة إلى بثها في نفس الزائر أن يفهم هذا الزائر الأساليب المعتادة في إنشاء الحدائق وترتيبها والمضامين الثقافية العميقة المحتواة فيها.

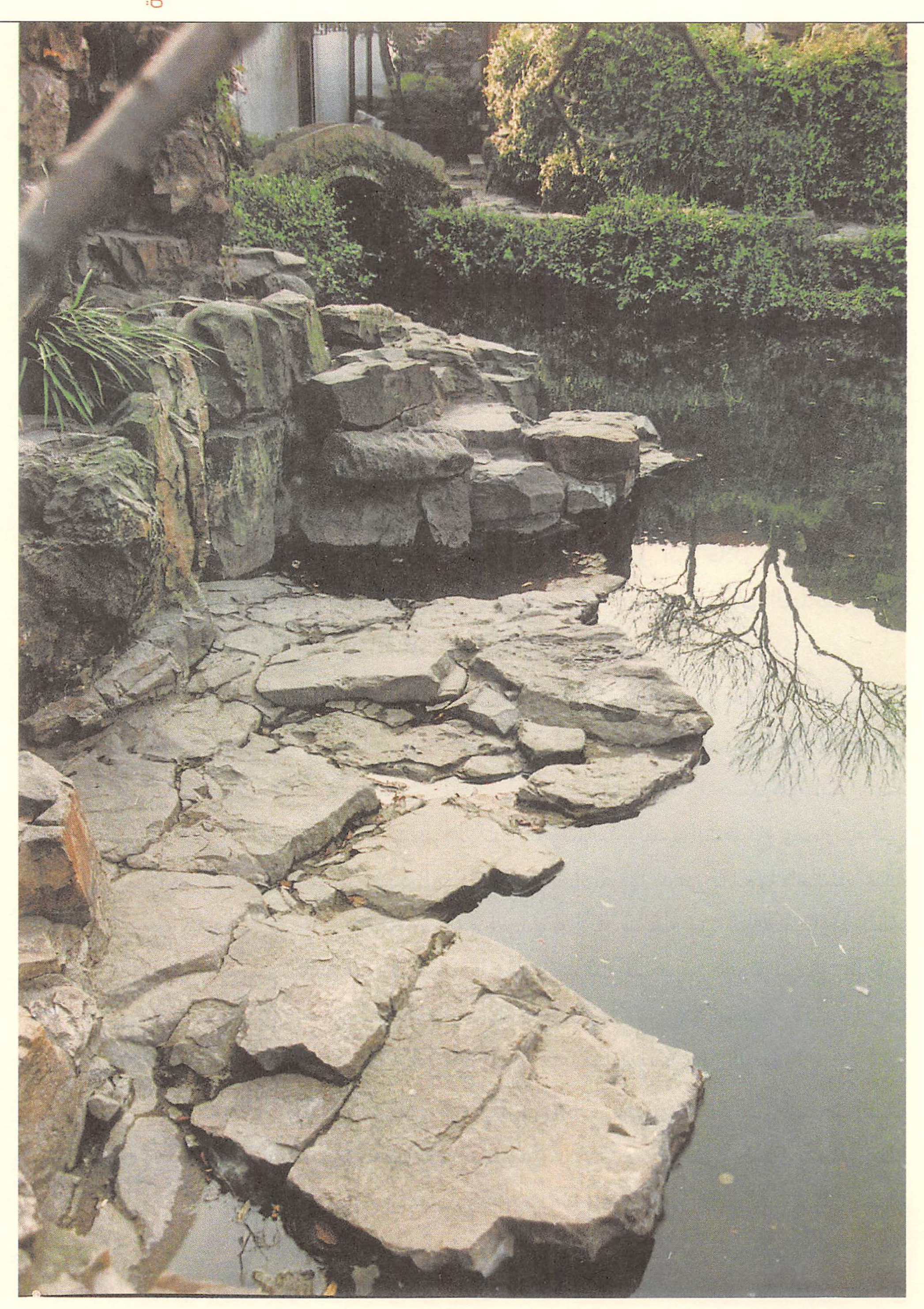
لا يمكن للتصور الفني الكامن خلف الحديقة أن ينشأ دون مشاهد حقيقية ومحددة للمباني والحجارة والهضاب والأسطح المائية والنباتات. وعلى هذه

المشاهد أن تكون مرئية ومحدودة ومتناسقة مع بعضها بعضاً ضمن الحيز الذي تشغله. أما المساحات المتخيلة، فمع أنها قائمة على المشاهد الحقيقية إلا أنها خفية وغير محدودة، ولا يلزمها أن تتناسب مع أي شيء أو أن تتقيد به. قد تحتوي الحديقة الصينية على سطح مائي كبير تتجاوز مساحته بضع مو، وفي هذه الحالة يستخدم هذا السطح المائي ليصنع جواً من الضباب والأمواج التي ترتبط مع البحيرات والأنهار. أما إذا كانت مساحة السطح المائي أقل من ذلك، فعندها يُصمَّم المشهد من حوله، حيث توضع الحجارة بشكل غير منتظم على ضفافه، بينما تزرع بين هذه الحجارة أشجار الخيزران والعرائش البرية. أما السطح المائي نفسه فيوضع فيه سمك الشبوط والطحالب الخضراء. وهكذا، حتى أصغر البرك المائية حجماً يمكن لمصمم ماهر أن يصنع فيها مشهداً رائعاً يترك في النفوس انطباعاً بوجود امتداد مائي لا حد له.

على سبيل المثال، لا تحتوي حديقة سيد الشبكات في سوتشو إلا على سطح مائي صغير المساحة، لذا لم يتم تقسيمه، بل صُمِّم حيث تتجمع المياه في مسارين صغيرين يتدفقان إلى الضفة الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية. أما على ضفافه فقد صُمِّمت كهوف تترك الانطباع بأن السطح المائي هنا مرتبط بأنهار أضخم حجماً من السطح نفسه؛ مما يزيد من سحر الموقع وجاذبيته (الصورة 5-7). لم يكن الهدف من تصميم الهضاب الاصطناعية استنساخَ الهضاب الحقيقية كما هي، بل محاكاة النتوءات والقمم والمنحدرات والوهاد؛ حيث تعكس الهضاب الاصطناعية جو نظيرتها الحقيقية. ومع أن زوار الحديقة لا يمكنهم رؤية كامل الهضبة في الحديقة، إلا أن مخيلاتهم قادرة على تصور قممها الشاهقة.

الصورة 5-7 بركة الحجارة المتراكمة في حديقة سيد الشبكات في سوتشو (تصوير شياو مو)

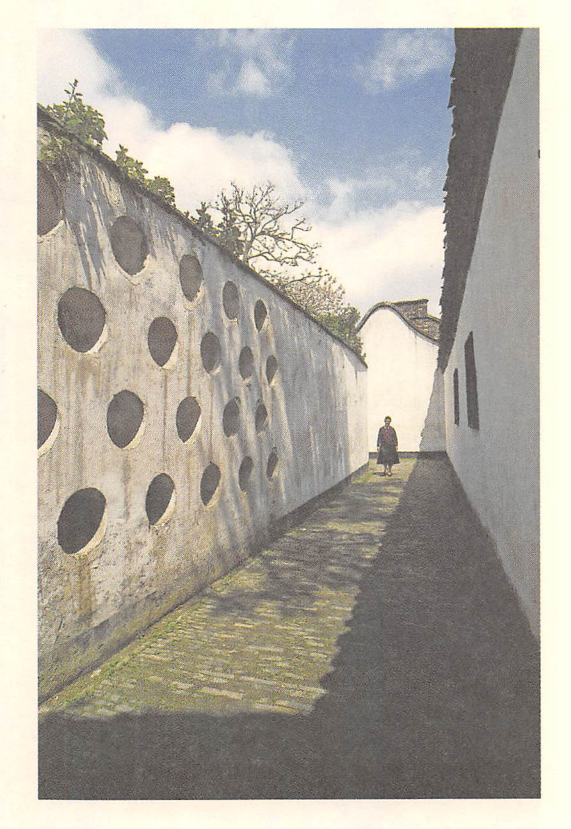
تترك الحجارة المتراكمة على ضفة النهر انطباعاً بأن هذا النهر المصغر يرتبط مع نهر أضخم حجماً؛ وقد كان لذكاء التصميم الذي جعل المباني ملاصقة للنهر، وتجنب الإفراط في طول الهضاب والأشجار أن جعل من السطح المائي يبدو فسيحاً.



إن صنع التصور الفني لا غنى له أيضاً عن تفاعل الزوار العاطفي مع الحدائق ومشاهدها؛ فالبستاني يبذل قصارى جهده أثناء تصميمه للمشاهد من أجل تحقيق غاية واحدة؛ وهي ملامسة قلوب الزوار وإرضاء متطلباتهم العاطفية ضمن إطار المكان والزمان المتاحين له في حدود الحديقة. إذ يستحيل على الزوار أن يشعروا بالحس الفني الكامن خلف مشاهد الحديقة إلا إذا خاطبت هذه المشاهد عواطفهم وحرّكتها، فيشعرون بجلال الوحدة حين يشاهدون شجرة صنوبر باسقة منفردة، وبالسعادة حين يرون شجيرة تطرح أزهارها، أو بالحرية حين يتجولون في باحات الحديقة، أو بالاسترخاء حين ينعشهم الهواء في مقصورة مرتفعة أو عند منصة مائية. إن تحريك المشاعر بهذا الشكل هو ما يجعل الناس يمرون بتجربة التصور الفني التي تدفعهم إلى تقدير جمال «الصورة الأبعد من الصورة، والمشهد الأبعد من المشهد». إذاً، تُحرِّك الحدائق مشاعر الناس من خلال اجتذابها أعينهم بمشاهدها وآذانهم بأصواتها وأنوفهم بعبقها. وكما أسلفنا، إن سحر الحديقة يكمن في التوافق بين عبقرية الفنان وخيال المتفرج الزائر.

اشتهرت البحيرة الغربية النحيلة بأنها «حديقة الرسم وفن الخط»، وقد امتدت شهرتها حتى إلى خارج الصين؛ وخاصة مجموعة البيوت الرائعة وفاتنة الجمال في أسفل الهضبة الذهبية الصغرى. لقد صُمِّمت هذه الحديقة لتجسد هوايات الأدباء في الصين القديمة؛ كالعزف على الآلات الموسيقية ولعب الشطرنج وممارسة فنَّي الخط والرسم. ولكل من هذه الهوايات غرف خاصة بها تدعى باسمها باستثناء غرفة الرسم؛ وهي قسم فريد من تصميم الحديقة لأنه يتألف من شرفة مجاورة للماء تدعى «مراقبة القمر»، وتقع عند الضفة الشرقية للبحيرة. دعونا نتصور ما كان سيحدث لو كان اسم هذه الغرفة مبتذلاً وبسيطاً مثل: «غرفة الرسم»، فعندها ربما لم تكن البركة الغربية النحيلة لتنال لقب: «حديقة الرسم وفن الخط»!

إذا جاء زائر إلى الحديقة في ليلة من ليالي منتصف الخريف فسيجد القمر معلقاً في السماء، وملقياً بأشعته لتنعكس على سطح البحيرة، بينما يتسلل عطر زهور اللوتس الطافية إلى القلوب. وقد كتب أستاذ الرسم والخط تشينغ بان تشياو الدوبيت التالي عند البحيرة: «يبدو أن الماء في كل مكان على الأرض تحت نور القمر، بينما تبدو السحب وكأنها جبال تتصاعد في السماء». يعبّر هذا الدوبيت عن



الصورة 5-8 شارع فينغ هاو وفتحات أصوات الرياح الأربع والعشرين في الجدار الجنوبي من حديقة قه يوان في يانغتشو (تصوير تشن يين يان)

صفير الرياح حين تمر في شارع فينغ هاو وفتحات أصوات الرياح الأربع والعشرين في الجدار الجنوبي يحاكي صفير الرياح في الشتاء. بالإضافة إلى كون البستانيين قد استخدموا لون بياض الثلج للتعبير عن الشتاء، بل أضافوا أيضاً بذكاء تصميمهم صوت الرياح في الشتاء.

الجو الفني في الحديقة خير تعبير؛ فرغم عدم وجود منظر جبلي أمام الشرفة، إلا أن السحب تعوِّض بجلالها وسموها عن الجو الجبلي. ورغم أن الحديقة لا تمتد إلا على مساحة محدودة، فهي تبدو أكبر حجماً بكثير تحت دفق نور القمر. ومع أن علو الهضبة الذهبية الصغرى لا يكاد يذكر، إلا أنها تظهر وكأنها تتلوى صعوداً إلى السحب في السماء. هكذا هي العلاقة بين الأرض والسماء في الفنون الصينية، حيث تتوسع المشاهد الصغيرة إلى مشاهد أكبر، وحيث تتكشف المساحات المحدودة في الحدائق عن تصور فني للمطلق واللانهائي، وهو ما تشير إليه المقولة: «حيث تتوقف المشاهد يبدأ الشعور بالانطلاق».

تحدثنا حتى الآن عن المشاهد التي تخاطب أبصار المتفرجين، وسوف نتحدث الآن عن الأصوات التي تخاطب أسماعهم، أو ما يسمى «الموقع ذو المشاهد،



الصورة 5-9 زهرة اللوتس المنفوشة بالرياح في الباحة المتعرجة في البحيرة الغربية، هانغتشو (تصوير Alchemist)

تعتبر زهرة اللوتس المنفوشة بفعل الرياح في الباحة المتعرجة من المشاهد العشرة المشهورة في البحيرة الغربية، ويتميز هذا المشهد بجمال زهرة اللوتس حين ينفشها هبوب الرياح، وبصوت المطر حين ترتطم قطراته بالزهور.

والمتميز بوجود أصوات فيه» (الصوت 5-8). يستطيع الزائر أن يستمتع بأصوات كهذه أثناء انهمار أمطار الربيع الذي لا يكاد ينقطع، أو مطر الخريف الناعم في «جدول الكركي المرتفع» في هوتشيو أو في شرفة مقصورة أريج زهر العبق، أو في وادي «فيلا الجبل المعانقة للجمال».

من الأماكن المشهورة بجمال الصوت فيها صوت تنهد الصنوبر من عشرة آلاف وادٍ في مصيف تشنغده، حيث يبعث الهواء المار من بين أشجار الصنوبر العالية صوتاً مميزاً. أما وادي الأصوات الثمانية في حديقة إيواء المشاعر المتسعة في ووشي فيتداخل فيه صوت تدفق ماء الشلال المتدفق من جبل هويشان مع خرير الجدول الجبلي المتعرج في خلفية الجبل، ليخرج الماء ويتساقط مصدراً صوتاً طبيعياً في غاية الجمال.

ومن الأصوات الجميلة أيضاً صوت أوراق زهر اللوتس لدى ارتطام قطرات المطر بها في «زهرة اللوتس المنفوشة بالرياح» في الباحة المتعرجة (الصورة 5-9) في البحيرة الغربية، هانغتشو، وكذلك مقصورة «ابقَ واستمع» في حديقة الحاكم المتواضع في سوتشو. ومن الحدائق الأخرى التي اشتهرت بأصواتها «انعكاس الماء على الجسر»، و«هدير الشلال» في القصر الصيفي القديم، وحديقة النسيم والجدول ذوَي الصدى في مصيف تشنغده.

تجد المشاعر الإنسانية تعبيراً عنها من خلال أنواع الأصوات المختلفة؛ وهذا يعطي الأصوات الطبيعية جاذبية خاصة تلامس قلوب الناس. فحين ترتطم قطرات المطر الخريفي الرقيقة بأوراق شجر المظلة الصينية، فإن صوتها يبعث السعادة في قلب من يشعر بالفرح، كما يبث الأسى في قلب من يشعر بالحزن؛ حيث يرى الصينيون أن هذا الصوت يذكر بالأقارب وبالماضي. أما صوت المطر المنهمر على ورق شجر موز البلانتين فيعبّر عن الاشتياق إلى الوطن مع بعض الأسى والعجز.

بنى وانغ آن شي، وهو كاتب بارز عاش في حقبة سلالة سونغ، حديقة منتصف الجبل في نانجينغ. وتحتوي الحديقة على كل السمات التي تميز الحدائق: ماء الينابيع، والصخور، والزهور، والأشجار، والمنصات، والجسور، ولكن السمة التي كانت تعجبه أكثر من غيرها في الحديقة كانت «تغريد الطائر الصافر من وقت إلى



الصورة 5-10 قاعة العطر الرقيق في مقصورة تسانغلانغ، سوتشو (تصوير شو مي)

تعرف قاعة العطر الرقيق أيضاً باسم «مقصورة العبق زكي الرائحة»، حيث توجد فيها نباتات عبق يعود عمرها إلى أكثر من مئة سنة، تبث عطرها الرقيق كل خريف.

آخر»، فالتغريد العذب والشجي وجد سبيله إلى شغاف قلب كاتبنا وحرك عواطفه.

يبقى حرص مصممي الحديقة على التأثير في الزوار من خلال حاسة الشم لديهم؛ حيث يُرحِّب بالزوار أريج الزهور المسكر بالإضافة إلى مناظرها الجميلة. وفي الربيع، تبث زهور الدراق هبات من العطر العذب، أما في الصيف فتبعث زهور اللوتس عطرها الرقيق، وفي الخريف تطلق زهور العبق أريجها القوي النفاذ، وفي الشتاء تطفو رائحة زهور عبق الشتاء في الجو.

في الحديقة في مقصورة تسانغلانغ، تستخدم أزهار العبق لصنع المشاهد



اللجميلة؛ حيث يحيط جدار من الجص تتخلله النوافذ المشبكة بقاعة العطر الرقيق (الصورة 5-10). وتحتوي الباحة على مجموعة من أشجار العبقة التي يعود تاريخ زرعها إلى أكثر من قرن من الزمن. حين يبرد الطقس مع وصول نسمات الخريف، تبدأ الزهور بإطلاق رائحتها الزكية التي تنعش الحواس وتسكرها. ولأن هذه الرائحة تسري في كل مكان، تبدو الحديقة وكأن حجمها قد كبر، وخاصة إذا كان لدى الزائر الحس الجمالي والخيال الخصب الذي يتفاعل مع ما تقدمه الحديقة.

كما أُوْلِيَ استخدام الأساليب الانطباعية لصنع عالم من الجمال يقدره المتفرج اهتماماً كبيراً. فحتى الحجر الجبلي يمكنه أن يلهم الخيال ويصنع سحراً دائماً. وفي الحدائق، تمثّل قطعة صغيرة من الحجارة هضبة وربما وادياً، وتمثل غرفة الماء نهراً وحتى بحراً؛ وتمثل الزهرة أو قطعة العشب غابة، أما التزيين المعماري فيمثل شخصية البستاني والمثل التي يحملها. وفي ترتيبها المساحي، تسعى الحدائق الصينية إلى صنع مواقع ذات مناظر جميلة «تفوق توقعات المتفرجين وتتركهم



وسط ضباب الحيرة»، أما تصميم الحديقة فيسعى إلى ترك أثر «الإشراف على سائر الحديقة بلمحة واحدة»؛ حيث تُصمَّم مشاهد عميقة ذات جمال هادئ وخلاب توصل معاني لا نهاية لها ضمن حدود الحديقة، وذلك لتشعر الزوار بأنهم في أرض العجائب دائمة التغير.

كثيراً ما تسلب الحدائق الصينية ألباب زوارها، فلماذا تتمكن الحدائق من اجتذاب هذا العدد الكبير من الزوار كل سنة؟ بالإضافة إلى جمالها، إن الخلفية الأدبية والثقافية والتاريخية والمعرفية التي يستند إليها تصميم الحدائق وبناؤها عاملٌ لا يمكننا إهماله. على سبيل المثال، لا يمكننا مقارنة جمال البحيرة الغربية المشهور في هانغتشو ببحيرة تاي في جيانغسو وبحيرة إرهاي في يونّان من حيث مشاهدها المائية، ولا مع جبل ياندانغشان في تشه جيانغ أو جبل هوانغ في آنهوي من حيث مشاهدها الجبلية. إذاً، ما الذي يعطي البحيرة الغربية هذا المقدار من الشهرة؟ لم يكن لهذه البحيرة أن تتمتع بهذه الشهرة لولا أسماء بعض الأبطال الذين حاربوا لأجل بلادهم مثل يويه في وتشانغ تسانغ شوي وتشيو جين، وأسماء بعض الأدباء من أمثال باي جو يي وسو شي ولين بو، وبعض الأسماء الأسطورية مثل السيدة الأفعى البيضاء وسو شياو شياو وجي قونغ (الصورة 5-11). إن اجتماع جمال البحيرة الغربية الطبيعي مع المضامين الثقافية فتَن زوارها بها؛ إذ أتاح لهم ذلك المجال كي يبسطوا أجنحة خيالهم ليثمِّنوا ما تحمله الحديقة لهم. ولهذا، يرى الكثير من الزوار أن البحيرة الغربية هي المكان الأجمل.

باختصار، من بين جميع العناصر الجمالية في الحديقة الصينية، إن التصور الفني أشدها أهمية. إذ يجب على المشاهد أن تلهم مخيلات الزوار دائماً، وتأخذهم إلى ما هو أبعد من الحديقة، وتترك أثراً جمالياً دائماً في نفوسهم؛ وهنا يكمن سحر التصور الفني.



الصورة 5-11 معبد يويه في التذكاري في البحيرة الغربية في هانغتشو (التقطت الصورة عام 1946 وقدمها هوانغ شين)

يقع المعبد في الزاوية الشمالية الغربية من البحيرة الغربية، وقد أنشئ ليخلد ذكرى يويه في، أحد أبطال الصين القوميين. بدأ بناء المعبد سنة 1221، وأعيدت تسميته أثناء حكم الإمبراطور جينغ تاي في عهد سلالة مينغ، وصار يدعى «معبد الشهداء».

الجمال الديناميكي

من بين جميع العناصر التي تؤلف الحديقة الصينية، لا شك في أن أكثرها إثارة للإعجاب هو جمالها الديناميكي. يتجلى لنا هذا الجمال لأول وهلة من حالة الحديقة التي توحي لنا بهذه الديناميكية. فعلى سبيل المثال، قد يعتقد البعض أنه من البديهي أن تبدو حديقة مغلقة ذات مساحة محدودة وكأنها راكدة المظهر وضيقة الأفق، ولكنّ البستاني الماهر يستطيع تجميل هذه الحديقة بأشكال ديناميكية تغير ذلك الانطباع. مثلاً، يمكن لطريق خشبي ومتعرج أن يعطي انطباعاً أكثر اتساعاً وديناميكية بينما يتلوّى في سبيله نحو الأمام. أما الجدار المتموج فيبدو وكأنه تنين طائر، في حين أن رأس الباغودا المسنن يبدو وكأنه يسمو إلى كبد السماء، بل وتبدو الحجارة الجامدة أيضاً وكأنها تتحرك تحت السحب الهائمة؛ حتى حين تكون السماء خالية من السحب! ويعود هذا إلى التأثير المسمى «بتجعد الحجر»، وهو من المتطلبات الفنية التي تستخدم الصخور على أساسها في رفع الهضاب الاصطناعية. وما يعنيه التجعد هنا هو سطح الحجارة غير المنتظم وشكلها المتموج، وهو أثر يصنع تبايناً بين النور والظل، مع شعور بالإيقاع البصري بين هذه الصور المختلفة التي ينبغي للحجر أن يوصلها.

وكذلك علينا أن نتساءل: لماذا لا تترك المباني (المقصورات والشرفات والقصور والمقصورات ذات الطوابق وغيرها) انطباعاً بالرتابة والكآبة مع أنها ساكنة ومهيبة؟ يكمن مفتاح هذا التأثير النفسي في الأفاريز المقلوبة (الصورة 5-12)، وهي شكل معماري بدأ صنعه في الصين القديمة. فبوجودها في الأعلى، تبدو زوايا أسقف المباني وكأنها طيور عملاقة على وشك أن تبسط أجنحتها وتطير في السماء. ومما يعزّز انطباع «القفز إلى السماء» أو «المشي في السماء» الأشكال التزيينية الموجودة على حوافّ الأسقف والأفاريز المسقوفة، والتي تتخذ أشكال مخلوقات أسطورية مثل التنين والعنقاء والتشيلين، أو أشكالاً إنسانية أو أشكال حيوانات وطيور.

ومن الخصائص التي أوليت عناية خاصة في تصميم الحديقة الصينية، التغيراتُ التي سيراها المتفرج من زوايا مختلفة ضمن ترتيب الحديقة المساحي؛ إذ



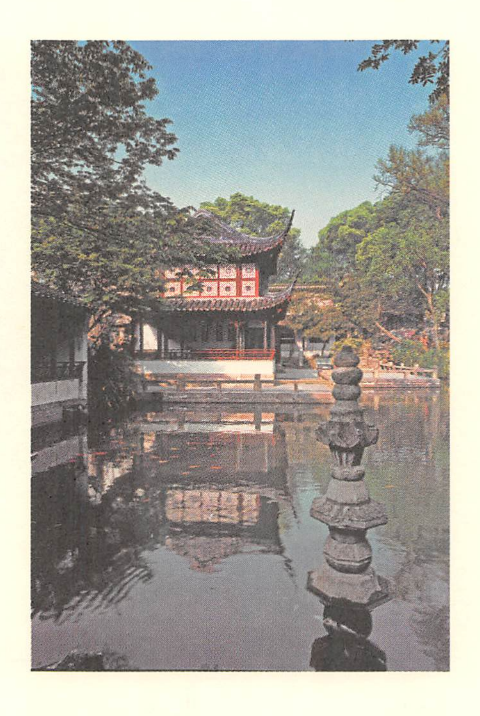
الصورة 5-12 الأفاريز المقلوبة في مقصورة البحار الأربعة في معبد السر، سوتشو (تصوير تشانغ بوه)

معبد السر من أقدم المعابد الطاوية في جيانغنان وأضخمها. تصنع الأفاريز المقلوبة في مقصورة البحار الأربعة صورةً تجعلها تبدو وكأنها أجنحة على كائن أسطوري، وترمز إلى روح التسامح والسمو العقلي اللذين تدعو إليهما الفلسفة الطاوية.

يسعى البستاني إلى صنع أثر متموج يؤكد على أن الجبال عالية والمياه منخفضة، وذلك كي يشعر المتفرج بجمال المشهد بغض النظر عن الزاوية التي يقف عندها. حين يتجول الزوار في الحديقة، يمكنهم أن يرفعوا أنظارهم ليروا المقصورات والشرفات والأبراج؛ فيترك لديهم هذا المشهد الانطباع بالتموج الذي يبثه التباين بين ارتفاعات المباني المختلفة، أو أن يخفضوها فيروا أسماك الشبوط الحمراء في لجة المياه الزرقاء. إن من ينظر إلى الحديقة من زوايا متعددة، يجد دائماً أكثر مما تراه الأعين للوهلة الأولى.

تشدد الحدائق الصينية على توفر الجبال والماء في الحديقة؛ لأن ما يميز الحديقة هو وجود الهضبة فيها، وما يضفي شعوراً بالحياة على الهضبة هو وجود الماء حولها؛ إذ إن المرتفعات التي تبدو ميتة تتفجر بالحياة إذا اندمج المشهد فيها مع مشهد مائي. وكذلك يُضفي صوت خرير الماء في الحديقة وصوت تدفقه الإحساس بالارتياح.

حين يتجول الناس تحت أشجار الخيزران أو بين الزهور، أو «حين تهب الرياح المنعشة من بين ألف شجرة خيزران»، أو «حين تتراقص أغصان العبق مع نسائم الخريف»، تصبح الرياح جزءاً لا يتجزأ من جمال الحديقة الديناميكي. فمن مبادئ



(اليمين) الصورة 5-13 مشهد صيفي في حديقة التريث في سوتشو (تصوير شو مي)

يستطيع زائر الحديقة أن يستمتع بمشاهد الفصول الأربعة في وسطها، وتظهر هذه الصورة مشهداً لمنزل مينغ سه في الصيف.

(اليسار) الصورة 5-14 مشهد شتائي في حديقة التريث، سوتشو (تصوير تشانغ لي نا)

إن هذا مشهد ثلجي لمقصورة كه تينغ التي تحيط بها براعم البرقوق. يستطيع الزوار الجالسون في المقصورة أن يستمتعوا بالثلج المتجمد في أعلى الهضبة في الحديقة، وبمشاهد غروب الشمس في الشتاء.

تصميم الحدائق الصينية أنه حيثما يوجد جزء ساكن يوجد جزء ديناميكي، وحيث يوجد جزء ديناميكي يوجد جزء ساكن؛ فالمياه المتدفقة في الحديقة تقف إزاء الهضبة الساكنة، والمياه الساكنة تقف إزاءها الأسماك المتحركة، والفراشة تطير بعكس الزهرة الساكنة، والظل يتحرك بعكس الحجر الساكن. يقال إن الضد يظهر حسنه الضد، وهذه الفكرة نجدها هنا؛ حيث يظهر الجمال الديناميكي في الصور الساكنة. وحين تتفاعل هذه القوى الديناميكية كلها مع بعضها، فإن هذا سيوجِد نوعاً من التوتر يزيد من حيوية الحديقة وجمالها. ولهذا، لا يشعر الداخل إلى هذه الحدائق بأنها جامدة أو راكدة أبداً.

لا يمكننا أن نقدر جمال الحدائق الصينية بالكامل إلا إذا شهدنا تغيرها مع الفصول الأربعة، وتقلبها في الليل والنهار وفي الأجواء المناخية المختلفة (الصورة 5-13 والصورة 5-14). إن هذه التقلبات هي التي تجعل الناس يقدرون ديناميكية جمال الحدائق الصينية بالكامل. فقد كان مصممو الحدائق القدامى يدركون تمام الإدراك كيفية تبدل المشاهد مع تبدل الفصول، وقد تمكنوا على أساس معرفتهم هذه من عرض مشاهد جذابة تناسب كل وقت من أوقات السنة. وكانت النتيجة أن



المشاهد المناسبة في الأوقات المناسبة من السنة تصنع سلسلة ديناميكية من المناظر. كما تعمد هؤلاء المصممون إبراز هذه التغييرات عبر الفصول، وتعزيز أثرها من خلال استخدام الزهور والأشجار والصخور. وتشمل الزهور المستخدمة زهور الدراق في الربيع، وزهور اللوتس في الصيف، والأقحوان في الخريف، وزهور البرقوق في الشتاء. أما الأشجار فتشمل الصفصاف في الربيع، وشجر العالم الصيني في الصيف، وشجر القيقب في الخريف، وشجر السرو في الشتاء. في حين أن الصخور تشمل الصخور الصواعد في الربيع، والصخور بجانب البحيرة في الصيف، وحجارة يميل لونها إلى الاصفرار في الخريف، وصخور شوانشي في الشتاء (الصورتان 5-15 و5-16).

ومن الأمثلة على صنع المشاهد: البحيرة الغربية في هانغتشو. ففي الربيع لدينا المشهد المسمى «العصافير الصافرة تغرد على الصفصاف» (الصورة 5-17)، وفي الصيف توجد «زهرة الصفصاف المنفوشة في الباحة المتعرجة»، أما في الخريف فلدينا «قمر الخريف فوق البحيرة الهادئة»، وفي الشتاء لدينا «الثلج الذائب على الجسر المتكسر».

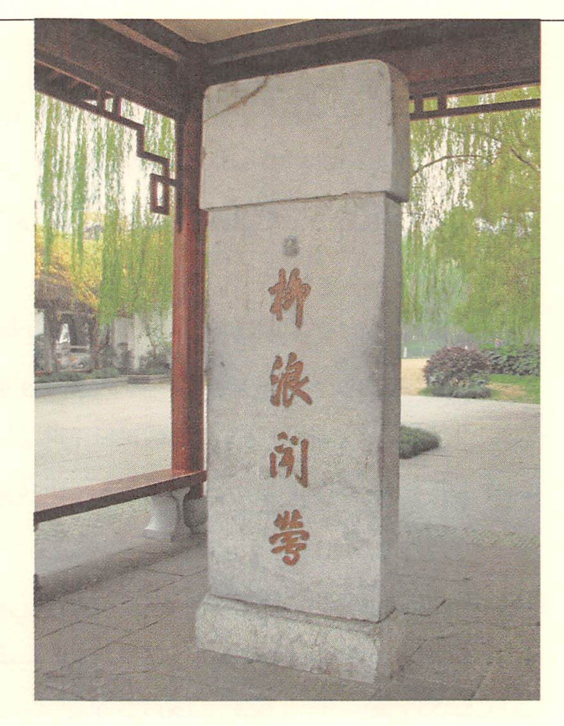
الصورة 15-5 جبل الخريف في حديقة قه يوان، يانغتشو (تصوير وو دي في)

يقع جبل الخريف في وسط حديقة قه يوان، وتبدو الهضاب العالية والممتدة هائلة الحجم. حين يقف الزوار عند قمة الهضبة- وهو المشهد المشرف على الحديقة كلها - يمكنهم أن يستمتعوا بالسماء الصافية وهواء الخريف المنعش.



الصورة 16-5 جبل الشتاء في حديقة قه يوان، يانغتشو (تصوير وو دي في)

تمت مراكمة صخور شوانشي ثلجية البياض لصنع جبل الشتاء؛ حيث تبدو الهضبة وكأنها مغطاة بالثلوج.



الصورة 5-17 المشهد الربيعي المشهور: «العصافير الصافرة تغرد على الصفصاف» (تصوير هوانغ شو)

إن هذه بقعة ممتازة للراحة؛ إذ تحيط بها أغصان الصفصاف، ويتردّد فيها تغريد العصافير الصافرة. في الربيع، تميل أغصان الصفصاف برشاقة مع النسيم العليل، بينما تمنح ظلال الأشجار شعوراً جميلاً بالبرودة، كما يجلب تغريد العصافير أفكاراً سعيدة ومشاعر منعشة للقلوب.

بالإضافة إلى تبدل المشاهد مع تقلب الفصول الأربعة، توجد لدينا مشاهد مختلفة حتى في إطار اليوم الواحد؛ مثل سطوع الشمس في النهار، واحمرارها مع غروب الشمس. ومن الأمثلة التي يظهر فيها هذا التباين: مقصورة «القمر يأتي مع النسيم» في حديقة سيد الشبكات في سوتشو. ففي النهار، تعكس مياه البركة الصافية في الحديقة سحر المشاهد الخلابة من حولها، والتي تتبدل من وقت إلى آخر. وفي الليالي التي ينيرها ضوء القمر، تندمج أشعة القمر مع أنوار المصابيح مع بركة المياه لتصنع مشهداً ذا سحر استثنائي. تتغير المشاهد باستمرار، وخاصة بين الأيام الماطرة والمثلجة والغائمة والمشمسة. وهذا يبيّن ما قيل في وصف الحديقة: «مشاهد خلابة لسطوع شمس النهار وظلال المساء»؛ فلا يستطيع الزوار أن يقدروا جمال الحديقة الديناميكي تمام التقدير إلا في الأوقات المناسبة التي تبرز هذه الديناميكية.

وكما بيَّنّا من قبل، تجسد الحديقة مثاليات مصمّمها المتعلقة بالجمال، والتي تبدو من خلال الوسائط الحسية مثل الهضاب والمياه والنباتات والمباني؛

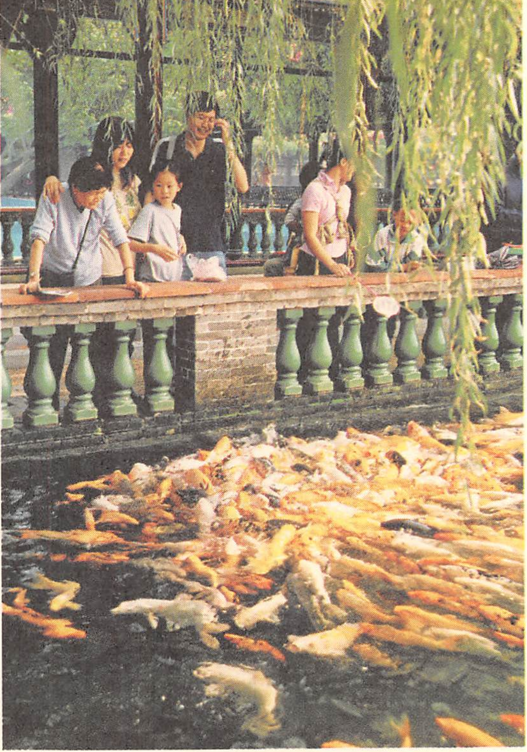


فالحدائق الصينية في الواقع خير مثال لفن استخدام المساحات، ويستطيع الزوار أن يستمتعوا بجمال الحديقة من ناحيتين: الناحية الساكنة والناحية الديناميكية.

ما يعنيه التقدير الساكن هو أن يظل الزائر قابعاً عند بقعة واحدة ليقدِّر جمال ما يحيط بها من مشاهد بالكامل؛ فما يقدره المتفرج هنا هو من زاوية ساكنة وثابتة وغير متغيرة. أما ما يسمى: «التقدير الديناميكي»؛ فهو أن يرى الزوار جمال الحديقة بينما هم يتجولون فيها، حيث تتغير البقع ومشاهدها أمامهم باستمرار وهم ينتقلون من مكان إلى آخر. عادة، يقدر الناس الحدائق الصغيرة بشكل ساكن، أما الحدائق كبيرة الحجم فيقدرونها ديناميكياً؛ خاصة إذا كانت تشمل مساراً محدداً للزوار.

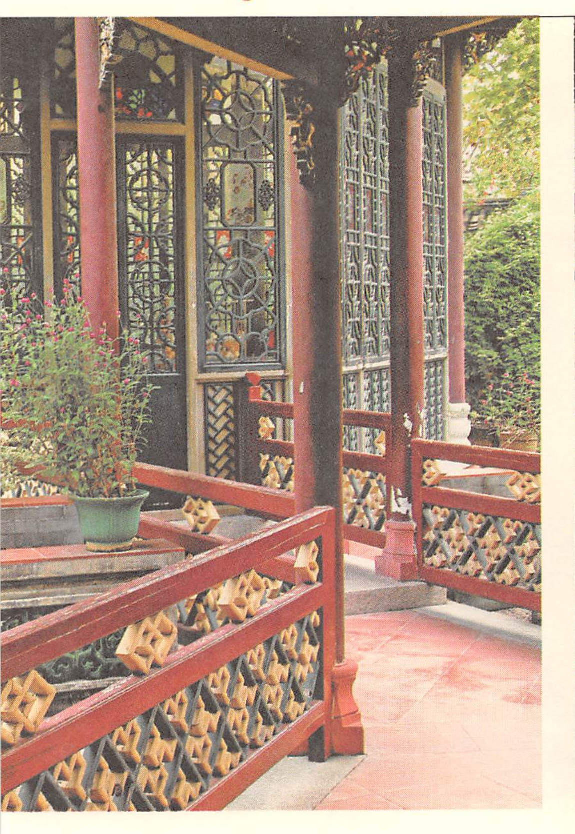
لكن هذا لا يعني أن أسلوبي التقدير متنافيان، بل على العكس تماماً؛ فلطالما تكاملا معاً. أنسب الأماكن للتقييم الساكن هي الهضاب والشرفات والمقصورات ذات الطوابق والأبراج؛ فهي مصممة أصلاً كي يجلس فيها الزوار، وهي تكشف لهم عن مشاهد مطلة وواسعة وجميلة. ويستطيع الزوار أن يسلوا أنفسهم بعدِّ الأسماك التي تسبح (الصورة 5-18) في بركة ماء، أو انتظار طلوع القمر بينما هم يستمتعون بالنسيم المنعش في المقصورة. بالطبع، يمكن حتى للمناظر الساكنة نسبياً أن تبدو مختلفة إذا نظر إليها الزائر من زوايا متعددة من مكان جلوسه، وهذا لا يخلو من الجمال الديناميكي، وقد أشار إلى ذلك الأديب الكبير سو دونغ بو (من عهد سلالة سونغ) حيث وصف مشهداً في حديقة في قصيدة له فقال: «أفقياً، سلسلة جبال. جانبياً، هي قمة جبل؛ وتختلف من كل زاوية عالية أو منخفضة أو بعيدة أو قريبة».

ولما تميّز تصميم الحديقة الصينية بتفرقته الواضحة بين المشاهد الرئيسة والأخرى الثانوية، بالإضافة إلى تركيزه الدائم على أهمية المشاهد مستمرة التغير، أنشأ البستانيون مسارات مثالية للجولات السياحية تُمكِّن الزوار من تقدير مناظر الحديقة ديناميكياً، بينما تلعب المباني دور نقاط استراحة لهم، حيث يمكنهم تناول الطعام والاستمتاع بالنشاطات المتعددة. عادة، يتعرج مسار الجولات في الحدائق الصينية بحسب تضاريس الحديقة الجغرافية، وهو يجاور عادة المشهد



الصورة 5-18 حديقة باومو في قوانغتشو (تصوير وانغ مين)

إن موضوع هذه الحديقة العام هو مدح باو قونغ؛ وهو مسؤول دولة مستقيم وصادق عاش أثناء حقبة سلالة سونغ. تفخر الحديقة بأسلوب حدائق لينغنان المميز، وخاصة فنون العمارة القديمة فيها. يتلوى النهر في مساره بين أشجار عملاقة، ويصنع معها مشهداً فريداً من نوعه. وتُظهِر الصورة زواراً يتفرجون على سمك الشبوط الذهبي الذي تمت تربيته في بحيرة تشينغ بينغ.



الصورة 5-19 حديقة تشينغ هوي في شونده، قوانغدونغ (تصوير تشانغ قوه شنغ)

المياه صافية والغابات خلابة، وهذا يترك انطباعاً بالعمق والسكينة. تندمج المياه الزرقاء مع الأشجار الخضراء والجدران والنوافذ المتشابكة والهضاب الصخرية، كما تندمج الجسور الصغيرة والمتعرجة مع المقصورات والشرفات والأبراج لتشكل ترتيباً مميزاً. تتواجد هذه الشرفة المتعرجة في حديقة تشينغهوي.

المائي أو الجبلي. كما تبنى شرفة ملتوية بمحاذاة المسار لإيواء الزوار من أشعة الشمس والمطر.

الشرفة المقوسة (الصورة 5-19)، والدرجات المتموجة، والحجارة الملتوية توفر جميعها أماكن جيدة ليستمتع الزوار بالمشاهد بطرق ديناميكية، وحين يتسلقون مكاناً عالياً أو ينظرون إلى مسافات بعيدة أو يستكشفون المشاهد الموجودة في أحد الكهوف، فإن الزوار يستمتعون بالفعل بالجمال الديناميكي المتمثل في إيقاع المشاهد البصري المتكشف أمامهم؛ وكأنه لفائف رسوم تتفتح رويداً رويداً.



الصورة 5-20 الضفة الشرقية من بحيرة كونغمينغ في القصر الصيفي، بكين (رسم محفور من إي هيلدربراندت يعود إلى سنة 1864)

حين يسير الزوار داخل بوابة القصر الشرقية سوف يجدون أنفسهم وقد رحّبت بهم فجأة مساحة مفتوحة تحتوي على مشاهد خلابة.

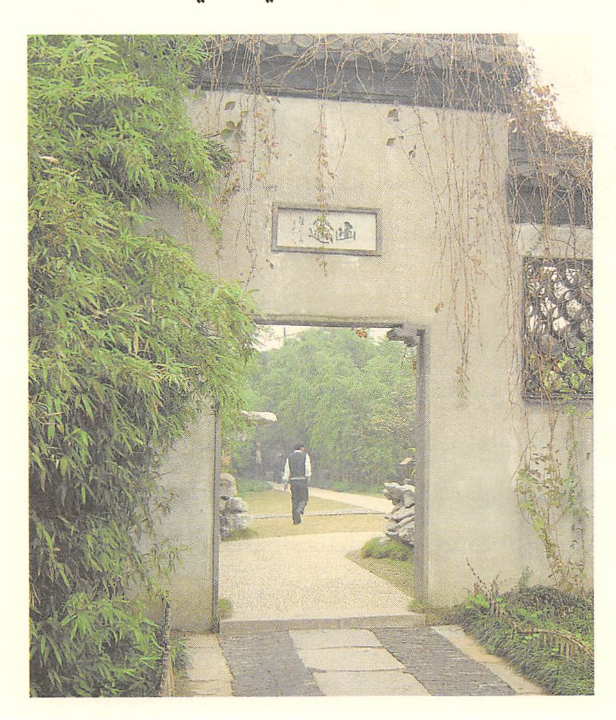
يعتبر عرض كل شيء مرة واحدة من المحرمات في الفن الصيني، ولذلك اشتهرت الحديقة الصينية عالمياً بمضامينها الخفية وأساليب تصميمها المختلفة. لا تتيح الحديقة المصممة جيداً لزوارها سهولة التفرج على أفضل مشاهدها أبداً، بل تظل تحتوي على بعض المشاهد المخفية ببراعة؛ وفي ذلك تجسيد لأسلوب التصميم الذي يدعى: «إخفاء المشهد قبل إظهاره» أو «حبس المشهد قبل إطلاق سراحه».

على سبيل المثال، أول ما يرحب بالزوار في القصر الصيفي في بكين بعد الدخول من بوابة القصر الشرقية هو مجموعة من القصور والشرفات والباحات والجدران المتناظرة والمتسقة. وحين يبدأ الزوار بالشعور بالتعب بعد السير في

الطريق الملتوي والمغلق، يصلون إلى بحيرة كونمينغ (الصورة 5-20) الواقعة خلف قاعة الإحسان والعمر الطويل، ويشعرون باتساع فوري في المشهد عندما يصلون إلى البحيرة والجبل الغربي من خلفها.

من المهم للغاية بالنسبة إلى مصمم الحدائق أن يحافظ على الشعور بالفضول وانطلاق الخيال لدى زواره. ولهذا الهدف، استخدم البستانيون الصينيون أسلوب حجب المشاهد، وذلك ليزيدوا متعة الزائر وتقديره للمشاهد بشكل ديناميكي. باستطاعة هذا الأسلوب أن يحقق نتائج رائعة؛ خاصة عبر الطرق المتعرجة التي تمر من مرتفعات الحديقة لتصل إلى أماكنها المنعزلة.

على سبيل المثال، شُيِّدت هضبة اصطناعية عند بوابة المشهد العظيم لمنع الزوار من رؤية الحديقة بأسرها، ونجح هذا الأسلوب في صنع أثر «الطريق المتعرج المؤدي إلى المكان المنعزل»، ويمكننا رؤية الكثير منه في الحدائق الخاصة في جيانغنان، حيث نجد لوحاً معلقاً بشكل عموديّ وقد كتب عليه: «يؤدي إلى مكان منعزل»، أو «طريق منعزل»، أو غيرها من الإشارات التي تعني وجود مشاهد



الصورة 5-21 بوابة حديقة كتبت عليها الكلمات التالية: «عميق وهادئ» في حديقة قه يوان في يانغتشو (تصوير وو ده بينغ)

يمكننا القول إن «حديقة عشرة آلاف خيزرانة» هي روح حديقة قه يوان؛ إذ تتراقص الأشجار مع الرياح وتلقي بظلالها على الأرض، ويستطيع الزائر أن يشم رائحة الخيزران الطيبة وهو يسير في ممشى الخيزران. وعند آخر غابة الخيزران يوجد باب يحمل في أعلاه الكلمتين الصينيتين: «عميق وهادئ»، وبعد عبور الباب سيجد الزائر نفسه فجأة في مساحة واسعة بعد تعرجه عبر غابة الخيزران.

جديدة مختلفة (الصورة 5-21) لتنبيه الزوار وإيقاظ حسهم الفني القادر على تقدير الحديقة ديناميكياً.

كثيراً ما تستخدم الهضاب الاصطناعية والباحات الصغيرة والنوافذ المتشابكة لتحجب ما تخفيه الحديقة عند مدخلها، فلا يتمكن الأشخاص خارج الحديقة إلا من الحصول على رؤية غامضة لما يكمن فيها، وعلى الزوار أن يتبعوا الطريق الطويل والمتعرج الذي رسمه لهم المصممون، والذي سيتركهم يتساءلون: «إلى أي عمق بعد علينا أن نتوغل في هذه الحديقة حتى نصل إلى باحتها؟» قبل أن يحصلوا على رؤية تامة لكامل ميزات الحديقة من مرتفعات وأسطح مائية ومقصورات.

لكن، لا يتعب الزائر صاحب الحس الجمالي من البحيرة الغربية في هانغتشو أو يملّ منها؛ فهي تجسّد أجمل المثل التي يسعى إليها البستانيون: الحديقة ضمن الحديقة، والباحة ضمن الباحة، والبحيرة ضمن البحيرة، والجزيرة ضمن الجزيرة، أو باختصار: المشهد الأبعد من المشهد. يطغى جمال الحديقة المتغير مع كل خطوة يتخذها زائرها على القلوب والعقول، ويحملها إلى ما هو أبعد من ظاهر الصور والمشاهد.

تشتهر حديقة التريث في سوتشو بترتيبها المتراص، ومشاهدها دائمة التغير، وتستخدم نافذة متشابكة على بوابة الحديقة لتعطي المتفرج إشارة إلى ما سيلقاه في الداخل من مشاهد عميقة المغزى وبديعة الجمال. وبعد ذلك، يتّبع الزائر طريقاً متعرجاً تتغير معه المشاهد باستمرار، وتصنع الأثر المسمى: «تغير المشهد مع كل خطوة».

وكذلك يجسِّد كلٌّ من الهضبة المرتفعة في حديقة قصر الأمير قونغ في بكين، والهضبة الاصطناعية الضخمة المصنوعة من الحجارة الصفراء عند بوابة حديقة لونغهوا في شانغهاي، والجدار الحاجب أمام معبد هانشان في سوتشو، وجدار التنانين التسعة (الصورة 5-22) عند حديقة بيهاي في بكين أسلوبَ حجب المَشاهِد المستخدم في الحدائق الصينية لغاية جذب الزوار كي يستمتعوا بالمشاهد بشكل ديناميكي.



الصورة 5-22 جدار التنانين التسعة داخل حديقة بيهاي في بكين (تم توفير الصورة من قبل آكو)

يبلغ طول جدار التنانين التسعة في حديقة بيهاي 25.86 م، كما يبلغ ارتفاعه 6.66 م، وسماكته 1.42 م. الصور المحفورة على الجدار تتَّبع نمط صخور الهضاب، ومياه البحار، والغمام الجاري في السماء، وسطوع الشمس، وإنارة القمر. ويقبع الجدار على قاعدة مصنوعة من حجر الجاد الأسود والأبيض المغطّى بطلاء أخضر لامع، وعلى كل من جانبي الجدار نُحتَت تسعة تنانين تجري على السحب والمياه. إن الأسلوب الحي في رسم التنانين بوقفاتها الشرسة ومخالبها الطويلة يجعلها تبدو وكأنها حقيقية.



الحدائق الصينية

الفصل السادس

لكلٍّ مزاياه –
مقارنة بين الحدائق الصينية
ونظيرتها الدولية

مقارنة بين الحدائق الصينية والحدائق الغربية

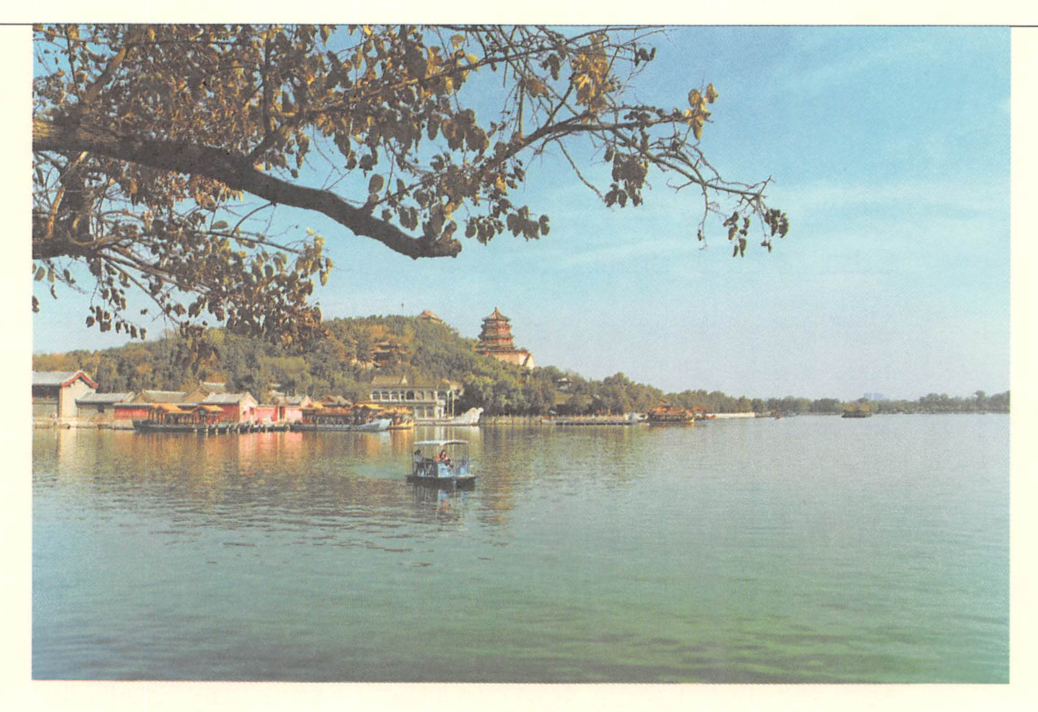
يمثِّل فن تصميم الحدائق تكاملاً بين الغايات العملية من ناحية، والأغراض الجمالية من ناحية الأخرى. وما يتميز به فنّ تصميم الحدائق الصينية هو الخلفية التاريخية والتقاليد الحضارية الخاصة بالصين، مع ما يترافق معها من حسٍّ جماليٍّ نضج لدى الشعب الصيني عبر أجيال طويلة توارثت هذا الفن وطوّرته. ولهذا، تختلف الحدائق الصينية تمام الاختلاف عن الحدائق في البلاد الأخرى، ولكلٍّ من أصناف الحدائق هذه مزاياه.

يمكننا أن نُقسِّم أنواع أنظمة تصميم الحدائق العالمية إلى ثلاثة أنواع عامة: النظام الغربي الذي نجده غالباً في الدول الأوروبية، والنظام الشرقي - الآسيوي الموجود غالباً في الصين واليابان، والنظام الغربي - الآسيوي الموجود غالباً في العالم العربي. وليس من أهداف هذا الكتاب إجراءُ بحث حول النظام الأفضل بين هذه الأنظمة الثلاثة، بل أن نحاول من خلال المقارنة والتحليل أن نصل إلى فهم أعمق لكيفية تطور هذه الحدائق؛ سواء أكان ذلك في الخلفية الحضارية والثقافية التي أدت إلى نشأتها، أم في الفكر الجمالي أو الديني أو الفلسفي الذي رفد آراء مصمميها.

إجمالاً، مع أن الحدائق الصينية والغربية تبدو متشابهة في أصلها وعملية تطوّرها وعناصر بنائها ووظائفها الاجتماعية، إلا أنّ الفروقات بينها تظل هائلة.

ينعكس أول هذه الفروقات في مواقع الحدائق وسماتها الطوبوغرافية؛ فالحدائق الصينية تقوم غالباً على مواقع اصطناعية. فعلى سبيل المثال، الماء الموجود في البركة يدخل الحديقة عبر حفرة في أرض مسطحة فيها، كما أن الهضاب فيها اصطناعية ومبنية من الحجارة والأتربة، أما النباتات فتزرع فيها، كما يتم بناء المباني فيها. وقد أسلفنا أكثر من مرة أن الهدف إنما هو محاكاة الطبيعة على نطاق ضيق في مساحات الحديقة التي تنشأ عادة داخل المدينة. ولذلك تُسمى في بعض الأحيان: «الغابات المدنية كثيرة المرتفعات».

يمكننا أن نلخِّص مبدأ تصميم الحدائق الصينية بقولنا: «مراكمة المرتفعات



الصورة 6-1 هضبة العمر الطويل وبحيرة كونمينغ في القصر الصيفي، بكين (تصوير لو جيان هوا)

في شمال غرب بكين، كانت هناك هضبةٌ تعتبر امتداداً لجبل يانشان، وفي أسفل الجبل كانت هناك بحيرة أطلقت عليها عدة أسماء؛ أولها بحيرة شيليلي، ثم بحيرة دابو، ثم بحيرة الهضبة، ثم البحيرة الغربية. بعد ذلك، زيد عمق البحيرة الغربية لتصبح بحيرة كونمينغ، واستخدمت التربة التي استخرجت منها لزيادة طول الهضبة التي تحولت لاحقاً إلى هضبة طول العمر.

أثناء حفر مناطق منخفضة». فعلى سبيل المثال، حُفِرت في القصر الصيفي الأراضي المنخفضة الموجودة في الأصل لتتحول إلى بركة كونمينغ، والتي صُمِّمت بدورها على شكل ثمرة دراق. أما التربة التي جُرِفت من الموقع فقد تمّت مراكمتها لتتحول إلى هضبة العمر الطويل، والتي يبلغ طولها ستين متراً (الصورة 6-1).

بالمقابل، يمكننا تلخيص تعامل الغرب مع سطح الأرض بالمبدأ التالي: «تسوية التلال العالية وملء الأراضي المنخفضة». مثلاً، كان الموقع الأصلي لقصر فرساي (الصورة 6-2) يتألف من تلال قليلة الانحدار وأراضٍ سبخة، فقام بناة الحديقة بتسوية التلال وتجفيف المستنقعات وملئها بالأتربة قبل البدء ببناء الحديقة. وأول الفروقات بين الحديقة الصينية ونظيرتها الغربية إذاً هو أن سطح أرض الحديقة الصينية يظل متموجاً، بينما تنشأ الحدائق الغربية على أراضٍ مسطحة ومسوّاة.



الصورة 6-2 قصر فرساي، فرنسا (تصوير يان شيانغ تشيون)

في سنة 1624، اشترى ملك فرنسا لويس الثالث عشر قطعة أرض شملت غابة وأراضي مقفرة وسبخة قرب قصره، وبنى فيها منزلاً مؤقّتاً يتألف من طابقين ليكون مقرًا مؤقتاً للصيد. وفي وقت لاحق، سوّيت قطعة الأرض بكاملها حتى أصبحت سهلاً مسطحاً، وشُيِّد عليها قصر فرساي.

أما الفرق الثاني فيكمن في الأسلوب، فأسلوبا التصميم مختلفان تمام الاختلاف. عادة، تقوم الحدائق الصينية على مشاهد طبيعية، وتتبع في تصميمها مبادئ الطبيعة؛ فثمة تشديد كبير في تصميم الحدائق الصينية على الانصياع للطبيعة؛ سواء أكانت حدائق إمبراطورية في شمال البلاد أم حدائق خاصة في جيانغنان ولينغنان، فتتم محاكاة جمال المشاهد المختلفة في المساحات المحدودة. والأمر ذاته ينطبق على التعامل مع النباتات؛ فلا تكاد ترى أي زينة اصطناعية في تصميم المشاهد في القصر الصيفي. فبحيرة كونمينغ وهضبة العمر الطويل والطريق الفرعي الطويل جميعها تبدو متناغمة مع الطبيعة، وكأنها امتداد لها. وكذلك تحافظ هذه الحدائق على سحر الطبيعة في نباتاتها وهضابها ومقصوراتها وشرفاتها وأبراجها؛ كما هو الحال في المشاهد المصممة ببراعة كبيرة في مقصورة تسانغلانغ (الصورة 6-3).



الصورة 6-3 مقصورة تسانغلانغ في سوتشو (تصوير تشينغ باو تشي)

لقد شُيِّدَت هذه الحديقة بأسلوب يراعي تضاريس موقعها. وهكذا، تتوزع المقصورات والشرفات والأبراج بشكل غير منتظم ولكنه جذاب يصنع صوراً جميلة. تحافظ النباتات مختلفة الطول على حجمها الطبيعي بدون أي تزيين اصطناعي.

وكذلك لا نرى في معظم الحدائق الصينية خطوطاً مستقيمة تقسم مشاهد الحديقة إلى أجزاء متساوية، بل نجد فيها مساراً مائياً ملتوياً يحيط بالمرتفعات، وكذلك تظل النباتات على شكلها الأصلي حتى تندمج الحديقة مع الطبيعة بأكبر قدر ممكن.

بالمقابل، إن المبادئ الغربية التي تشدد على انتصار إرادة الإنسان على الطبيعة تنعكس على تصميم الحدائق هناك. فكثيراً ما نرى بنىً هندسية فيها، كما أن جميع مناظر الحدائق الغربية تحمل علامات اصطناعية واضحة في جميع



ثناياها، سواء أكان ذلك في المباني أو النباتات. إذ إن ترتيب المباني منتظم، ولا يكاد يوجد مصدر للمياه إلى النافورات أو البرك المحتواة في أشكال هندسية، أما الطرق فتحيط بها أشجار من الجانبين؛ وكأنها حراس شرف انتظموا لدى تفقّد قائدهم لهم. في حين أن الأشجار تُشذَّب أغصانها بأشكال مختلفة: على شكل كرات، ومكعبات، ومخروطات وغيرها؛ فتجد تعبيراً عن الجمال الهندسي في جميع أرجاء الحديقة (الصورة 6-4). ورغم وجود الكثير من الأشياء الطبيعية في الحدائق الغربية، إلا أن المتفرج لا يملك إلا أن يشعر بأنها فقدت جاذبيتها الطبيعية.



الصورة 6-4 فيلا لانتي، إيطاليا (تصوير Focusphoto)

تتسم الفيلا بتناظر أجزائها المحوري، وانتظامها المتزن، وتمييزها الحاد بين المشاهد الرئيسة والأخرى الثانوية، وتقلّبها بين الأبعاد المختلفة. تتألف الفيلا من أربع أراضٍ مسطحة: حديقة مزخرفة عادية، ومبنى رئيس، ونافورة مستديرة، ومنصة عالية للتفرج على المشهد. وتنتظم جميع النباتات بأشكال وأنماط هندسية، حتى إن أغصان الأشجار قد شُذّبت لتتخذ شكلاً هندسياً بناء على التطور الكبير في فن نمذجة الأشجار.

فعلى سبيل المثال، يوجد في قصر فرساي، بالإضافة إلى مبنى القصر بالطبع، مبنى كنيسة ومسرح؛ وجميعها مرتبة ومنظمة بشكل كامل الاتساق، حتى إن أعمدة الشرفات وأحواض الزهور والمروج والتماثيل والنافورات جميعها مرتبة ترتيباً تاماً وفق أشكال هندسية كاملة تعبّر أفضل تعبير عن سيطرة الإنسان على الطبيعة (الصورة 6-5)



الصورة 6-5 تقليد مصغر لقصر فرساي في حديقة النافذة على العالم في شِنتشِن (تصوير وو ده بينغ)

قال الفيلسوف الألماني هيغل إن الحدائق الفرنسية تجسّد تطبيق المبادئ المعمارية على فن إنشاء الحدائق. إذ تنتظم النباتات في هذه الحدائق بنسب تتجانس مع القصور المهيبة ورائعة الجمال، كما تُزرَع الأشجار في خطوط مستقيمة لتشكل جادة بديعة، وتُهذَّب الأشجار بشكل مستمر لتحافظ على شكل متناسق. تم بناء السور المحيط بالحديقة باستخدام الخيزران أو الأشجار ذات الأغصان، وهكذا تتحول الطبيعة إلى قصر مفتوح.

أما الفرق الثالث بين طرازَي تصميم الحدائق فهو الحجم؛ فمع أن الحدائق الصينية الأولى كانت هائلة الحجم، إلا أنها وبدءاً من عهد سلالة سونغ بدأت تسعى إلى المثال الذي لطالما تحدثنا عنه في هذا الكتاب؛ أي تقليص حجم الطبيعة إلى مساحة محدودة. فحتى أضخم الحدائق الإمبراطورية التي حفظها لنا التاريخ- أي مصيف تشنغده - لا تتجاوز مساحتها 584 هكتاراً، أما حدائق الأدباء الموجودة جنوب الصين فأكبرها لا تزيد مساحتها عن بضع عشرات مو؛ بل إن مساحة حديقة يي يوان لا تزيد عن 2 مو؛ مما يجعلها أصغر حديقة موجودة في شانغهاي. ولكنها ورغم صغر حجمها تحتوي على كل ما هو مطلوب تواجده في الحديقة؛ بما في ذلك تلة وبركة ماء وجسر وبيت عالٍ ومقصورة واستوديو وقارب ومقصورة مائية وشرفة وأشجار قديمة وأشجار خيزران خضراء؛ وقد ذاع صيتها إلى أن أصبحت إحدى حدائق شانغهاي العشر المشهورة. ومن الأمثلة الأخرى على الحدائق المصغرة للغاية حديقة تسانلي يوان، والتي لا تتجاوز مساحتها 140 متراً مربعاً، وهي أصغر حديقة تم اكتشافها في سوتشو.



الصورة 6-6 الحديقة الملكية في فرساي (تصوير Apreschindere)

تمتد هذه «الحديقة داخل الحديقة» مسافة ثلاثة كيلومترات داخل مساحة القصر، وتحتوي على كم هائل من المشاهد. يمكننا أن نرى فيها الترتيب المتناظر والمتسق للغابات والمباني والحدائق الأصغر حجماً؛ حيث تحتوي على 1,400 نافورة تقذف الماء باستمرار، وتحيط بها تماثيل ذات رونق باهر. كما توجد أيضاً أنوع مختلفة من التماثيل والبرك الاصطناعية، وتمتاز الحديقة بجمالها وضخامتها ومناظرها الخلابة.

لا تكاد الحدائق الخاصة – بالمفهوم الصيني للكلمة - تتواجد في الغرب، أما الحدائق الغربية الكلاسيكية فتكاد جميعها تندرج تحت صنف الحدائق الإمبراطورية في الصين؛ حيث تبنى هذه الحدائق خارج المدن سعياً وراء مساحات واسعة بما فيه الكفاية لبناء حدائق ذات أحجام كبيرة، وكذلك حيث يمكن للمشاهد أن تكون باهرة.

على سبيل المثال، يحتل قصر فرساي مساحة تبلغ 670 هكتاراً، ويشقه محور مركزي طوله ثلاثة كيلومترات؛ ممّا يصنع جواً من الهيبة والأبهة على هذه المساحة التي لا تكاد تصدق (الصورة 6-6). تشمل الأمثلة على هذا قطعَ أراضٍ كبيرة تُستخدم كمروج للعشب، ومناظر مائية مبالغاً في حجمها من شتى الأنواع، وتماثيل مختلفة في زوايا الحدائق والفتحات فيها.

الصورة 6-7 الجسر المتعرج ذو التعرجات التسع في لينغ ووي لونغ تساي تاي في جزيرة لانتاو (تصوير سو لانغ تشي)

كما هو ظاهر من الاسم، إن هذا الجسر المتعرج ينثني عند تسع نقاط. ولما كان العدد تسعة هو أكبر الأعداد الأحادية المفردة، كان الناس في الأزمنة القديمة يعتبرونه مباركاً ويشيرون إليه بألقاب مثل: «كل الكل»، و«العرش الإمبراطوري».

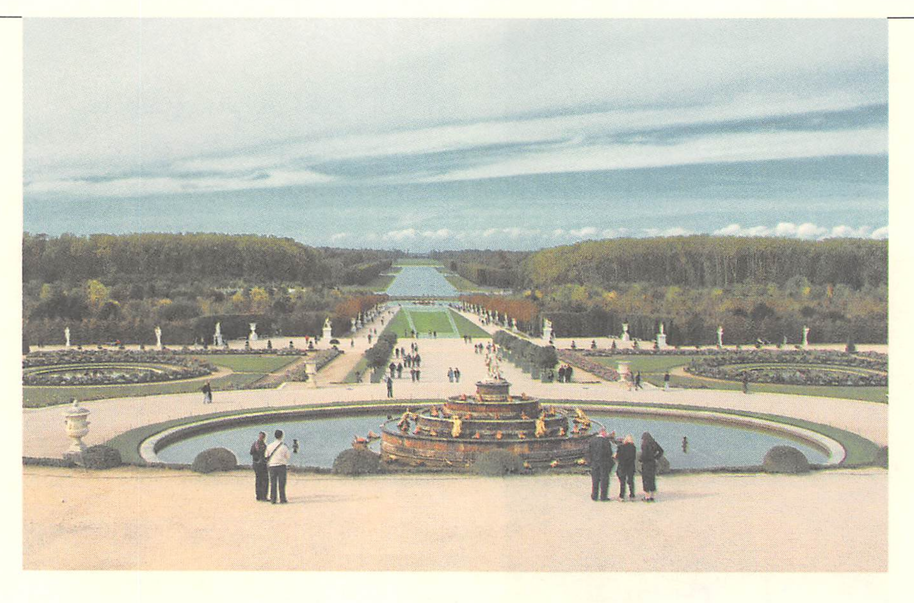
أما الفرق الرابع، فهو أنه ثمة اختلاف كبير في ترتيب الحدائق الإجمالي؛ فالحدائق الصينية تسعى إلى استخدام سحر الغابات والجداول الريفية، مع المحافظة على درجة كبيرة من التكامل بين الجمال الاصطناعي والجمال الطبيعي في الحديقة. لذا، تلعب المباني دوراً مكملاً للجمال الطبيعي الذي يركز تصميم الحديقة عليه.

بالمقابل، إن المباني هي القسم الأساسي في الحدائق الغربية، والمحور المركزي يمرّ عبرها مشرفاً على سائر الحديقة، فيظل التركيز على جلال المباني وبهائها، بل يتم أيضاً استخدام النباتات لتصبح جزءاً من المباني؛ ولهذا تسمى النباتات في الحدائق الغربية «المنشآت الخضراء»، أو «التماثيل الخضراء».

تشكل المعابر والطرق جانباً مهماً في تقدير جمال الحدائق الصينية، حيث تكتسب «الطرق المتعرجة المؤدية إلى أماكن منعزلة» أهمية خاصة في هذه الحدائق، وكذلك تتعرج الكثير من الجسور؛ حيث نجد فيها ثلاث أو خمس أو حتى تسع نقاط التواء (الصورة 6-7)، وحيث تبدو جميلة وأنثوية الطابع بدلاً من الخطوط المستقيمة التي تدل على القسوة والذكورية.

بالمقابل، نجد الكثير من الخطوط المستقيمة في الحدائق الغربية الكلاسيكية (الصورة 6-8)، والتي لا هدف لها إلا الغاية العملية؛ أي الربط بين مختلف جوانب الحديقة المقسمة بحسب محور مركزي، والمؤلفة من الكثير من الأشكال الهندسية. ولما كانت هذه المعابر تصنع الكثير من الزوايا القائمة، فإنها تبدو أقل رشاقة وأكثر ذكورية من نظيرتها الصينية.





الصورة 6-9 جادة مستقيمة في قصر فرساي (تصوير Aprescindere)

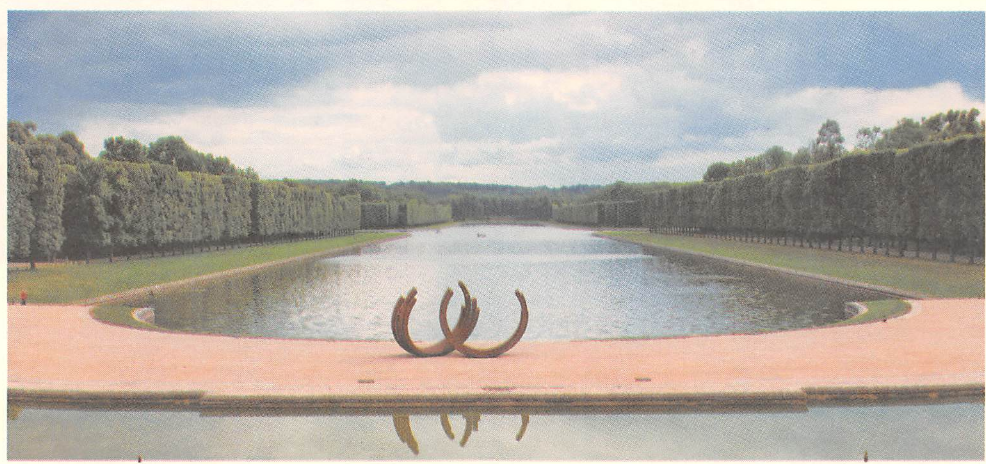
توجد غرب القصر حديقة فرنسية عملاقة تتميز بأسلوب تصميمها المميز، ومشاهدها البديعة، ومحورها المركزي البالغ طوله ثلاثة كيلومترات. جميع الطرق في الحديقة مستقيمة، وتشكّل أنماطاً هندسية مع الزهور والأعشاب والبرك المائية والنافورات والشرفات ذات الأعمدة. وتدعى الحديقة: «حديقة ركاب الأحصنة».

تتوزع الأسطح المائية في الحدائق الصينية بشكل متتابع ومترابط. وبغض النظر عن مدى صغر السطح المائي، يظل يلتوي في طريقه ليوجِد انطباعاً بوجود مصدر بعيد له (الصورة 6-9)، فتُظهِر الجداول والأنهار والشلالات جمالاً ديناميكياً داخل الحدائق الصينية.

أما الحدائق الغربية، فمسارات الأنهار فيها مستقيمة، بينما تتخذ أسطح البرك فيها شكلاً مستطيلاً أو مستديراً؛ أي شكلاً هندسياً على العموم. ومن الأمثلة على ذلك، القناة الطويلة غرب قصر فرساي (الصورة 6-10)، والبالغ طولها 1600 متر وعرضها 120 متراً.

وكذلك، من طبيعة المياه أن تتدفق من الأعلى إلى الأسفل، وتراعي الحدائق الصينية هذا القانون الطبيعي أثناء توجيه مسار المياه. أما الحدائق الغربية، فتجد في الكثير منها سعياً إلى نثر الماء إلى الأعلى (الصورة 6-11)، بل إن الحجارة المستخدمة لصنع تدرج في تدفق شلال اصطناعي تتساوى في طولها وعرضها، حيث تتدفق المياه بانتظام.





(الأعلى) الصورة 6-9 ضفة المياه المتعرجة في حديقة سيد الشبكات (تصوير هوي يان)

إن المشهد المركزي في حديقة سيد الشبكات هو الماء المتجمع في البركة. يوجد شمال غرب البركة جسر مصنوع من البلاط المتعرج، وهو منخفض إلى درجة أنه يكاد يلامس الماء. أما جنوب شرق البركة فيوجد جسر خفيف التقوس يدعى: الجسر المؤدي إلى الهدوء. تحيط بالبركة هضاب اصطناعية مصنوعة من الحجارة الصفراء، وكلها غير منتظمة الشكل وتعطي الانطباع بأن الماء جاء في الأصل من مكان بعيد، وأن مصدره يمتد متسعاً في طوله وعرضه.

(الأسفل) الصورة 6-10 القناة الكبيرة في فرساي، فرنسا (تصوير له شان)

يمتد طول القناة الكبيرة في قصر فرساي إلى 1600 متر، ويمتاز شكلها باستقامته التامة وضفته المنتظمة.



الصورة 6-11 نافورات في حديقة قصر فرساي، فرنسا (تصوير Onairda)

تغطي حديقة قصر فرساي مساحة 100 هكتار، وتحتوي على أكثر من 1400 نافورة

إنّ صوت خرير المياه مختلف تمام الاختلاف. ففي الحدائق الصينية، يُنظَر إلى صوت المياه على أنه جزء لا يتجزأ من جمال الطبيعة. أما الغربيون فلا يكادون يحفلون به، بل يجعلون الماء يجري في خراطيم معدنية مختلفة الأحجام تجعل تدفق المياه يصدر أنغاماً بسيطة في بعض الأحيان.

أما الفرق الخامس، فهو أن النظرية الفنية التي يقوم عليها بناء الحدائق مختلفة تمام الاختلاف؛ فأسلوب إنشاء الحدائق الصينية يركز على الانطباعية،

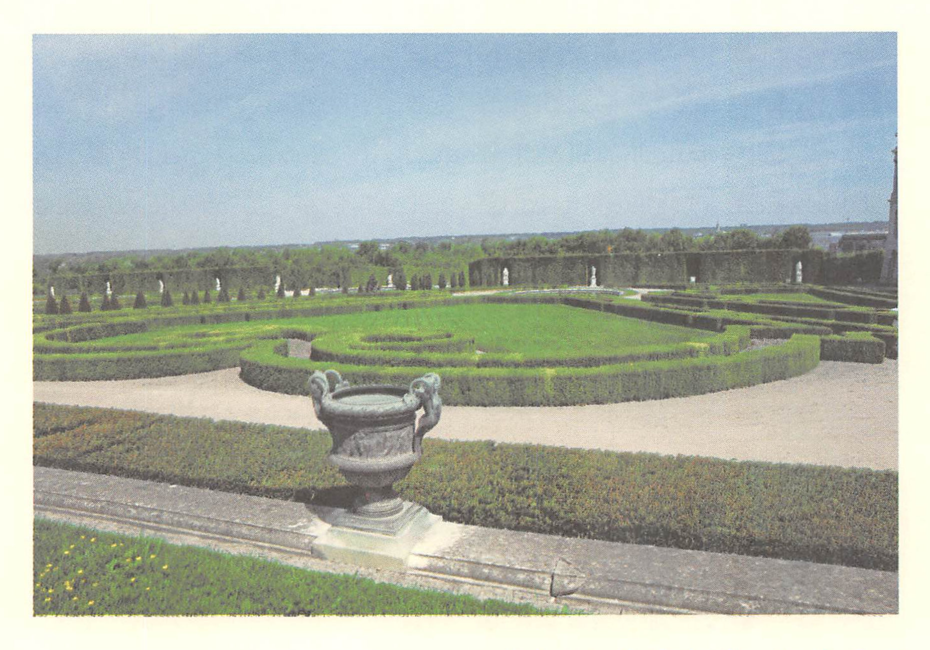
ويسعى عمداً إلى صنع سحر من الصور الجميلة الظاهرة ذات المضامين الخفية. فحتى أصغر الحدائق يمكنها أن تترك في نفس المتفرج أثراً بالعمق الكبير؛ ويقوم هذا على أسلوب إخفاء المشاهد والجمع بين المشاهد «الصلبة» و«الفارغة»، وهو تجمع للأضداد قد يثير حيرة المشاهد. كما تتميز الحدائق الصينية بمنعطفاتها والتواءاتها وطرقها المتعرجة المؤدية إلى الأماكن المنعزلة، ومشاهدها دائمة التغير حتى ضمن المساحات الصغيرة. على سبيل المثال، تتجلى المنعطفات والتعرجات في الغابات الصينية في الطريق المتعرج بين الهضاب الاصطناعية (الصورة 6-12) في حديقة غابة الأسود في سوتشو.

وبسبب التركيز على الانطباع الذي تتركه المشاهِد في الحدائق الصينية لدى الإنسان أُطلِق عليها لقب: «حدائق للمشاة». ولكن الحدائق الغربية على العكس

الصورة 6-12 الهضاب الاصطناعية والطرق المتعرجة في حديقة غابة الأسود (تصوير تشينغ هوانغ)

تشتهر حديقة غابة الأسود بهضابها الاصطناعية وصخورها المتكسرة وكهوفها العميقة. وتحتوي على الكثير من الهضاب الاصطناعية المصنوعة من الحجارة المجاورة للبحيرة ومتاهات الكهوف. وقد سُمّي المشهد الموجود في الصورة: «ثمانية عشر مشهداً لأرض زهور الدراق»، ويعكس تصميمها روح التكتم التي يشتهر الشعب الصيني بها.





الصورة 6-13 حديقة مسطحة وفسيحة في قصر فرساي، فرنسا (تصوير تسان تشي وِن)

إن الحديقة الغربية في قصر فرساي فسيحة للغاية، ولكن يستطيع الزائر أن يرى كل ما فيها في لمحة واحدة؛ بما في ذلك بركة أبولو في آخر الحديقة. إن هذا التصميم يتناسب مع أسلوب الشعوب الغربية المباشر.

من ذلك تماماً، فهي تركز على الأسلوب الواقعي، وتسعى خلف الجمال الصناعي، وتهتم بانتظام الأشكال هندسياً، والألوان البهيجة - حتى لو كانت غير طبيعية - كما تهتم بالأسلوب المباشر والمنفتح في التصميم. وكثيراً ما تُشيّد على أراضٍ مسطحة ومفتوحة تشتمل على مروج خضراء، ولذلك يستطيع المشاهدون أن يروا كل ما تقدمه الحديقة بنظرة واحدة. وكلما كانت هذه النظرة من علو أكبر كانت أفضل، ولذلك كثيراً ما يقال عن الحدائق الغربية إنها «حدائق ركاب أحصنة» (الصورة 6-13).

يعشق الغربيون التماثيل، ولذلك يمكننا أن نرى عدداً كبيراً منها في الحدائق الغربية (الصورة 6-14). فعلى سبيل المثال، يمكننا أن نرى في الحدائق الألمانية بالإضافة إلى التماثيل المعتادة، أشكالاً منحوتة على جذوع الأشجار الجافة. أما الحدائق الصينية، فلا يكل مصمموها ولا يملون من بناء الهضاب الاصطناعية.



الصورة 6-14 المنحوتات المصنوعة مباشرة من الأشجار الجافة في الحدائق الغربية (تصوير Moramora)

يعشق الغربيون التماثيل، وكثيراً ما يكون تمثال لشكل إنساني مركز الحدائق الغربية البصري المزين عادة بأكثر من عمل نحتي. فبالنسبة إلى الجمهور الغربي، الحجارة في شكلها الطبيعي ليست شيئاً يقدر لجماله.

وبسبب تقدير الصينيين لجمال الأشجار والزهور، نراهم يركزون أكثر على أوضاع النباتات بدلاً من اختلافها. لذا، قد يرضيهم تقدير جمال زهرة واحدة. أما الغربيون فيركزون على التنوع بشكل أكبر؛ فالحدائق الفرنسية على سبيل المثال تحتوي على تنوع كبير من الزهور، وحدائق قصر فرساي وحدها تحتوي على أكثر من مليوني وعاء للأزهار. كما يعتني الشعب الفرنسي أكثر بأنواع الزهور وأعدادها والأنماط التي تؤلفها أكثر مما يحفلون بوضع الزهور وكيفية نمو كل منها؛ فالشعب الفرنسي لا يقدر الزهرة بقدر ما يقدِّر النمط الذي تنمو فيه حديقة زهور كاملة.

إجمالاً، يمكننا أن نلخِّص الفرق بين الحدائق الغربية والحدائق الصينية بأن الأولى تُسعِد الأنظار، أما الثانية فتخاطب المشاعر والعقول بقدر ما تخاطب الحواس.

المقارنة بين الحدائق الصينية والحدائق اليابانية

لا يمكن لأي وصف للحدائق الشرقية أن يكتمل دون ذكر الحدائق اليابانية؛ فتأثيرها العالمي لا يقل أهمية عن تأثير الحدائق الصينية. وتاريخياً، ظلت الصين المصدرَ الخارجي الأساسي للحضارة اليابانية. لذا، تنبثق الحدائق الصينية واليابانية من الأصول الفكرية والفلسفية نفسها، فتوجد الكثير من نقاط التشابه بينها. لقد ذهب البعض حتى إلى القول إن الحدائق اليابانية في الحقيقة فرع من الحدائق الصينية؛ ولكن هذا لا يعني أن الحدائق اليابانية نسخ عمياء لنظيرتها الصينية، فثمة فروقات في الخلفية الثقافية والحضارية بين البلدين، كما أن بوذية طائفة تشان (والتي تسمى «زِن» في اليابان) تطوّرت بشكل مختلف في كل منهما، فوجد ذلك تعبيراً عنه في فنّ الحدائق، بالإضافة إلى الفروقات بين عقلية كل شعب من الشعبين ووعيه الجمالي.

لدى تفحّص أنواع الحدائق، يمكننا تقسيم الحدائق الكلاسيكية في كل من الصين واليابان إلى حدائق إمبراطورية، وخاصة، وتابعة للمعابد. لكن الحدائق الإمبراطورية في الصين أكثر بهاء وجمالاً وضخامة من الحدائق الخاصة، أما في اليابان فالحدائق الخاصة أجمل من الحدائق الإمبراطورية. تبدو الحدائق الإمبراطورية في الصين مهيبة وكريمة وهائلة الحجم وخلابة المنظر، كما أن المباني بينها مطلة وثرية بزينتها وزخارفها.

بالمقابل، شُيِّدت الحدائق الإمبراطورية في اليابان على نطاق أصغر، وتخلو منازلها المسقوفة من الزينة، كما تحتوي على أشجار أكثر مما تحوي عليه من بيوت. يمكننا أن نلاحظ هذا في حدائق كيوتو المشهورة: فيلا كاتسورا الإمبراطورية (الصورة *6-15*)، وقصر سينتو الإمبراطوري، وفيلا شوكاغوإن الإمبراطورية، وحديقة قصر كيوتو الإمبراطوري.

يمكننا أن نقسّم الحدائق الخاصة وحدائق المعابد في اليابان إلى أصناف أخرى أيضاً: الحديقة ذات المناظر الطبيعية الجافة، والحديقة المائية التي تحتوي على بركة أو شلال، والحديقة ذات التلال الصخرية الاصطناعية، والحديقة المسواة بالأرض، وكشك تناول الشاي.



الصورة 6-15 حديقة إمبراطورية يابانية – فيلا كاتسورا الإمبراطورية (تصوير Razvanjp)

تحتل فيلا كاتسورا الإمبراطورية مساحة 93,000 متر مربع، وتشتهر بباحتها ومبانيها يابانية الطراز. وتشمل القصور فيها كوشوين وتشوشوين وشينغوتين. تحيط مباني شوين ومقصورة الشاي بالبركة، وهذا تصميم يدمج بإبداع بين الحديقة والمباني. وفي وسط الباحة، توجد بركة تحتوي على جزر كبيرة وصغيرة بالقرب من شوين ومقصورة الشاي، ويبدو المنظر الخلاب في غاية الترتيب والسكينة.

ما تعنيه الحديقة الجافة هو ترتيب الحجارة الجبلية حيث لا توجد بركة ماء أو جدول جارٍ في الحديقة. وفي هذه الحالة، ترمز الأتربة والصخور إلى الماء والجزر. أما الحديقة المائية ذات البركة أو الشلال فتجعل من السطح المائي مركز الحديقة. في حين أن الحديقة ذات التلال الصخرية الاصطناعية فتركز على بناء الهضاب الاصطناعية. أما الهضبة المسواة بالأرض فمصممة على قطعة من الأرض



المسطحة. بينما يتركز كشك تناول الشاي على ترتيب مشاهد مختلفة في المساحة المؤدية إلى منزل تناول الشاي.

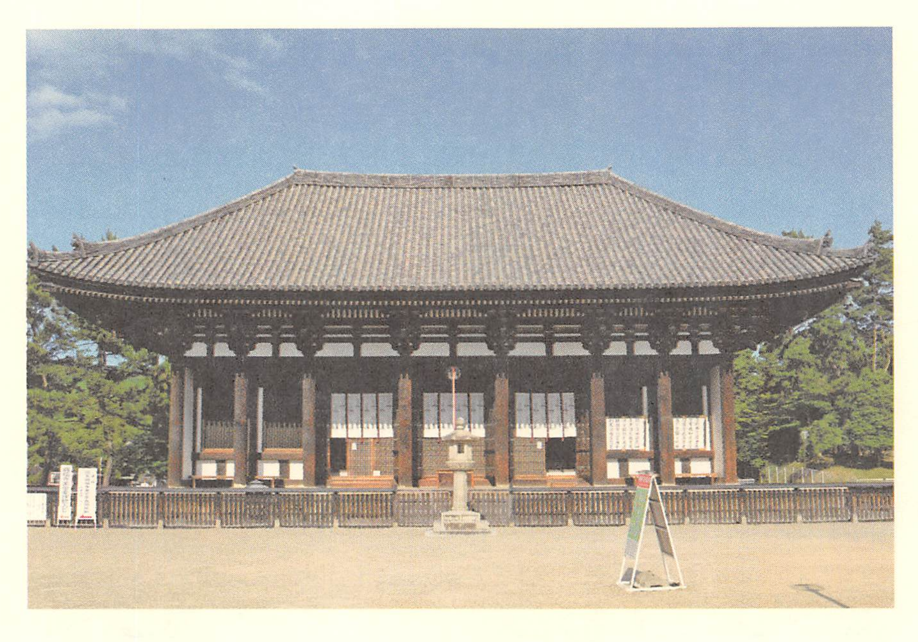
ترتبط الحدائق الصينية الخاصة بشكل وثيق مع الأدباء والشعراء وأهل العلم. وقد لعبت دور المكان الذي كان هؤلاء الرجال يدرسون فيه قبل التحاقهم بمراكز الدولة، والمكان الذي يرجعون إليه للتأمل بعد تقاعدهم؛ فكانت مكاناً يطلقون فيه العنان لعقولهم ويجتمعون فيه مع نظرائهم من أهل العلم والأدب. لذلك، غالباً ما تعكس الحدائق الصينية السعي وراء الشخصية المثالية الكاملة والاهتمام الجمالي الفلسفي. لذا، كان الطابع الغالب عليها هو صغر الحجم، وإبداع التصميم، والسحر الشاعري.

وبالمقابل، عبر السنوات الألف التي تفصل بين مرحلة الكاماكورا ونهاية حقبة إيدو في التاريخ الياباني؛ وهي الحقبة التي حكمت فيها البلاد سلسلة من القادة العسكريين يُسمّى كل واحد منهم «الشوغون»، ظلت حدائق الساموراي الإقطاعيين هي الطاغية على الحدائق الخاصة، وكانت الفلسفة التي تحكم سلوك الساموراي هي التي تنعكس على تصميم هذه الحدائق، وهي فلسفة تشدد على الشجاعة وشدة العزيمة والشعور العالي بالواجب. وقد تخللت هذه الحدائق مشاهد لأحجار ضخمة وشلالات باهرة ومبانٍ رائعة، فكانت حدائق الساموراي بحق تفوق الحدائق الإمبراطورية والحدائق الخاصة حجماً وزينة وروعة وجمالاً **(الصورة 6-16)**.

ومن الأمثلة على هذه الحدائق حديقة ريكوجيين في طوكيو؛ وهي حديقة خاصة تملكها الساموري ياناغيساوا يوشي - ياسو. تحفل الحديقة بالأذواق التي سادت بين الساموراي، مع أنها نالت اسمها من «الفنون الصينية الستة»؛ أي أساليب التعبير الثلاثة المستخدمة في الشعر الصيني الكلاسيكي: فو (التعبير المباشر)، بي

الصورة 6-16 ني جو جو في اليابان (تصوير شي يه)

لقد أدرج موقع ني جو جو في لائحة مواقع التراث العالمي. وقد بدأ بناؤه سنة 1603، حيث كان مقر إقامة القائد السياسي والعسكري الشهير توكوغاوا إيه - ياسو في كيوتو. يحيط بالموقع سور يبلغ طوله 500 متر من الشرق إلى الغرب، وعرضه 400 متر من الجنوب إلى الشمال، كما حفر فيه خندق صغير.



الصورة 5-17 مبنى ياباني من نوع الجينجا (مزار الأرواح في ديانة الشنتو) - نارا جينجا (تصوير سيبافو)

يغطي الرمل الأبيض مقدمة الباحة، ويعكس أشعة الشمس في الظهيرة فيظهر عليه السراب، ويظهر أثر مماثل في الأيام الغائمة، ولذلك تسمى الأراضي ذات الرمال البيضاء «بالأراضي الأكثر جمالاً وطهراً» في اليابان، وتشير إلى سرية الجينجا وقداستها.

(التشبيه)، شينغ (الرمز)، والأجزاء الثلاثة التي تؤلف كتاب الأغاني الصيني: فينغ ويا وسونغ. ما يميز حدائق الساموراي هو وجود مزارع للخيول فيها، بالإضافة إلى حقول لرماية السهام كانت تُستخدَم للتدرب على فنون القتال وعرضها أمام الزوار.

أما بالنسبة إلى معابد الحدائق، فقد مر معنا أن حدائق المعابد الصينية تشمل المعابد البوذية والمعابد الطاوية، أما حدائق المعابد في اليابان فتشمل حدائق المعابد البوذية وحدائق الجينجا (المعابد والمزارات في الديانة الشنتوية) (الصورة 6-17). يُستخدم أسلوب الحدائق الخاصة في إنشاء حدائق المعابد في الصين مع التركيز على السحر الشاعري. كما أن جميع الحدائق الصينية تعكس خصائص الفلسفة الكونفوشيوسية التي تجعل من الدين مسألة عامة ولا تخصص أسلوب المعبد عن غيره.

بالمقابل تحمل حدائق المعابد اليابانية خصائص واضحة وقوية تتميز بها المعابد؛ وذلك باستخدام الصور الدينية وصنع الأجواء الروحية. وقد كان لها أثر عميق في أنواع الحدائق الأخرى؛ حتى إن حدائق الساموراي تستعير أساليب التعبير الموجودة في حدائق المعابد. تشدد حدائق المعابد البوذية على تفكير فلسفة زِن، وتركز على الخصائص البوذية مثل استخدام باحات جافة، وعلى إضفاء طابع ديني حتى على الأشياء الدنيوية. أما حدائق الجينجا فتتألف غالباً من المباني مع قطعة أرض مغطاة بالرمل الأبيض أمام صحن المبنى، وتعكس جواً من السرية والقداسة.

تشترك الحدائق الصينية واليابانية في كونها تقوم على المشاهد الطبيعية في تصميمها الكلي، لكن الحدائق الصينية وتحت تأثير بيئتها المحلية تركز على الهضاب بشكل أكبر من المياه. غير أن اليابانيين تأثروا بالثقافة البحرية أيما تأثر، لذا تجدهم يركزون في مشاهدهم الطبيعية على الماء أكثر من الهضاب. عادة، يكون المشهد المائي في الحدائق الصينية انعكاساً حقيقياً للأنهار والبحيرات والبحار، أما الحدائق الصينية فتحاكي عادة مشهداً بحرياً معيناً.

قد لا تحتوي الحدائق الصينية على جزر اصطناعية، غير أنه لا غنى عن الهضبة فيها؛ سواء أكانت حقيقية أم اصطناعية. أما الحدائق اليابانية، فهي بعكس ذلك تماماً؛ إذ قد لا تحتوي على هضبة أصلاً، ولكن لا غنى لها عن الجزيرة. فمراكمة الحجارة في الحدائق الصينية تعني هضبة تجسِّد جبلاً وخاصة جبل كونلون. أما في الحدائق اليابانية، فهذه المراكمة تمثِّل عادة جزيرة بحرية.

تنقسم أنواع الجولات في الحدائق إلى جولة بالقارب، وجولة عبر الطرق الموجودة في الحديقة (أو «جولة العودة» كما تدعى في اليابان)، والجولة الساكنة. والجولات الرئيسة في الحدائق الصينية هي الجولات الساكنة أو الجولات عبر الطرق. أما في الحدائق اليابانية، فالجولات الرئيسة هي الجولات الساكنة والجولات في القوارب.

ومع أن الحدائق الكلاسيكية في كل من الصين واليابان ترتكز على المشاهد الطبيعية في جوهرها، إلا أنها تختلف عن بعضها في استخدامها لعناصر البناء.

ففي الحدائق الصينية تستخدم صخور تايهو والصخور الصفراء وحجارة الكوارتزيت، أما في الحدائق اليابانية فتستخدم الحجارة الزرقاء والحجارة البركانية والكلسية غالباً. كما تكون الهضاب في الحدائق الصينية عالية وشديدة الانحدار لتمنح الزائر الإحساس بأنه في أعماق الجبال أو الوديان الصخرية، ويمكننا أن نرى ذلك في قمة قوانيون في حديقة التريث، وقمة الأسود التسعة (الصورة 6-18) في حديقة غابة الأسود في سوتشو. وبالمقابل، تنتظم معظم الصخور في الحدائق اليابانية، حيث تستلقي بشكل أفقي، ويبقى معظمها منخفضاً ونصف مدفون في الأرض، بينما تغطيها بعض الطحالب الخضراء لإظهار أثر من الطبيعة؛ كما هو الحال في الصحن الداخلي لباحة كبير الرهبان في معبد ريوانجي في كيوتو (الصورة 6-19)، والصحن الشمالي لباحة كبير الرهبان في دايسن إن في معبد دايتوكوجي.

تستخدم أساليب مختلفة في مراكمة الحجارة في الحدائق الصينية بهدف الوصول إلى مشهد الهضبة العالية المحفوفة بالمخاطر وذات الحواف الوعرة والتي تتألف من صخور مخيفة. ومن الأمثلة على ذلك، الهضبة الاصطناعية في الحديقة الإمبراطورية في المدينة المحرمة. أما الحدائق اليابانية فبدلاً من الهضاب الاصطناعية تستخدم أكمات ترابية مغطاة بأعشاب المروج لمحاكاة الجبال الشهيرة. وحتى إذا استُخدِمت الهضاب الاصطناعية، فيُحافظ فيها على البساطة والطبيعية حتى تعكس روحية الأراضي الطبيعية، مع التركيز على صنع بيئة من الهدوء والسكينة. عادة، تكون الهضاب صغيرة الحجم.

أما ترتيب الأسطح المائية في كلٍّ من الحدائق الكلاسيكية الصينية واليابانية فقد تأثّر بالفنون السحرية الطاوية. وتحت هذا التأثير بيرز تصميم «بركة واحدة تحتوي على ثلاث جزر» ليرمز إلى البحر الشرقي والجبال الخالدة الثلاثة: بينغلاي وفانغتشانغ وويينغتشو؛ لكن معنى هذا الرمز ظل يضعف أكثر فأكثر في الحدائق الصينية، فتغير البحر إلى بركة، والجزر إلى جبل أو هضبة، ولم يعد أحد يتقيد بعدد معين من الجزر. أما في تصميم الحدائق الكلاسيكية في اليابان، فثمة التزام شديد بقانون «البركة الواحدة ذات الجزر الثلاث»، كما تحتوي الحدائق اليابانية على مشاهد معينة تتفرد بها؛ مثل «الجبال التسعة والبحار الثمانية»، و«الصخور الثلاث المكرمة» و«حجر العناصر الخمسة».



الصورة 6-18 قمة الأسود التسعة في الهضبة الاصطناعية في حديقة غابة الأسود، سوتشو (تصوير وانغ تشيونغ)

تنتصب القمة أمام جدار من الجص، ويوازيه ما يشبه المقصورتين في الباحتين الشرقية والغربية. للوهلة الأولى، قد لا نجد ما يميز القمة، ولكن عند إلقاء نظرة أكثر دقة سوف نجد أنها تشبه تسعة أسود صغيرة، وهنا يحتاج الأمر إلى الخيال لتقدير عبقرية التصميم في تشابهه وعدم تشابهه.



الصورة 6-19 الصحن الداخلي في باحة معبد ريوانجي في كيوتو (تصوير شي يه)

الهاوتيين هو الشكل المربع، وهو مغطى بالرمال البيضاء، ويحتوي على خمسة صفوف من الحجارة منتظمة في الأرض وتشكل نوعاً من الفوضى التي لا تخلو من الأناقة. تغطي بقع من الطحالب كتل الحجارة والأراضي المجاورة لها، وتتكامل مع مشهد أشجار الصنوبر خارج الحديقة. يترك طابع الحديقة التجريدي مساحة واسعة للخيال.



الصورة 6-20 مقصورة صغيرة مسقوفة بالقرميد في حديقة الحاكم المتواضع (تصوير وو دي في)

يُستخدم القرميد كمادة أساسية للسقوف في الحدائق الصينية الكلاسيكية، وينقسم إلى نوعين: القرميد المصنوع من الفخار، والقرميد الملون المصقول. يُستخدم القرميد الفخاري الرمادي في الحدائق الخاصة، أما القرميد الأصفر فيستخدم في الحدائق الإمبراطورية. يُستعمل قرميد الإفريز في نهاية الأسقف المقوسة مع أنماط مختلفة مرسومة.

أما ترتيب المناظر المائية في الحدائق الصينية فيتبع التصميم فيه مبدأ محدد، وهو أنه «ينبغي تجميع الأسطح المائية الصغيرة وتقسيم الأسطح المائية الكبيرة». في حين أنه يُستخدم أسلوبان في تنظيم المياه في الحدائق اليابانية: واحد للمياه الجارية، وواحد للمياه المنخفضة. وعادة، تجمع المياه في السطح المائي الجاري لكونه صغيراً؛ باستثناء حدائق النافورات المائية مثل فيلا كاتسورا الإمبراطورية وقصر سينتو الإمبراطوري. أما ترتيب المياه المنخفضة فمن الأمثلة عليه الصحن الجنوبي في باحة كبير الرهبان في معبد توفوكوجي في كيوتو، حيث تستخدم الحجارة لترمز إلى الهضاب متموجة الشكل، وفي تنظيمها الفردي أو الجماعي تشير إلى الجبال شديدة الانحدار أو القمم التي ترتقي فوق بعضها بعضاً. يستخدم الرمل الأبيض ليرمز إلى بحيرة أو بحر؛ فالرمل حين يُمدَّد يوحي بامتداد



الصورة 6-21 توجد الأكواخ المسقوفة المغطاة بالقش في كل مكان في الحدائق اليابانية (تصوير يوريز)

عادة، تُغطى الأكواخ اليابانية التقليدية بالقش دون الكثير من الزينة أو الزخرفة أو الألوان الفاقعة. وهذا يختلف تمام الاختلاف عن الطراز البهيج المتبع في مباني الحدائق الصينية.

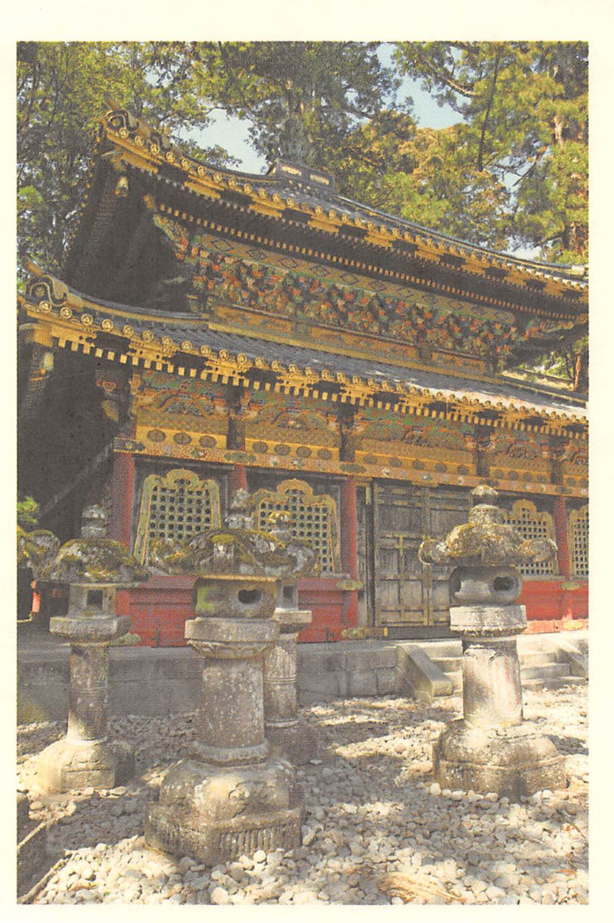
شاسع، والمقصد منه هو امتداد البحر. أما حين يُمشَّط بشكل خطوط مقوسة ومتوازية فهو يعني عباب البحر الزاخر بالأمواج، وحين يمشط بشكل حلقة حول الحجارة فهو يمثِّل الأمواج المتفجرة التي تضرب الساحل.

تحتوي كل من الحدائق الصينية واليابانية على المباني، إلا أنها أكثر شيوعاً في الحدائق الصينية؛ حيث يمكن للمقصورات أن تتواجد بكثافة، وأهم المواد المستخدمة فيها هي الخشب، تليه التربة والحجارة والطوب والقرميد. أما الحدائق اليابانية فتحتوي على عدد أقل من المباني، وعادة تُستخدَم المواد الخشبية والنباتية في صناعة المباني. كما تُسقَف المباني في الحدائق الصينية عادة بالقرميد (الصورة 6-20)، في حين أن المباني في الحدائق اليابانية تُسقَف بخشب العرعر والقش (الصورة 6-21). وفي مباني الحدائق الصينية، تستخدم الأبواب والنوافذ ذات المفاصل،



الصورة 6-22 إيشيتوري حجري على بوابة نيكو توشيوغو في إيينو في اليابان (تصوير تشن هاو)

يشبه الإيشيتوري الياباني الممر الصيني المزين في شكله ووظيفته. فبالإضافة إلى كونه يشير إلى وجود معبد أو جينجا فهو يستخدم لتزيين المعابد والباحات.

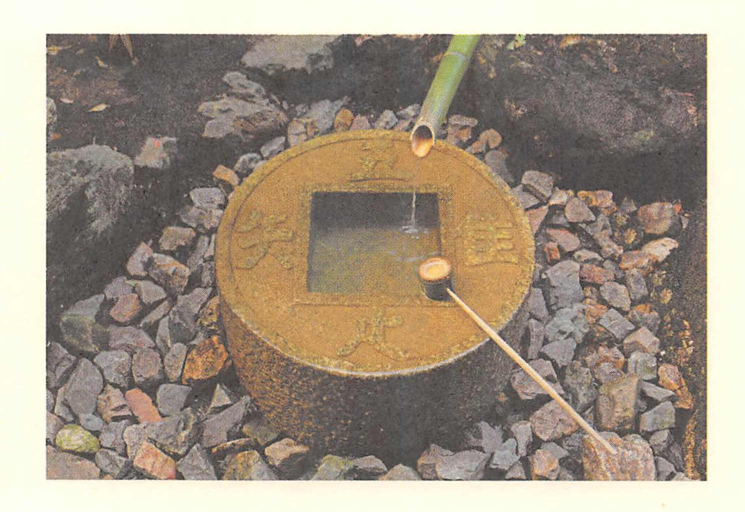


الصورة 6-23 المصابيح الحجرية أمام نيكو توشيوغو في إيينو، اليابان (تصوير تشانغ مين جيه)

من أهم الطقوس التي يمارسها اليابانيون تقديمُ الأنوار أمام تمثال لبوذا. ومنذ عهد نارا، بدأ بناء المصابيح الحجرية أمام معابد بوذا، لكي تحمي الأنوار المقدَّمة المعابد. باستثناء المصابيح الحجرية الموجودة في المعابد والجينجا، تستخدم المصابيح الحجرية لتزيين الباحات والحدائق

وكثيراً ما تستخدم الأسوار الحجرية، بينما لا تكاد الألواح الخشبية تستخدم. أما في الحدائق اليابانية، فتستخدم الأبواب المنزلقة والكثير من الألواح الخشبية، بينما يندر استخدام الجدران الحجرية فيها.

المباني في الحدائق الصينية أعلى بكثير من تلك الموجودة في الحدائق اليابانية. وفي الحدائق الصينية تتوفر قطع أثاث أكبر في المباني، حيث يستطيع الناس الجلوس أعلى من الأرض. أما الحدائق اليابانية فتحتوي على عدد أقل من قطع الأثاث، ويجلس الناس عادة على الأرض. تنتظم الغرف في مباني الحدائق الصينية على أساس متناظر ومتسق، وتحتوي على زخارف غنية وعدد كبير من قطع الأثاث، ويستخدمها الأدباء والشعراء للكتابة؛ وهكذا يستطيع الزوار أن يستمتعوا بها بشكل ساكن ومن دون حركة. أما الحدائق اليابانية فلا تتمتع غرف مبانيها بهذا الترتيب المتناظر، وتكاد تخلو من الزينة، ولا تحتوي إلا على عدد قليل من قطع الأثاث، ويستخدمها الرهبان وشاربو الشاي للتأمل، كما أن مناظرها الداخلية مصممة بطريقة تمكِّن الجالس فيها من رؤية مناظرها وهو يمارس نشاطاته. كثيراً ما تتواجد رسوم ملونة في مباني الحدائق الصينية؛ وخاصة في المباني المزخرفة والمزينة في الحدائق الإمبراطورية. ولكن لا يمكننا أن نرى الكثير من الرسوم في مباني الحدائق اليابانية بسيطة الزينة. تشمل المباني في الحدائق الصينية عدداً كبيراً من أعمال الخط المكتوبة على اللوحات أو المنقوشة على الألواح والصخور. أما المباني في الحدائق اليابانية فتحتوي على عدد أقل من هذه الأعمال، وتكاد تنحصر في اللوحات الأفقية عند عتبات الأبواب. أما الأسوار الخارجية في الحدائق الصينية فهي في الغالب أسوار حجرية كبيرة وعالية. في حين أنها في الحدائق اليابانية في الغالب عبارة عن سياجات مصنوعة من الخيزران. تكون بوابات الحدائق الصينية عادة مهيبة الشكل وبدائية التصميم، أما بوابات الحدائق اليابانية الكلاسيكية فبعضها كان مصنوعاً من الأغصان المقطوعة. تشمل الزخارف المعمارية في الحدائق الصينية الطرق المعمدة التذكارية والألواح الحجرية والمقاعد والطاولات الحجرية، أما الحدائق اليابانية فتحتوي على الإيشيتوري الحجري (الصورة 6-22) والمصابيح الحجرية (الصورة 6-23) والأواني الحجرية المستخدمة لغسل اليدين (الصورة 6-24).

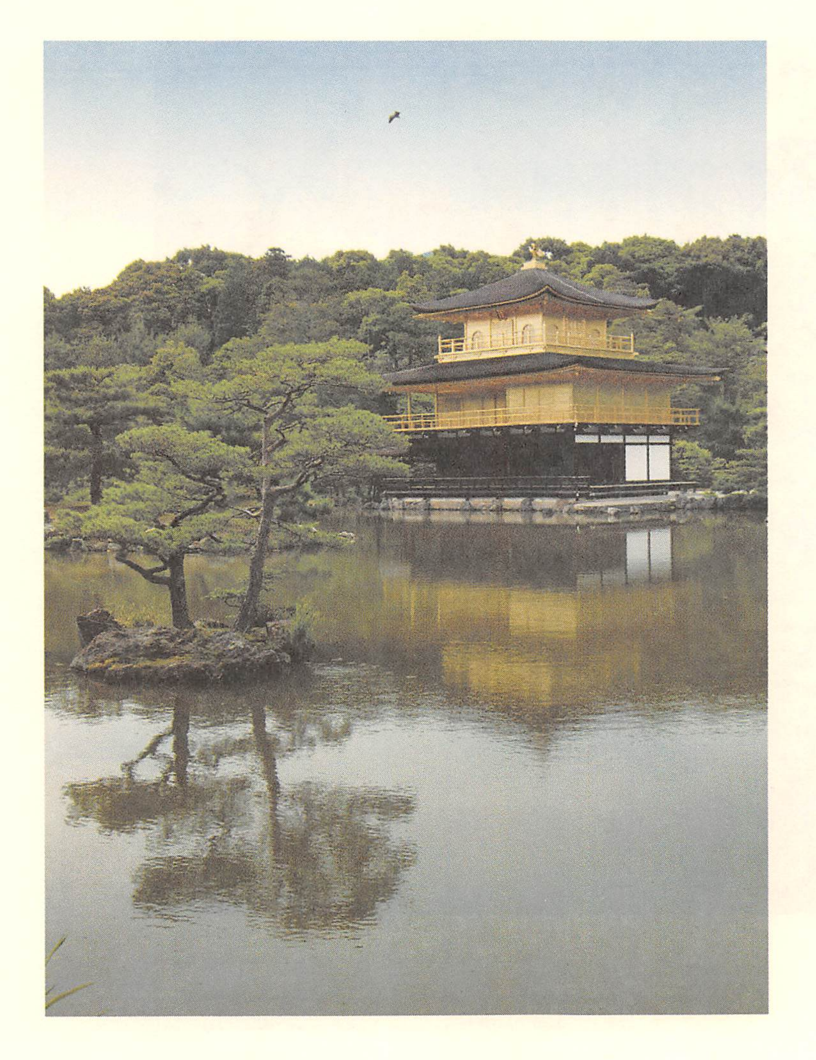


الصورة 6-24 آنية حجرية تستخدم لغسل اليدين شمال شرق باحة كبير الرهبان في معبد ريوانجي في كيوتو (تصوير شي يه)

لقد نقشت على سطح الآنية الكلمات التالية: «أنا فقط لدي عقل راضٍ»، وقد قدمها إلى المعبد الحاكم توكوغاوا ميتسوكوني، حفيد توكوغاوا إيه-ياسو (القائد الشهير، وأول شوغون في حقبة إيدو). سبب نقش هذه الكلمات، وهي رمز من رموز بوذية زِن، هو وضع أحجية أمام مستخدم الآنية كي يحاول حلها والتوصل إلى الأسرار الروحية الكامنة خلفها.

تلعب النباتات دوراً مهماً في كل من الحدائق الصينية واليابانية، لكن مصممي الحدائق الصينية يولون النباتات أهمية؛ من حيث الشكل الذي تتخذه، ولونها، والشعور الذي تبثه، بالإضافة إلى مضامينها الحضارية والثقافية التي فصّلنا الحديث عنها من قبل. ورغم أن الحدائق اليابانية تحتوي على أنواع أقل من النباتات من نظيراتها الصينية، إلا أنها بالمبدأ تستخدم النباتات نفسها نظراً لتأثر اليابان بالحضارة الصينية. وتشمل النباتات المختارة في الحدائق اليابانية «الرجال النبلاء الأربعة» (البرقوق والسحلبية والخيرزان والأقحوانة) ورفاق الشتاء الثلاثة (الصنوبر والخيزران والبرقوق). كذلك وتحت تأثير فكر بوذية زِن (أو بوذية تشان كما تدعى في الصين) يترك المجال لعدد كبير من الطحلبيات كي تنمو داخل الحدائق اليابانية، حيث نشأت نتيجة لذلك ثقافة من حدائق الطحالب. تركز الحدائق اليابانية على النباتات التي تظل خضراء طوال العام بدلاً من النباتات المزهرة لصنع جو من الوحدة التي تشجع على التأمل الروحي. ولعل أشجار الصنوبر (الصورة 6-25) والقيقب والساكورا (الصورة 6-26) والأزاليا تكون أكثر الأشجار شيوعاً في الحدائق اليابانية.

تركز الحدائق الصينية على تنوع النباتات والأزهار، أما الحدائق اليابانية فتركز على أوراق النباتات والتفاصيل الدقيقة فيها. ونتيجة اختلاف التركيز، يتبع مصممو الحدائق أساليب مختلفة تماماً في التعامل مع النباتات. ففي الحدائق الصينية



الصورة 6-25 أشجار صنوبر تحيط بمقصورة كينكاكوجي في كيوتو (تصوير Eg004713)

تقف هناك في المقصورة قاعة ساريرا الراقية، وتلقي بظلها على بحيرة المرآة الهادئة. يتكامل مشهد القاعة مع عدد من أشجار الصنوبر السوداء في محيطها، وتحميها أشجار ثرية بخضرتها وارتفاعها وجمالها.

تترك النباتات سواء أكانت أطول الأشجار أو أصغر الأعشاب لتنمو بشكل طبيعي، أما في الحدائق اليابانية فالأمر عكس ذلك تماماً، إذ كثيراً ما تشذب النباتات، وتصغَّر النباتات ضخمة الحجم، وتفضَّل النباتات النحيلة والضعيفة على غيرها.

إجمالاً، لا شك بأن الحدائق الصينية واليابانية رائعة، وتحسّن من تربة الحضارة شرق الآسيوية، ويمكننا من خلال إجراء المزيد من الدراسة والتحليل والمقارنة أن نحسّن من فهمنا للعناصر الممتازة المستخدمة في بناء الحدائق في البلدين،

الصورة 26-6 قلعة هيموجي، اليابان (تصوير Srlee2) الصفحة

هذه هي القلعة المشرفة على مدينة هيموجي في هيوغو كين، وتدعى أيضاً: «مدينة مالك الحزين الأبيض» بسبب سورها الأبيض. تشتهر القلعة بزهور الكرز فيها، وهي من الأماكن السياحية الشهيرة في اليابان، وقد صنّفتها منظمة اليونيسكو ضمن لائحة مواقع التراث العالمي.

والقائم على إرث البلدين الغني. ولا شك بأن حفاظ اليابانيين على المبادئ البيئية في الحدائق - حتى ضمن مدنهم الحديثة، واستمرارهم في احترام الطبيعة، وتثمين المصادر الرافدة لها - مزية جديرة بالاحترام وبأن نتعلمها منهم.

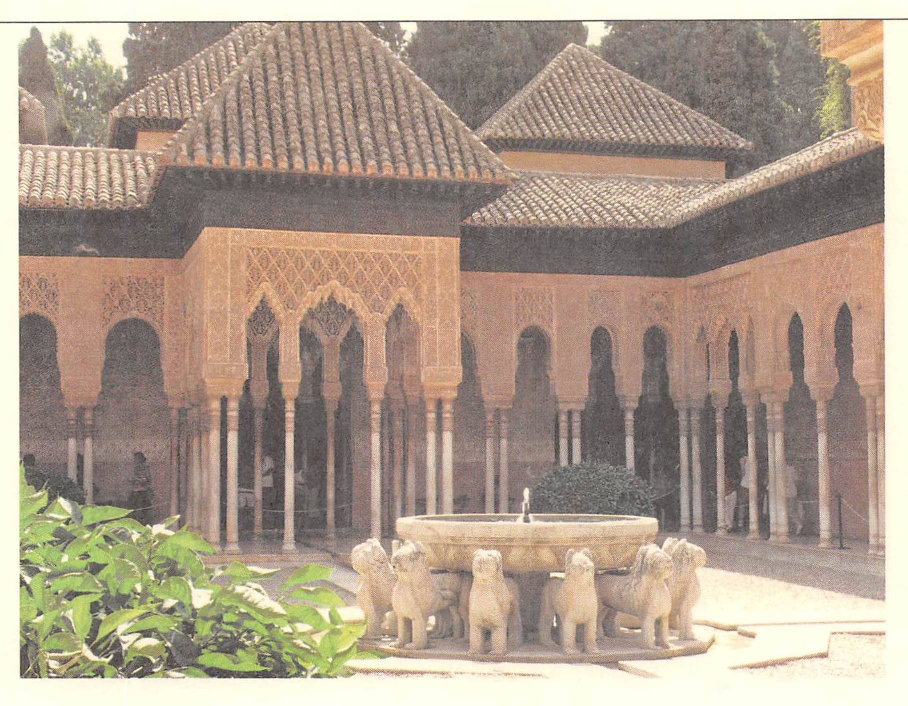
| المقارنة بين الحدائق الصينية والحدائق الإسلامية

تشكّل الحدائق غرب الآسيوية (العربية) القسم الأكبر من الحدائق الإسلامية، ويعتبر نظام تصميمها أحد الأنظمة العالمية الثلاثة في تصميم الحدائق. وقد أرسى أركانها العرب القدامى الذين ورثوا فنون حدائق بلاد الرافدين وفارس. لقد كانت هذه الحضارة تتمركز في بلاد الرافدين (في نهري دجلة والفرات)، وتمتد إلى بلاد الشام وفارس، حيث لاقت أفضل تمثيل لها. ومن بعد ذلك إلى حدود العالم العربي. ونتيجة اتساع رقعة هذه الحضارة، أثّرت عبر إسبانيا على تصميم الحدائق في أوروبا بأسرها، كما مارست تأثيرها على شبة القارة الهندية بكاملها. وقد تجسد فن تصميم الحدائق هذا في لمساته الاصطناعية الهندسية التي يفترض أن تقلّد المثل التي وصفتها النصوص الإسلامية عن جنة الفردوس وجمالها.

رغم اشتراك الحدائق الصينية والإسلامية في الأصول التي انبثقت منها (الخلفية الروحية والدينية لشعوب منطقة ما) وغايات بنائها ووظائفها، إلا أنه ثمة فروقات كبيرة بين طرازي الحدائق؛ نتيجة الفروقات في البيئة الجيولوجية والأحوال المناخية والعادات الاجتماعية والتقاليد الحضارية.

يمكننا القول عن الحدائق الصينية ومن خلال دراسة تصميمها إنها حدائق طبيعية ورثت من الطبيعة أشكالها غير المنتظمة، ومن البيئة الجيولوجية الصينية التناقض الصارخ بين علو الجبال الشاهقة وانخفاض السهول الخصبة. وباستثناء بعض الحدائق الإمبراطورية، لا نكاد نرى أي تناظر أو تقسيم هندسي واضح ضمن الحدائق الصينية، وينطبق هذا بشكل خاص على الحدائق الخاصة في جيانغنان ولينغنان؛ حيث يركز التصميم على إظهار حيوية الطبيعة وديناميكيتها وجمال المكان من عدة نقاط نظر، ويتم هذا عبر ترتيب مشاهد ذات جاذبية طبيعية بدلاً من تقسيم الحديقة إلى محاور هندسية.

تختلف الحدائق الإسلامية تمام الاختلاف من هذه الناحية، فهي تتبع أنماطاً منتظمة عادة ما تكون كما يلي: تقسم الحدائق المربعة إلى أربعة أجزاء من خلال تقاطع قناتي مياه، وتوجد عادة نافورة في وسط الحديقة، تستمد مياهها عادة من تحت الأرض، وتنثرها في اتجاهات الحديقة الأربعة عبر قنوات المياه. ترمز هذه



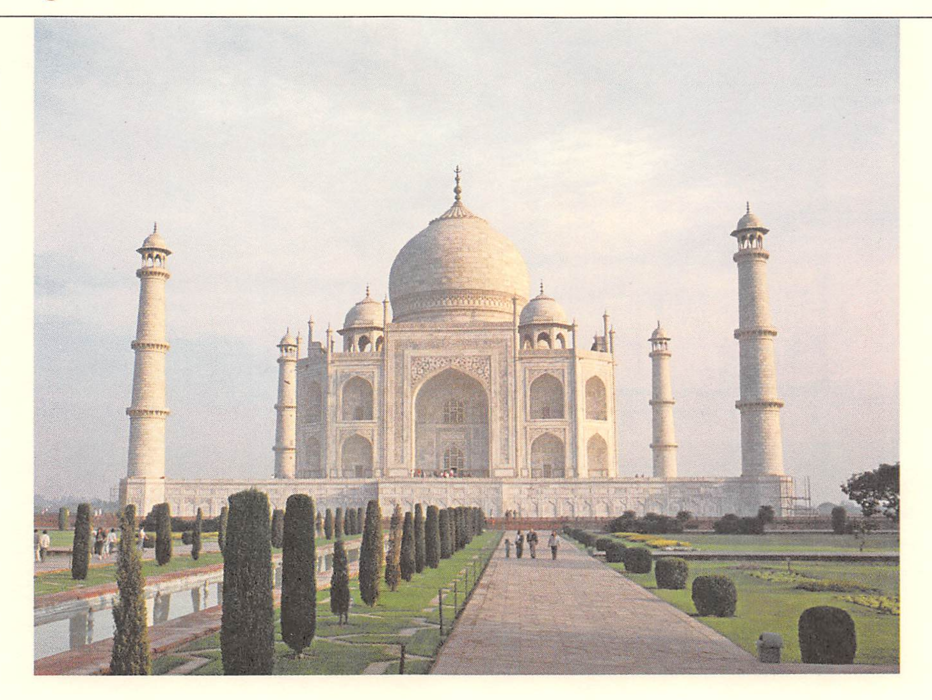
الصورة 6-27 بهو السباع في قصر الحمراء في إسبانيا (تصوير ألبرتو خورخه)

إن بهو السباع بهو عربي كلاسيكي تحيط به الأروقة المصممة على شكل حدوة الحصان. تتقاطع قناتا ماء في وسط الحديقة، وتوجد نافورة في مكان تقاطعهما تحتها. عند القاعدة 12 تمثالاً حجرياً لأسود منحوتة من الحجر، وقد نال البهو اسمه من هذه التماثيل.

القنوات الأربعة إلى أنهار الجنة الأربعة الموصوفة في القرآن الكريم: نهر الماء غير الآسن، ونهر اللبن، ونهر الخمر، ونهر العسل. ومن الأمثلة الممتازة على هذا التصميم بهو السباع في قصر الحمراء في إسبانيا (الصورة 6-27).

يميّز هذا الترتيب بين المشاهد الرئيسة والمشاهد الثانوية، ويوضّح أهم ما في الحديقة، ويرسم حدوداً واضحة بين زواياها المساحية المختلفة، ويترك انطباعاً بالنظام والوضوح. بالطبع، ثمة أنواع مختلفة من الحدائق الإسلامية، ومن الأمثلة الباهرة عليها الباحات الخارجية الموجودة في تاج محل، والمسجد والضريح الشهير رائع العمارة وأنيق الصنع (الصورة 6-28).

كما أنه لا غنى للحدائق الصينية عن الجبال أو الهضاب، ولا غنى للجبال أو الهضاب عن الحجارة، وقد كانت حجارة طبيعية تستخدم في بناء الحدائق الصينية

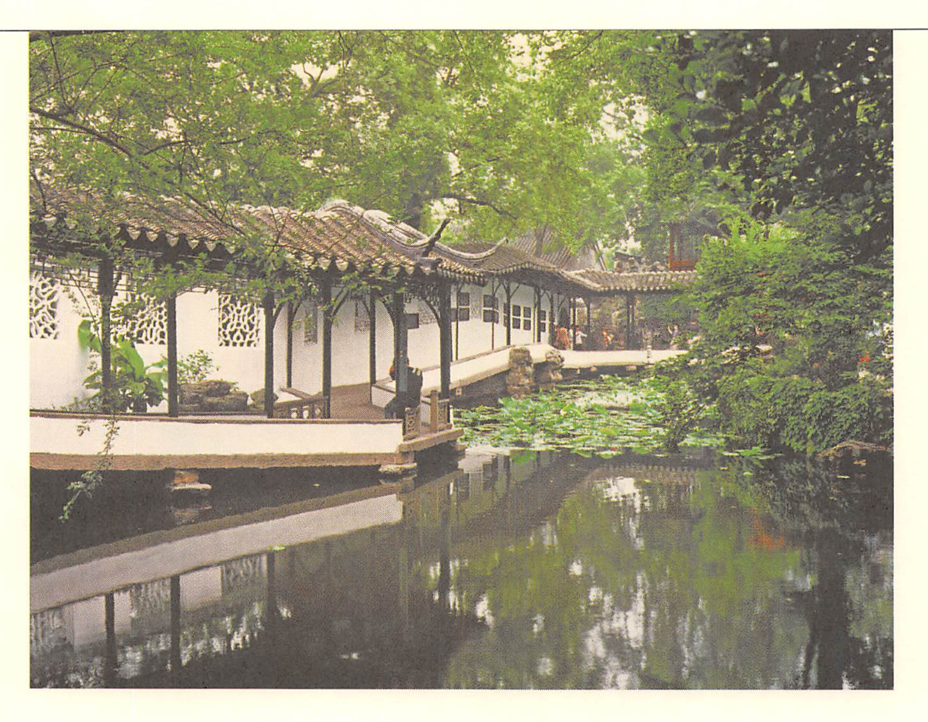


الصورة 6-28 تاج محل، الهند (تصوير لين جينغ هوا)

ترتبط بوابة تاج محل والضريح فيه بمعبر تام الاستقامة مرصوف بالحجارة الحمراء. تحيط الأرصفة بجانبي المعبر، وفي وسطه نجد نافورة وقنوات مائية تتقاطع عندها. وقد شيد المبنى على طرف القناة المائية بدلاً من مركزها ليشكل ترتيباً يختلف تمام الاختلاف عن الحدائق الإسلامية التقليدية.

الأولى، حيث تجمع الصخور لتتراكم على شكل هضبة اصطناعية لاحقاً. يمكننا القول إن إنشاء الهضاب الاصطناعية من المهارات التي تفرد بها مصممو الحدائق الصينية، ولا نرى مثيلاً لها في الحدائق الإسلامية التي تستخدم فيها الحجارة لصناعة القنوات والأبنية وليس الهضاب والجبال، وهذا من الفروقات الواضحة بين طرازي تصميم الحدائق.

تعتبر المياه من العناصر الجوهرية في كل من طرازي تصميم الحدائق، ولكن تختلف الحدائق الصينية بشكل كبير عن الحدائق الإسلامية من حيث وظيفة الماء فيها والشكل الذي تتخذه المياه. ففي الحدائق الصينية، ترمز الأسطح المائية إلى أشكال المياه الرئيسة الموجودة في طبيعة الصين: النهر والبحيرة والبحر. أما في الحدائق الإسلامية، فالماء شريان الحياة الذي يسقي النباتات فيها، وإذا استُخدِم



الصورة 6-29 الممر المائي في حديقة الحاكم المتواضع في سوتشو (تصوير وانغ لي لي)

تتدفق المياه إلى أسفل الممر الطويل صانعة صورة تشبه أقاليم الأنهار والبحيرات. وتلتف المياه في مسارها من خلف مقصورة ظل الباغودا في الزاوية الجنوبية الغربية إلى غرفة وِن تشنغ مينغ (غرفة تعبد وِن) وغرفة شن (شن تشو)، وبعد ذلك تجري إلى الناحية الشرقية، إلى بركة الماء الكبيرة عبر برج يحتوي على شرفة. تتلوى المياه في مسارها حول الحديقة.

بطريقة رمزية فهو يستخدم للإشارة إلى أنهار الجنة كما أسلفنا، أو إلى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي كما ورد في القرآن الكريم. يكمن الفرق الثاني في التعامل مع شكل السطح المائي وضفافه. ففي الحديقة الصينية، يركز التصميم على محاكاة الطبيعة وصنع أثر وهمي بأن الماء ينبع من مصدر بعيد، ولذلك تجد مسار المياه مليئاً بالمنعطفات التي تجسد جمال الأسطح المائية الطبيعية. مثلاً، تتعرج المياه التي تبدأ بالتدفق من جنوب غرب حديقة الحاكم المتواضع لتصل إلى البركة الكبيرة في وسط الحديقة، وتبدو وكأنها قطعة فنية خُطَّت على لوحة سيالة في الطبيعة (الصورة 6-29).

أما الحدائق الإسلامية فتوجد نافورة مياه في وسط ترتيبها، مع قنوات

متقاطعة تجري عبر الحديقة بأسرها؛ فتعبّر عن الجمال بلمسة إنسانية بديعة التصميم. وكذلك، لا تستخدم المياه في الحدائق الصينية إلا لأغراض الزينة، أما في الحدائق الإسلامية فتستخدم لتقسيم الحديقة ولري النباتات، ولا شك بأن النوافير وتمديدات الري بالتنقيط في هذه الحدائق لها جمالها الخاص تمثله خير تمثيل حديقة البرتقال في إشبيلية في إسبانيا. ففي هذه الحديقة، تمتد قنوات طويلة ورفيعة في شتى أرجاء الحديقة لتوصل المياه من النافورة المركزية - وترمز إلى أنهار الجنة - إلى جذور كل شجرة برتقال في الحديقة. أما الحدائق الإسلامية في الهند فتستخدم فيها الشلالات المتدرجة، ومياه الينابيع، والمساقط المائية لإعطاء شعور ديناميكي في الحديقة بأسرها؛ حيث تبدو الحديقة مفعمة بالحياة.

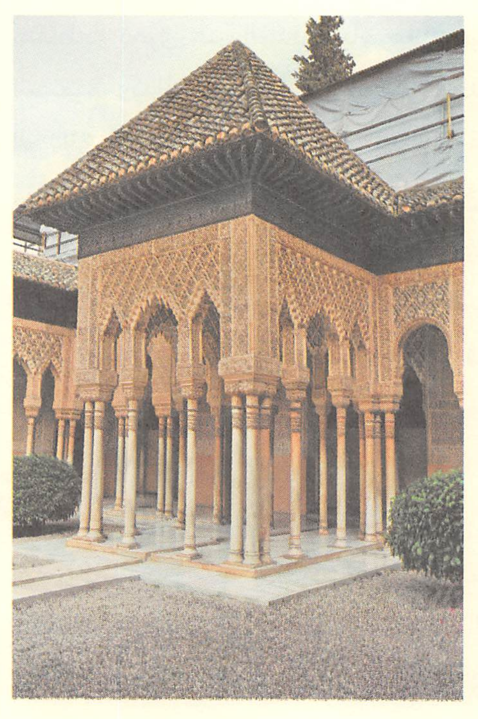
في الحدائق الصينية لا تقيّد الأسطح المائية، بل تترك لتتخذ مجالها سعياً وراء انطباع بأنها تحاكي الطبيعة ذاتها. كما أن المناطق المائية منفصلة بشكل واضح عن المناطق البرية، أما في الحدائق الإسلامية فتتخذ البركة أو النافورة شكلاً هندسياً (الصورة 6-30) مربعاً أو مستطيلاً أو دائرياً أو بيضاوياً يقيد ويحدد بالطوب المصقول. كما أن المياه في الحدائق الإسلامية تظل في متناول الناس، حيث يتمكن الزائر من الاغتسال بالماء. وفي بعض الحدائق، يوصل الماء حتى إلى شرفة مفتوحة تواجه الباحة. في بهو السباع في قصر الحمراء مثلاً، تكاد تجد الماء في كل مكان في الحديقة، وتوجد نافورة تحت ظل حتى أصغر الشرفات.

أما المباني في الحدائق الصينية، فيبنى معظمها من الخشب الذي يلعب دور الإطار الأساسي الداعم للأسقف المائلة والأفاريز المقوسة، حيث يبدو التصميم العام خفيفاً ورشيقاً ويتيح المجال أمام فتح عدد كبير من الأبواب والنوافذ دون قيود. بعض مباني الحدائق الصينية - مثل المقصورات - لا يحتاج إلى جدار أصلاً، أما الحدائق الإسلامية فعادة ما تكون المباني فيها باحات مبنية بالحجارة وتعطي انطباعاً قوياً بالثقل؛ إذ تحيط بها جدران متينة أو صف من الأعمدة. وتستخدم عادة الأنماط الهندسية مثل الجدران المربعة والأبراج المستديرة والقباب في الحدائق الإسلامية (الصورة 6-31).



الصورة 6-30 قناة المياه المستطيلة في قصر الحمراء، إسبانيا (تصوير Jblackstock)

هذه حديقة إسلامية نموذجية. الباحة فيها مربعة، وتوجد في وسطها قناة مائية تنتظم فيها عشرات النافورات، وتحيط بها أحواض الزهور. حين ينظر الزائر عبر صف النوافير فسوف يجد برجاً على الجانب المقابل، وهو تأثير له جاذبية خاصة.



الصورة 6-31 مبانٍ في قصر الحمراء في إسبانيا (تصوير Daanholthausen)

يستخدم البنّاء معرفته الرياضية ببراعة في تصميم المباني، حيث تمتلئ مساحاتها بالأشكال الهندسية المعقدة. ويتم توسيع الشعور بالمساحات من خلال عمليات تكرار للأشكال لا حصر لها، وقد قيل إن الشكل الثقيل الشبيه بالحصن يحمي من الأعداء الأجانب.

يكون ترتيب المباني في حدائق شمال الصين عادة منظماً نسبياً، حيث تزين المباني بأنماط ملونة وأشكال إنسانية وحيوانية ونباتات وسحب؛ أما حدائق جنوب الصين فعادة ما تحتوي على قرميد رمادي وجدران بيضاء وأبواب ونوافذ بنية اللون يجعلها تصميمها المرن تبدو رائعة الجمال وأنيقة، وتزينها عادة قطع خشب رقيقة ونقوش حجرية.

بالمقابل، تزين المباني الإسلامية بعدد كبير من الأشكال التجريدية والخطوط المقوسة القائمة على الأنماط الهندسية، ويفضّل استخدام الألوان الزاهية مثل الأصفر والأحمر والأخضر والأبيض فيها. في بعض الأحيان، يغطى المبنى بأكمله

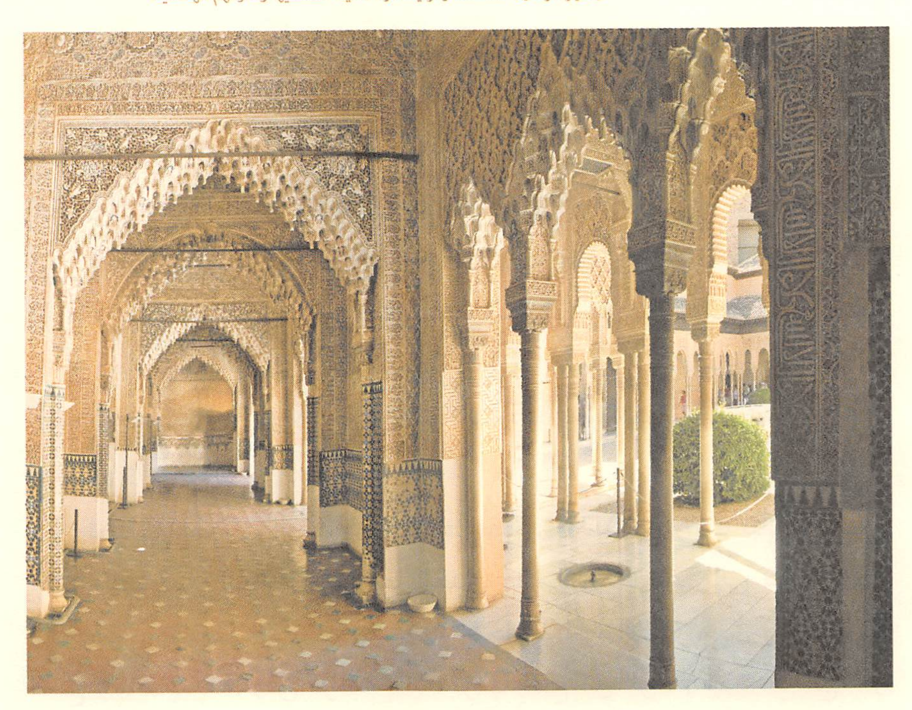
بالحجارة المصقولة أو بالفسيفساء ليصنع أثراً رائعاً وألواناً خلابة تتغير بشكل دائم مع الإضاءة والظل. تعكس هذه التأثيرات الباهرة صفات الزخارف الإسلامية وتجسد فن الزخرفة الإسلامية الذي يركز على الأنماط المعقدة، والذي لا يترك أي مساحة فارغة في المبنى (الصورة 6-32).

ربما يكون تاج محل الضريح الأجمل في العالم، وقد بني بكامله بحجارة الرخام؛ حيث يبدو مهيباً وأنيقاً وبهياً تحت السماء الزرقاء ومحيطه الأخضر. أما الحجارة الثمينة المستخدمة في تفاصيل المبنى فهي ذات ألوان متعددة تتفجر بالجمال الباهر.

يمكن لتوزيع النباتات المزروعة في الحدائق الصينية أن يتخذ نمطاً مزدحماً أو متناثراً لإظهار تأثير جمال الغابات والتوازن الروحي فيها؛ حيث تأثر مصممو

الصورة 6-32 تفاصيل زخرفية داخل مباني قصر الحمراء في إسبانيا (تصوير Ramirez125)

إن تصميم الزخارف هنا هو الأغنى في أجزاء المبنى. إذ إن النوازل المنحوتة بهذه الأنماط الهندسية تزين كامل المبنى، بالإضافة إلى زخرفته بالأشكال التي نجدها في المباني الإسلامية. وتظهر الزخارف المعقدة والرقيقة ثراء مخيلة مصمميها وقدراتهم الهندسية.





الصورة 6-33 زاوية الحديقة في قصر الحمراء، إسبانيا (تصوير ألبيرت خورخه)

تقسم الحديقة الإسلامية عادة إلى أربع مناطق تقسم بدورها إلى عدد من الحدائق المصغرة هندسية الشكل، حيث تتشابه أنواع الأشجار وتترتب بشكل هندسي.

الحدائق بالفكر الطاوي القائم على عبادة الطبيعة، فلا تكاد ترى أي نبتة مشذبة في الحدائق الصينية؛ بخلاف الحدائق الإسلامية والغربية حيث تنتظم النباتات بطريقة مرتبة، وتشذَّب بأشكال هندسية منتظمة. فإذا كانت الحديقة كبيرة الحجم، تتنوع النباتات فيها بشكل كبير. أما في الحدائق الصغيرة حيث تقترب النباتات من بعضها بعضاً، فيزرع النوع ذاته من النباتات عادة؛ حيث تمنح معاً شعوراً بالنظام المستقر والمتجانس (الصورة 6-33).

تختلف الحدائق الصينية في هذه النقطة؛ وذلك لأن ترتيب نباتاتها مصمم ليظهر المضامين الثقافية فيها. أما الحدائق الإسلامية فتسعى إلى مشهد يشبه السجادة في تصميم النباتات، فتستخدم أشجار الكافور الأصفر مع أسوار الخيزران لصنع أنماط بديعة. وفي مرحلة تالية، ترتب قطع من الرخام بيضاء كالثلج على



الصورة 6-34 حديقة القصر الغربية في قلعة أكرا، الهند (تصوير Kjohri)

تنتظم الزهور في الحديقة على نمط سجادة للحصول على أثر فني منتظم يخالف الجاذبية الطبيعية التي تسعى الحدائق الصينية إلى تقليدها.

العشب الأخضر لتشكل شكلاً رائعاً يشبه سجادة بديعة التصميم. يمكننا أن نرى هذا الأسلوب في باحة العنب التي صممها الإمبراطور أكبر في الهند، وحديقة القصر الخلفية (الصورة 6-34) التي بناه شاهجهان في عهد الإمبراطورية المغولية.

إذا ألقينا نظرة إجمالية على الحدائق الصينية، فإن الغالب عليها هو النزعة الانطباعية، والتعبير القائم على الحدس، ومحاكاة الطبيعة، والجاذبية العاطفية، والقدرة على تحفيز الخيال والارتباطات النفسية؛ سعياً وراء المثال الأعلى الذي يصفه القول: «قد تكون للكلمات نهاية، ولكن لا نهاية للرسالة التي توصلها».

أما الحدائق الإسلامية فيغلب عليها الطابع الواقعي، والتعبير العقلاني، ووصف الطبيعة موضوعياً، وصنع الأنماط الهندسية، والترتيب والتجانس سعياً وراء تصميم منتظم ورقيق وجميل.

بشكل عام، لقد سعينا في هذا الفصل إلى مقارنة الحدائق الصينية مع نظيرتها الغربية واليابانية والإسلامية لمعرفة الأرضيات المشتركة وكذلك الفروقات بينها. ولعل هذا يفيد في أن يتعلم مصممو كل من هذه الحدائق من محاسن الأخرى لصنع حدائق مستقبلية تخدم الإنسانية جمعاء، وتكون نموذجاً لجنة السماء على الأرض.

المراجع:

[1] Chen Congzhou, Zhang Jingwu. On Gardens [M]. Changsha: Hunan University Press, 2009.

[2] Chen Congzhou. Suzhou Gardens [M]. Shanghai : Tongji University Press, 1956.

[3] Chen Congzhou. Yangzhou Gardens [M]. Shanghai: Shanghai Science & Technology Press, 1983.

[4] Chen Congzhou. On Gardens [M]. Jinan: Shandong Pictorial Publishing House, 2002.

[5] Chen Congzhou. On Gardens [M]. Shanghai: Shanghai Culture Publishing House, 1985.

[6] Wang Sanshan, Zhou Yaolin. The Way of Garden Construction—Chinese Architecture and Garden [M]. Wuhan: Wuhan University Press, 2009.

[7] Cao Lindi. Chinese Garden Culture [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2005.

[8] Cao Lindi. An Introduction to Chinese Garden Culture [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2009.

[9] Zhang Jiaji. A Mini Encyclopedia of Chinese Garden Art (1st edition) [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2010.

[10] Zhou Wuzhong. Garden of Repose—Chinese Garden Culture [M]. Jinan: Jinan Publishing House, 2004.

[11] Chen Congzhou, Zhu Xijun, Wu Lvming. Chinese Gardens [M]. Guangzhou: Guangdong Tourism Publishing House, 2004.

[12] Wu Zhaozhao. Chinese Gardens · Conception, Creation and Expression [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2005.

[13] Cao Lindi, Cheng Menghui. On the Art of Chinese Gardens [M]. Taiyuan: Shanxi Education Publishing House, 2001.

[14] Liu Liping. A Dictionary of the Chinese Garden Art [M]. Taiyuan: Shanxi Education Publishing House, 1997.

[15] Mao Peilin, Zhu Zhihong. Artificial Hills in the Chinese Gardens [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2004.

[16] She Zhichao. An Account of the Chinese Gardens [M]. Beijing: Guangming Daily Publishing House, 2006.

[17] Jin Xuezhi. Aesthetics of the Chinese Gardens [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2005.

[18] Gan Weilin, Wang Zemin. Cultural Envoys—Chinese Garden Built Overseas [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2000.

[19] Chen Congzhou. A Dictionary of Appreciating the Chinese Gardens [M]. Shanghai: North-east China Normal University Press, 2001.

[20] An Huaiqi. Chinese Garden Art [M]. Shanghai: Tongji University Press, 2006.

[21] Ren Xiaohong, Ren Xuefang. Zen and the Chinese Gardens [M]. Beijing: The Commercial Press, 1995.

[22] Li Zhiruo, Zhu Jianning. Western Gardens [M]. Zhengzhou: Henan Science & Technology Publishing House, 2011.

[23] Chen Qixiang. Western Garden Art [M]. Tianjin: Baihua Literature & Art Publishing House, 2010.

[24] Zhu Jianning. A History of Western Gardens [M]. Beijing: China Forestry Publishing House, 2011.

[25] Ni Qi. Western Gardens and Environment [M]. Hangzhou: Zhejiang Science & Technology Publishing House, 2000.

[26] Xu Jinsheng. Japanese Gardens and Chinese Culture [M]. Shanghai: Shanghai People's Publishing House, 2011.

[27] Liu Tingfeng. A Course Book on Japanese Gardens [M]. Tianjin: Tianjin University Press, 2005.

[28] Guo Fengping, Fang Jianbin. A History of Chinese and Foreign Gardens [M]. Beijing: China Architecture & Building Press, 2005.

[29] Tom Turner. Garden History [M]. Lin Qing, Trans. Beijing: China Forestry Publishing House, 2011.

[30] Li Jing. An Introduction to Gardens [M]. Nanjing: Southeast University Press, 2009.